سمير الفيل: أنا بخير مادمت أكتب.. والقصة القصيرة فى ازدهار

اعترافات مصطفى وزيرى.. رجل الاكتشافات والحفائر

محمد عبلة: رد الوسام الألمانى «أقل واجب» أقدمه لفلسطين

حرف

الدستور الثقافى

الأربعاء
13 مارس 2024
3 رمضان 1445
4 برمهات 1740

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر
العدد 10
رئيس مجلسى الإدارة والتحرير محمد الباز

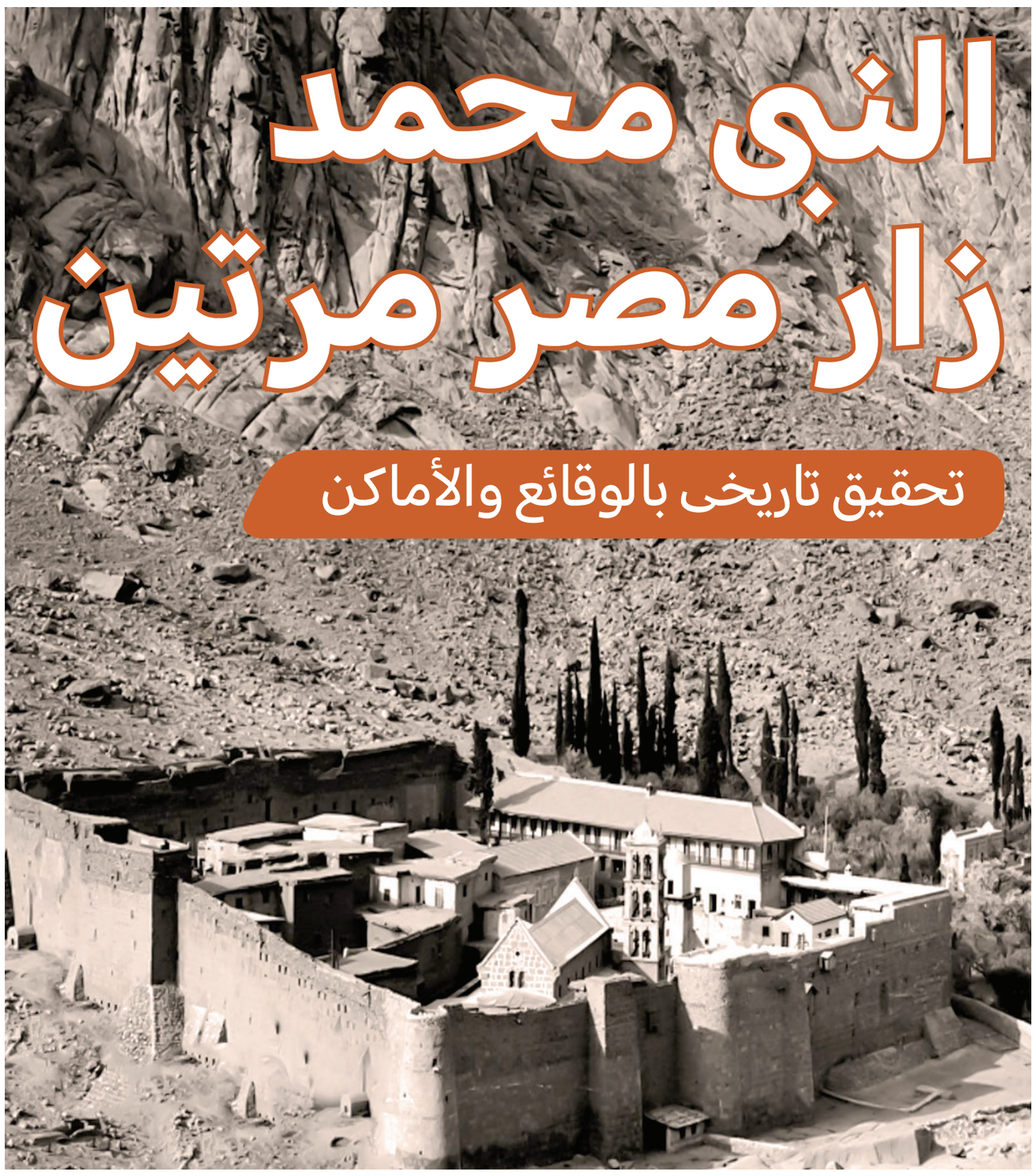

النبى محمد زار مصر مرتين

تحقيق تاريخى بالوقائع والأماكن

الأسئلة الحائرة عن الله

الأطفال يسألون والإمام يجيب

اختراق المجتمع الإسرائيلى بـ«سيرة الرسول»

كشف ثقافى مهم.. تفسير سورة العلق لـ«زكى نجيب محمود»

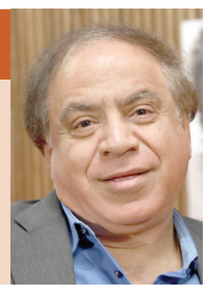

أحمد الشهاوى

يختص الشاعر الكبير جريدة «حرف»، فى عددها العاشر، بقصيدته الجديدة التى تحمل عنوان «كأنك شامة بين الناس».

محمد العسيرى

الشاعر الغنائى والمؤرخ الموسيقى فى زيارة جديدة لأساطير الغرام فى الغناء الشعبى.. ورؤية مختلفة لقصص من تاريخنا «الشعبى».

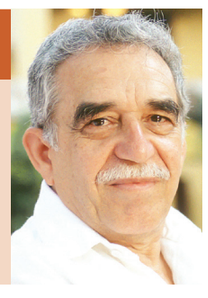

ماركيز

ترجمة وافية للحوار الذى أجرته شبكة «بى بى سى» مع كريستوبال بيرا، مُحرر رواية «نلتقى فى أغسطس»، للكاتب الأشهر جابرييل جارسيا ماركيز.

عصام السيد

الناقد المسرحى جرجس شكرى يحاور المخرج المسرحى عصام السيد عن مسيرته الإبداعية، التى قدم خلالها ما يزيد على 60 عملًا مسرحيًا احترافيًا منذ عام 1981.

الدستور تطلق منتدى «أوراق» فى حضرة عبدالرحيم كمال

الشاعر الكبير أحمد الشهاوى

كأنَّكِ شامَةٌ بينَ النَّاس

ليستْ زائِدةً فوقَ العيْنِ
هىَ ظاهرةٌ للقلبِ
وليستْ تحْجُبُ نُورَ الشَّمسِ
هى حَظٌّ نامَ على الحاجبِ
تَحرُسُ قلبًا يشرَبُ نهرًا كُلَّ صباحٍ
هى رُتبةُ سيدةٍ أنصعُ من عَبَّادِ الشَّمسِ
تعرفُ كيفَ تفكُّ السرَّ
وكيفَ ترشُّ الأرضَ بماءِ يديْها حِينَ يُلامسُ
شَامَتَها
تدُورُ كقُرصٍ يتأرجَحُ بينَ الصَّمتِ
وبينَ لُغَاتِ أبيها فى آخرِ يومٍ
حَدَّثها فيهِ عن معنَى المعنَى وعن مَعنَى العائلةِ
وأنَّ الطفلَ سيُرزَقُ بسَمَاءيْنِ من الماسِ الأزرق.

الشَّاماتُ علاماتُ لُغاتٍ سِريَّة
مُغطَّاةٌ برسائلَ وحىٍّ
ليستْ سَطْحًا فوقَ الجِلْدِ
وليستْ موْجًا ينحَرُ جسدَ البحْرِ
حينَ يثُورُ
الشَّامَةُ تعرفُ أكثرَ من ضَوْءٍ بذراعٍ رُفِعتْ
تنحتُ أفْقًا آخرَ للحرْفِ
هى نُقطةُ بدءٍ ومسَارْ
هى حُسْنٌ يحملُ قمَرًا يَضْوِى
فوقَ رُمُوشٍ تعِبَتْ
من دمعٍ مالَ وسالَ
وغطَّى أرضَ الدِّلتا.
هى مطرٌ يروِى شجرَ القبْرِ هُناكَ

حيثُ تنامُ اللغةُ جوارَ الصَّبَّارِ
وحيثُ تُسبِّحُ عينٌ يُمنَى بِمَا شافتْ
بعد الفقْدِ وقبضِ الرِّيح
هى حِبرٌ سالَ ليكتُبَ لامرأةٍ تاريخًا لا يتنكَّسُ
عَلَمٌ لَهْ
هذى امرأةٌ عاشرَتِ النُّورَ
ولم تتنازل يومًا عن سُلطتِها
فى صيْدِ نجُومٍ تنزلُ فى شُرفتِها
تشْرَبُ شايًا أخضرَ بالنعناع
هذى امرأةٌ جامِحةٌ لا تعرفُ زَبَدَ البحْرِ
ولا تصطادُ سِوى الحَرْفِ الأوَّلِ من لُغةِ الشَّمس.

القاهرة- 21 فبراير 2024

أهلى وجيرانى

فيروز كراوية

مؤمن المحمدى

يظن الكثيرون إنه الجدية فضيلة «شخصية»، يعنى انطلاقها بـ يكون من دوافع تخص الشخص، ومردوها بـ يكون عائد على الشخص، والمجتمع مالوش علاقة بـ القصة دى، والكلام دا بـ تلخصه ما نعلمه لـ أطفالنا دائمًا بـ عبارة أو بـ أخرى: من جد وجد.

إنما مفهومى الشخصى لـ الجدية غير كدا، بـ أعتبر الجدية هو نوع من الوعى، أساس الوعى هو القدرة على التمييز بين القيم المختلفة، بـ غض البصر عن إعلاء قيمة على أخرى، إنما إدراك الاختلاف بين القيم، والقدرة على قياسها، هو دا ما نسميه الوعى، لـ ذلك مفيش علاقة بين الوعى وحجم القراءة مثلًا، إنما الوعى بـ بساطة إنك ما تخلطش أبو قرش على أبو قرشين.

لما يزيد الوعى دا، بـ تبقى «شايف»، ولما بـ تشوف مش بـ تقدر تتعامل مع الأمور بـ بساطة، وبـ تبقى شايف خطورتها، وأهميتها وتأثيرها، بـ التالى غصب عنك مش بـ تتعامل معاها بـ خفة، حتى لو حبيت تعمل كدا، مش هـ تعرف، ودا اللى بـ يوصفه المتنبى:

وكلمة فى طريق خفت أعربها
فيهتدى لى، فلم أقدر على اللحن.

اللى هو أنا عايز أقول الجمل غلط نحويًا، لـ إنه كان متخفى ومطلوب سياسيًا، فـ مش عايز يبان إنه شاطر فى اللغة والحاجات دى، لكن مش عارف، الأمر هنا لا يتعلق بالصواب والخطأ، إنما بأنه مش قادر يستهتر بـ قواعد النحو، حتى لو عايز.

لـ ذلك، نادرين جدًا اللى قابلتهم، ويمكن وصفهم بـ الجدية كـ سمة أساسية عندهم، صحيح النسبة تتفاوت من شخص لـ شخص، وفيه «س» أكتر جدية من «ص»، لكن إنك لما تفتكر فلان، دا يستدعى لـ ذهنك فورًا كلمة «جادّ»، دا نادر، ومن النادرين دول فيروز كراوية.

أفتكر إنها قالت لى مرة إنها عايزة تتعلم «عروض»، والعروض، هو أوزان الشعر كما صاغها الخليل بن أحمد الفراهيدى، فـ أشفقت عليها، لـ إنه دى حاجة قديمة وممكن تاخد مجهود، ثم ليه؟ ليه؟ إزاى أسأل ليه؟ هو فيه حد ممكن يتصدى لـ الغناء سواء ممارسة أو تحليل ونقد من غير ما يكون عنده معرفة بـ العروض؟

طيب، المشكلة إنه صعب تعرف العروض من غير معرفة النحو والصرف. خلاص يبقى أتعلم نحو وصرف أولًا، وفعلًا قعدنا نذاكر نحو وصرف وعروض وتاخد واجب وتحله، وأظن إنه الموضوع ما كانش بسيط، لكن ثابرت جدًا، والمثابرة مش لـ إنها عندها فائض طاقة مش عارفة توديه فين فى ظل التزامات عملية واجتماعية، إنما هو بـ الأساس جدية، نتيجة وعى حصل عن طريق إدراك القيمة والأهمية.

ملحوظة على جنب: ممكن يكون تقديرك لـ القيم مختلف، وتكون شايف الأمر يستلزم إعلاء قيم أخرى، إنما دا مش موضوعنا دلوقتى.

المهم، مش عايز أختزل فيروز كـ شخص وكـ ذات تجارب ثرية فى الفضاء الثقافى بـ وجه عام، كـ مطربة وباحثة، فى الحتة دى، لـ إنه الكلام عن إنتاجها يطول، فقط عايز أشاور على حاجة مفتقدة جدًا حتى عند نخبتنا، أو بـ الأحرى بـ الذات عند نخبتنا، لـ إنه كتير من صعوبة الحال راجع لـ افتقاد الجدية دى.

افتقاد الجدية يعنى إهدار المعايير، وإهدار المعايير يعنى توسيد الأمور إلى غير أهلها، وتوسيد الأمور إلى غير أهلها يعنى إنتاج قليل، والأمر دا فى الفن أو الثقافة أو فى أى منحى من مناحى الحياة.

ما أرجوه فقط هى إنها ما تزهقش، لـ إنه بـ جد، الجد صعب.

> المثابرة عند فيروز كراوية نتيجة وعى حصل عن طريق إدراك القيمة والأهمية

حرف

الدستور الثقافى

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

03

الأربعاء
13 مارس 2024
3 رمضان 1445
4 برمهات 1740

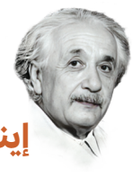

كل الأديان والفنون والعلوم هى فى الحقيقة فروع لنفس الشجرة، وكل هذه المناهج موجهة نحو رفع الإنسان وإرشاده نحو الحرية الفردية.

إينشتاين

على هامش اقتراح اعتبره البعض مثيرًا للجدل

محمد الباز

عملية تحرير المساجد فى مصر

تشغلنى منذ سنوات بعيدة أسئلة عديدة عن الدور الذى يجب أن تقوم به المساجد فى حياتنا.

كنت أتعجب مما يحدث داخل المساجد فى بلادنا، وكأنها جُعلت فقط لإقامة الصلاة، فإذا ما أقيمت الصلوات غادر الجميع المساجد وتركوها مغلقة وراءهم، ولم يكن يتغير شىء إلا فى شهر رمضان، حيث تتحول المساجد إلى خلية نحل، العبادة فيها قائمة معظم ساعات النهار والليل، وقراءة القرآن دائمة لا تنقطع أبدًا.

مرت على المساجد فى مصر عهود كان يتم إغلاقها بقرار إدارى بعد أداء الصلوات، ولم يكن هناك أحد يشكو من ذلك، اللهم إلا من كانوا ينامون فى المساجد بعد الصلوات يحاولون تزجية الوقت بمزيد من الفراغ.

كانت إدارة الدولة المصرية للمساجد، وخلال عقود طويلة بائسة جدًا، وكانت النتيجة الطبيعية أن يتم اختطاف هذه المساجد بتخطيط واضح ومع سبق إصرار وترصد من الجماعات المتطرفة، على رأسها جماعة الإخوان الإرهابية، ولك أن تتخيل أن هذه الجماعات كانت تقسم المساجد فيما بينها، وتحرم على بعضها البعض دخول المساجد التى تخصها.

فى هذه المساجد المختطفة كان يتم تجنيد مئات الآلاف من الشباب، جعلت منهم الجماعات التى غسلت أدمغتهم مطية يركبونها ويوجهونها الوجهة التى يريدونها، ليتحول هؤلاء الشباب إلى قنابل موقوتة، وفى الوقت المحدد لها انفجرت فى وجه المجتمع وفى صدور الناس، ولا يخفى على أحد ما شهدناه من مساخر ارتكبت باسم الدين.

يمكن أن أعطيكم مثالًا واحدًا لما جرى.

تذكرون جميعًا الشيخ عبدالحميد كشك، الرجل الذى تعتبره الجماعات الإرهابية ويعتبره كثيرون ممن لا ينتمون إلى هذه الجماعات أهم وأبرع من صعد المنبر فى القرن العشرين، دون أن يلتفتوا إلى الأثر السام الذى تركه وراءه.

صحيح أن الشيخ كشك كان موظفًا فى وزارة الأوقاف، عينته الوزارة إمامًا وخطيبًا فى مسجد عين الحياة فى حدائق القبة، وبمرور السنوات جعل الشيخ كشك هذا المسجد مستعمرة خاصة به هو، أصبح مع الأيام أقوى من الوزارة وأجهزتها المختلفة، واستطاع أن يجند آلافًا من الشباب ويدفعهم دفعًا إلى الدخول فى صفوف الجماعات الإرهابية.

ويشهد على ذلك عدد من قيادات الجماعة الإرهابية، وبعضهم غادرها إلى غير رجعة، ويمكنكم أن تسألوا المفكر الكبير ثروت الخرباوى كيف دخل إلى جماعة الإخوان؟

كان ثروت شابًا فى مقتبل حياته، قادته الصدفة أو ترتيب الأصدقاء إلى أن يحضر خطبة للشيخ كشك فى مسجد عين الحياة، وكانت الصدفة أيضًا أن خطبة الشيخ عن سيد قطب وليلة اغتياله، وعندما نراجع هذه الخطبة سنقف على ما فيها من إفك وأكاذيب وأساطير وخرافات وقصص مخترعة لا صلة لها بالواقع، لكن ما جرى أن هذه الخطبة كان لها مفعول السحر فى نفس الشاب ثروت الذى خرج من المسجد، وهو ينتوى الانضمام إلى جماعة الإخوان.

يمكن أن نضرب عشرات الأمثلة على المساجد التى تم إخراجها من حزام سيطرة الدولة، ودخولها تحت سطوة الجماعات الإرهابية، ولا ننكر أن هذه المساجد كانت تتحول إلى مؤسسات ضخمة تمارس فيها كل الأنشطة التى تخدم أهداف الجماعات وتحققها، فقد ربطوا الناس من خلال مستوصفات طبية ألحقوها بهذه المساجد، وتم تأسيس جمعيات خيرية جذبوا من خلالها الناس بالمساعدات والعطايا، وأصبحت مركزًا للدروس المجانية، فأقبل الطلاب عليها من كل فج عميق.

بعد ٣٠ يونيو ٢٠١٣ انتبهت الدولة إلى خطورة المساجد التى كانت تحت أيدى الجماعات، فقررت أن تحررها، ولا يمكن أن أتجاهل الجهد الكبير والهائل الذى بذله الدكتور محمد مختار جمعة وزير الأوقاف، الذى حمل على عاتقه مهمة تحرير المساجد من الجماعات المتطرفة، وهى عملية لم تكن سهلة أبدًا، وأعتقد أن هذه التجربة يجب أن توثق فى كتاب، لأنها من بين جهود الجمهورية الجديدة، ولدى الدكتور مختار جمعة والفريق المعاون له آلاف الحكايات التى يجب أن تروى.

لكن الأسئلة التى تفرض نفسها علينا، وبعد مرور كل هذه السنوات، هى: هل تم تحرير المساجد بشكل كامل؟ هل يمكن أن نقول إن عملية استردادها تمت على الوجه الأكمل الذى نريده ونحلم به؟، هل أصبحت المساجد مؤسسات متكاملة تعين الدولة على تحقيق أهدافها.. أم أننا حررنا المساجد فقط ممن كانوا يسيطرون عليها وكفى الله المؤمنين شر القتال بعد ذلك؟

لا أنكر أن هناك جهودًا كبيرة بذلت فى إعادة تأهيل من يقومون على شئون المساجد، وتم توفير جيل من الدعاة والوعاظ مختلف تمامًا عن الوعاظ السابقين الذين كانوا يغرقون الناس فى بحار القشور الدينية، فلا يدخلون بهم إلى بحار الدين العميقة، ولا يعقدون صلحًا بينهم وبين الدين والحياة، لكننى أعتقد أننا لم نفعل كل المطلوب منا.

فحتى الدعاة المحدثون- إذا جاز لنا أن نطلق عليهم ذلك- لا يزالون غير مؤهلين بشكل كامل لخوض غمار المعركة الكبرى التى أعلنت عنها الدولة، وهى معركة تجديد الفكر الدينى.

لا أميل كثيرًا إلى مسألة تجديد الخطاب الدينى، فالمصطلح غامض ومريب ولا يجيد الكثيرون فهمه، والأقرب إلى الصواب هو تجديد الفكر الذى هو نتاج تعامل الفقهاء القدامى مع النصوص المقدسة التى وردت فى القرآن الكريم، أو تلك التى وردت فى السنة النبوية الصحيحة، فهذا الفكر كان نتاجًا لاجتهادات السابقين التى تناسب عصورهم وتتناسب مع ثقافاتهم، وهو الفكر الذى يحتاج إلى تجديد؛ لأنه غير قادر على التفاعل مع مشكلاتنا المعاصرة، وهى مشكلات معقدة ومتشابكة.

لدىّ أفكار كثيرة يمكن أن أسوقها بين يدى من يديرون الأمور ويدبرونها، لكننى توقفت أمام فكرة صغتها، وجعلت منها مجرد اقتراح كتبته على صفحتى الشخصية بـ«فيسبوك» وأرسلتها بشكل شخصى إلى وزير الأوقاف الدكتور مختار جمعة.

يقوم هذا الاقتراح على سؤال واضح ومحدد، هو: لماذا لا يقدم كبار المثقفين والمفكرين والفلاسفة محاضرات فى المساجد؟

أعرف أن هذه الفكرة قد لا تروق لكثيرين، لكننى أرى أنها مهمة وسيكون لها أثر كبير، فما الذى يمنع أن تستعين وزارة الأوقاف بعدد من كبار المثقفين والمفكرين والفلاسفة لتقديم محاضرات فى المساجد؟ ويمكن أن نبدأ بالمساجد الكبرى فى المحافظات المختلفة، ونستغل شهر رمضان فى تعظيم قيمة الفكرة، فالإقبال على المساجد فى الشهر الكريم كبير.

يمكن أن تستعين وزارة الأوقاف لتنفيذ الفكرة بأسماء مهمة، مثل الدكتور سعيد توفيق، أستاذ علم الجمال بجامعة القاهرة، والدكتور يوسف زيدان، والدكتور أحمد عكاشة، والدكتور محمد المهدى، أستاذ الطب النفسى بجامعة الأزهر، والدكتور عبدالمنعم سعيد، والدكتورة هدى زكريا، ويمكن أن أضع أمام وزير الأوقاف- لو قرر تنفيذ الفكرة- أكثر من ألف اسم يقدر على المشاركة.

يعتقد البعض أننى أرشح هؤلاء للحديث فى الدين.

لا أقصد إلى ذلك إطلاقًا.

أنا أريدهم أن يتحدثوا فى الحياة، لأننا جميعًا نريد أن نعرف عن الحياة أكثر، لذلك لا أقترح أن يصعد هؤلاء المنابر، ولكن يكفى أن تكون محاضراتهم فى مواعيد الدروس التى تخصصها الوزارة بالمساجد؛ لنمنح عقول مصر الحقيقية فرصة الوصول إلى الناس مباشرة للحديث معهم والرد على تساؤلاتهم والنقاش حول ما يشغلهم، وليكن هذا فى المساجد التى يجب أن تكون مؤسسات للفكر والثقافة والتنوير.

جربوا ولن تخسروا شيئًا.

إننى هنا أجدد الدعوة مرة أخرى.

لقد اعتبر البعض ما طرحته أمرًا مثيرًا للجدل، واعتبره البعض غريبًا وشاذًا، ويجب ألا نقترب منه بالمناقشة من الأساس، وليس بالتفكير فيه لتنفيذه، وحاول البعض تصوير ما قلته على أنه محاولة جديدة لهدم الدين، بل اعتبره البعض إساءة للإسلام، لكن ما أسعدنى أن هناك كثيرين اعتبروا الاقتراح مهمًا، ولا بد من تنفيذه على الفور، فقد تأخرنا كثيرًا فى تحقيقه.

المفاجأة كانت فى رد وزير الأوقاف على الاقتراح، قال لى عندما قابلته فى احتفالية يوم الشهيد إن الفكرة لا بأس بها، وإنه يمكن أن يفكر فى تنفيذها، ولكن مع بعض التعديلات.

وزير الأوقاف قال لى إنه طلب من وزارة الصحة أن تخصص عددًا من الأطباء للحديث مع الناس، على رأسهم الخطباء بالفعل، وحدد موضوعين للحديث فيهما، وهما الزيادة السكانية للتوعية بمخاطرها، والطب الوقائى وضرورة الأخذ بأبجدياته، أما عن موضوع المفكرين والفلاسفة والمثقفين، فيمكن أن تكون هناك مرحلة أولى للتنفيذ، وهى أن تكون هناك محاضرات يلقيها هؤلاء على خطباء المساجد ووعاظها، من خلال أكاديمية الأوقاف للتدريب، التى شهدت بالفعل عددًا من المحاضرات من متخصصين فى مختلف المجالات، وكان تفاعل الدعاة معها كبيرًا جدًا.

لا بد أن أشير هنا إلى تجربتى، فقد ألقيت محاضرة فى أكاديمية الدعاة، حضرها عدد من العاملين فى الدعوة، وطرحت عليهم أفكارًا من خارج الصندوق بالفعل، وكان التفاعل معها كبيرًا، وهو أمر لا بد أن أوثقه هنا، لأنه واقع يجب ألا أتجاهله.

أقدر بالطبع تفاعل وزير الأوقاف الدكتور مختار جمعة، وأقدر أيضًا وعده بأن يتيح لعدد من الفلاسفة والمثقفين والكتاب والمفكرين الفرصة كاملة لأن يلتقوا الدعاة، فهذا يمكن أن يكون له أطيب الأثر فى دعم تأهيل الدعاة؛ ليكونوا أكثر قدرة على التعامل مع مستجدات الحياة ومع المشاكل المعاصرة التى لم يتطرق لها الدعاة والمجتهدون القدامى.

لكننى أسعى لما هو أبعد من ذلك.

فالمحاضرات التى أسعى إليها أكبر من مجرد محاضرات تلقى فى دورات تدريبية، ولكنها محاضرات تكون مباشرة يجلس فيها المثقفون والمبدعون والفلاسفة مع الناس وجهًا لوجه، يستمعون إلى أسئلتهم وأفكارهم وما يشغل بالهم، يتحدثون مع الناس دون وسيط.

هذا يحقق فى الواقع فائدتين من وجهة نظرى.

الفائدة الأولى، أنها ستلغى من الذهنية العامة الصورة المرسومة عن هؤلاء المثقفين، وهى أنهم ضد الدين يعادونه ويريدون هدمه، رغم أن هؤلاء ليسوا أبدًا ضد الدين، ولكنهم ضد الاستخدام النفعى للدين، ووجودهم فى المساجد يمكن أن ينهى حالة اللبس من حولهم، وأعتقد أنهم بذلك يمكن أن يكونوا إضافة قوية لمسيرة الفكر الدينى.

الفائدة الثانية، هى رفع وعى الناس بشكل حقيقى، فالنقاش المفتوح سيكون أكثر فائدة، فالدين عند المصريين هو الحياة، لكن الدعاة التقليديين وضعوا بينه وبين الحياة حجابًا، ولا بد أن نقوم جميعًا بتمزيق هذا الحجاب، لأن هذا فيه فائدة كبرى للدين والحياة فى آن واحد.

لا أتعجل بالطبع تنفيذ الفكرة، فكثيرون يمكن أن يقوموا بتعطيلها، لأن المصالح أقوى من الدين، لكننى أعرف أننا يومًا ما سنصل إلى تحقيقها، لأن الحياة تنتصر دائمًا، حتى لو كان هناك من يخططون لتعطيلها ووضع أكبر المعوقات فى طريقها.

إننى أتخيل معكم مجرد تخيل، لو أن الفرصة كانت أتيحت لمفكرينا الكبار أمثال طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل وأحمد أمين وتوفيق الحكيم ويحيى حقى وفؤاد زكريا وزكى نجيب محمود وحسن حنفى وفرج فودة ونصر حامد أبوزيد، أن يجلسوا إلى الناس فى المساجد، ليشرحوا لهم أفكارهم، ويضعوهم أمام أفكارهم واجتهاداتهم، أعتقد أن شكل الحياة كان سيتغير بدرجة كبيرة، ولما استطاعت الجماعات الإرهابية اختطاف المساجد وجعلها منصات لإطلاق الرصاص على صدر المجتمع.

اقتراحى هو: لماذا لا يقدم كبار المثقفين والمفكرين والفلاسفة محاضرات فى المساجد؟

محمد مختار جمعة

يمكن أن تستعين وزارة الأوقاف لتنفيذ الفكرة بأسماء مهمة مثل الدكتور سعيد توفيق أستاذ علم الجمال بجامعة القاهرة والدكتور يوسف زيدان

قلم النرجس

سمير الفيل: القصة القصيرة المصرية فى حالة ازدهار.. وأنا بخير مادمت أكتب

يرى أن القصة القصيرة أنبل الأشكال السردية وأكثرها صفاء، وأنها فن نبيل مراوغ، لا يلتفت للنماذج النمطية أو الكتابات المكررة، ولعل هذا ما جعله يحول دفة تخصصه إلى هذا الفن الإبداعى، بعد سنوات من كتابة الشعر. إنه القاص سمير الفيل، الذى فاز بجائزة «الملتقى» للقصة القصيرة العربية، التى تمنحها جامعة الشرق الأوسط الأمريكية فى الكويت، عن مجموعته القصصية «دمى حزينة»، الصادرة عن دار «بتانة» للنشر، عام 2022، كأول مصرى يفوز بهذه الجائزة.

ولـ«الفيل» العديد من المجموعات القصصية التى أثرت المكتبة العربية، من بينها: «خوذة ونورس وحيد، وأرجوحة، وكيف يحارب الجندى بلا خوذة؟، وانتصاف ليل مدينة، ودفتر أحوال، شمال.. يمين، ومكابدات الطفولة والصبا، وصندل أحمر، وقبلات مميتة، وهوا بحرى، والأبواب، وجبل النرجس، وحمام يطير، واللمسات، والأستاذ مراد، وحذاء بنفسجى بشرائط ذهبية»، وغيرها الكثير.

عن جائزة «الملتقى» والجوائز الأدبية بصفة عامة، والنقد الذى لا يلتفت إلى الأعمال الأدبية إلا بعد فوزها بالجوائز، والعلاقة بين الرواية والقصة القصيرة، سواء كانت تنافس أم تكامل، كان لـ«حرف» الحوار التالى مع القاص سمير الفيل.

القاص سمير الفيل مع عدد من الأصدقاء والقراء

نضال ممدوح

■ بعد فوزك بجائزة «الملتقى» للقصة القصيرة.. فى رأيك لماذا لا ينشط النقد إلا بعد فوز كاتب بجائزة ما أو حتى ترشحه؟ أليس العكس هو ما يجب أن يحدث؟

– بعض النقاد يتجهون إلى النصوص الفائزة ليعالجونها نقديًا، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى وجود كم هائل من الإصدارات، لذلك يكون التوجه للأعمال الفائزة لضمان جودتها، علاوة على فضول القراء الذين يتساءلون عن سبب صعود مجموعة أو رواية ما إلى منصات التتويج، وهذا ليس أمرًا معيبًا.

ما يهمنى هنا أن يتخلص الناقد من الأحكام المسبقة، ويعكف على قراءة فاحصة متأملة للأعمال التى يتصدى لمعالجتها نقديًا، بشرط عدم إصدار حكم قيمى حول العمل. نحن نعرف أن النقد يضيئ للكاتب طريقه، ويعطى الأعمال حقها بالكتابة المتوازنة.

■ منذ بدأت الكتابة وحققت مكانة أدبية، لم تغادر مسقط رأسك دمياط، هل فكرت فى الإقامة بالعاصمة، حيث المركز بكل ما يتبعه من شهرة؟

– ليست بطولة أدعيها، ولكنها قرارات مصيرية اتخذتها مبكرًا بالبقاء فى الوسط الاجتماعى، لأنه مادة الكتابة الأصلية، دونها أصبح منفصلًا عن الواقع، خاصة أن أعمالى فى الغالب ذات نزعة واقعية، تحتفى بالمكان، الذى ربما يصبح بطل النص، كما فى مجموعات «صندل أحمر»، و«مكابدات الطفولة والصبا»، و«هوا بحرى»، والمجموعة الأخيرة مثلًا دارت حول شخصيات من قلب البيئة الساحلية، فى مناطق مثل «عزبة البرد» و«شطا» و«رأس البر».

أنا ابن المكان، يهمنى أن أبقى قريبًا من مصادرى المعرفية، غير أننى لا أدين مسألة النزوح إلى العاصمة، فنحن أبناء وطن واحد، وعلينا إدراك الفوارق بين الكُتاب وأمزجتهم.

لقد حاولت التغلب على البعد المكانى فى البعد عن القاهرة، بانتهاز أى فرصة لرؤية المعارض التشكيلية، وزيارة المتاحف، ومتابعة مهرجانات الفن المسرحى، الأمر الذى أفادنى جدًا فى التعامل مع الواقع الثقافى، دون أن انضم إلى أى «شلة»، فطبيعتى تحمل فكرة قبول الاختلاف.

■ تكتب الرواية من حين لآخر، لكنك مازلت مُخلصًا للقصة القصيرة، أيهما الأقرب إليك؟ ولماذا لم تخض مجال الرواية، خاصة فى ظل الرواج الذى تحققه مقابل القصة؟

– نعم، هذا صحيح، كتبت روايتين عن أدب الحرب، هما: «رجال وشظايا»، و«وميض ظل الحجرة»، وبينهما رواية ثالثة هى «ظل الحجرة»، لكن ظل ولائى الأول للقصة القصيرة، التى منحتنى بعض أسرارها، وباتت أبوابها الفضية تلوح لى دون أن أفقد البوصلة: الصدق الفنى، والانحياز لقضايا الإنسان.

منذ ١٩٧٤ صرت كاتبًا للقصة فى الخفاء، وابتداءً من عام ٢٠٠١، دخلت موقع «القصة العربية»، ونشرت ١٥٠ قصة فى سنوات قليلة، وهنا وجب التحية لمدير الموقع، جبير المليحان.

■ أين يبدأ الخيال وينتهى فى عالمك الإبداعى؟

– سيبدو كلامى غريبًا، أنا لا أفصل الخيال عن الواقع، فثمة دوائر اتصال بينهما، وقد تجد ذلك فى مجموعات قصصية، منها: «اللمسات»، و«الأبواب»، و«ليمون مر».

وفى تصورى، أن الهواجس والأحلام ومسارات الفجائع تبث فى النص القصصى، لتحول الواقع إلى خيال، ومن مفارقات الكتابة أن هناك من يبدأ من الخيال ولا يهمه الواقع، وهو ما يصنع فجوة بين الكاتب والمتلقى. شخصيًا أميل لفكرة المزج، غير أن تيمات من الوقائع تدخل بوابة المجاز بقوة فتمنحه مذاقًا فريدًا.

■ إلى أى مدى تمثل الجوائز الأدبية تحققًا وانتشارًا للكاتب؟

كيف ترى مستقبل القصة فى مصر؟

ـ أنا حسن الحظ بتحكيمى عدة مسابقات، منها «مبادرة أكوا»، و«لجنة السرد» باتحاد الكتاب، والهيئة العامة لقصور الثقافة، وهيئات أخرى. اكتشفت أقلامًا واعدة، منها: هبة الله أحمد، ورشا عبادة، وإيمان الزيات، وحبيب صيام، ودعاء البطراوى، وجلاء الطيرى، وهبة السويسى، وخارج المسابقات: فكرى عمر، وحسام المقدم، ودعاء زيان، وشاهيناز الفقى، وتيسير النجار، ومحمد بربر، وعزت الخضرى، ومها الخواجة، وآمال سالم.

ولا يمكن إنكار الكتابات الطليعية لجيل سبقهم، وله تجارب غاية فى الروعة، مثل: طارق إمام، وحسن عبدالموجود، وفكرى داود، ومصطفى البلكى، وسمير المنزلاوى، والدكتور شريف صالح، ومعهم كاتب له نزعة متصوفة هو محمد إبراهيم طه، كل واحد من هؤلاء يضيئ المشهد القصصى. وبصفة عامة، أرى أن القصة القصيرة فى مصر فى حالة ازدهار، وأنا على عتبة الـ 74 بخير، مادمت أكتب.

حصول القاص سمير الفيل على جائزة الملتقى

■ بمنتهى الصراحة، لا يمكننى إصدار حكم قيمة على نص أدبى بالاعتماد على الجوائز، وبعضها مهم، لأن هناك ظروفًا وملابسات تجعل من قبيل عدم اللياقة القول إن هذا الكاتب يبيع وذلك لا يبيع.

كثيرون هرولوا إلى الرواية، لأن جوائزها كثيرة، ومن مؤسسات ودول مختلفة، بينما القصة القصيرة لا تجد مثل هذا التوجه. وهنا أشد على يدى طالب الرفاعى، مؤسس «الملتقى» فى الكويت، الذى لمست دوره وإيمانه القوى بالفكرة، وأشير إلى كتاب ظلوا مخلصين لفن القصة القصيرة: سعيد الكفراوى، زكريا تامر، عبدالعزيز عشرى.

■ هل تقدمت لجائزة ما ولم تفز بها وشعرت بغصة لذلك؟

– أول مجموعة قصصية «خوذة ونورس وحيد» فازت بجائزة المجلس الأعلى للثقافة لعام ٢٠٠٢، وبعد انقضاء عامين، شاركت بمجموعة «كيف يحارب الجندى بلا خوذة؟»، ولم تفز.

لا أشعر بغصة حال عدم توفيقى، لأن التقدم للجائزة تعنى الفوز أو الخسارة، والحياة نفسها ترشدنا إلى قبول النسقين، وأنا إنسان قدرى، أعرف أن المصادفات تحجب وتمنح، هذا أمر مرنت نفسى على قبوله.

■ حدثنا عن مكتبتك، متى اشتريت أول كتاب؟ وما أهم الكتب فيها؟ وما الكتاب الذى لا يمكنك الاستغناء عنه؟

– مكتبتى ثرية بوجه عام، بها بعض النفائس، مثل: «ضرورة الفن» لأرنست فيشر، و«تقرير إلى جريكو» لنيقوس كازنتزاكى، و«الغصن الذهبى» لجيمس فريزر.

أول كتاب اشتريته هو «ثلاثية» نجيب محفوظ، رغم افتتانى فى تلك الفترة بيوسف إدريس، الذى كان مقتحمًا وجريئًا، وقد قابلته مرة فى معرض الكتاب، وأعطيته كتابًا بعنوان: «القصة القصيرة فى دمياط»، فطواه بعناية ووضعه فى الجيب الداخلى للسترة، قائلًا: «هقراه كويس».

كما أن صبرى موسى زار مسقط رأسه مرة، وأهدانى روايته الفذة «فساد الأمكنة»، وطاهر أبوفاشا أعطانى «الليالى» و«دموع لا تجف»، ومحمد النبوى سلامة أهدانى «غنوة شقيانة»، وعبدالرحمن الأبنودى أهدانى ديوان «الأرض والعيال»، وعبدالفتاح الجمل أرسل لى مع شقيقه «مصطفى» رواية «محب».

وعندى ٣ كتب لا يمكننى الاستغناء عنها، هى: «بحيرة المساء» لإبراهيم أصلان، و«الخطوبة» لبهاء طاهر، و«أوراق شاب عاش منذ ألف عام» لجمال الغيطانى.

وأعتقد أننى أحسست بظلم الدنيا مع مسرحيات صلاح عبدالصبور، بالأخص «ماساة الحلاج»، وبروعة الحياة مع كتابات أنطون تشيخوف. وكان لى حظ التقائى بيسرى الجندى ومحمد أبوالعلا السلامونى وعبدالغنى داود، فى بدايتهم، وكتبت أغانى مسرحياتهم الأولى.

أما والد الشعراء فؤاد حداد فله فى قلبى منزلة عظمى، وقد ألقى ضوءًا نقديًا على قصائد المؤتمر الأول لأدباء مصر فى الأقاليم، ١٩٨٤، وإلى جواره «قصاقيص ورق» لصلاح جاهين، كما كان يدهشنى محمد كشيك فى «العشش القديمة».

■ فى لقاء لك قلت إن جماعة «الإخوان» حاولت تجنيدك فى الصغر، ما الذى حدث؟

– حاول «أ. س» أن يجندنى كشاعر للجماعة، بحضور صديقى محمد علوش، لكننى لم أستملح الفكرة، كما أن كوب الشاى وصلنى باردًا، فلم أشعر بحرارة ما، فى اللقاء السرى.

أيضًا كانت أمام باب الشقة مئات الأحذية للحاضرين، فوقر فى نفسى أن الانتماء لجماعات مغلقة مضيعة للوقت، إضافة إلى أننى كنت بوجه عام أميل إلى اليسار المصرى.

■ من الكاتب الذى ترك فيك أثرًا فقررت الاتجاه لكتابة القصة القصيرة؟

– يحيى حقى، قابلته فى مدينة دمياط، جالسًا فى مكتب المدير، وسعدت عندما تعرفنا عليه، محسن يونس وأنا، مشينا معه مستمتعين بالحديث عن فنى القصة والرواية، نصحنى بأمور ظلت راسخة فى وجدانى. يحيى حقى يشعرك بأبوته، وله نظرة لا تنسى، وصوت يسرى كالموسيقى: نبرة هامسة، صادقة.

يوسف السباعى قابلته عدة مرات فى مسابقات الكتابة عن حرب أكتوبر، كان أنيقًا ووجيهًا، وأحببت له قصة «أرض النفاق»، ربما كان نقلها للسينما دافعًا للتعلق بها، لجمال الفكرة ومعالجتها بسخرية واضحة.

■ أشرت أكثر من مرة إلى أن العديد من أعمالك الإبداعية ولدت فى «المقهى»، أيهما الأفضل للكاتب أن يندمج بين الناس ليكتب، أم يعتزل بعيدا؟

– حتى عام ٢٠١١، لم أكن أجلس فى المقهى إلا قليلًا، لكننى كتبت «شمال يمين» فى مقهى بشارع جانبى، وكتبت «قبلات مميتة» فى مقهى «السنترال».

أغلب مجموعاتى كتبتها فى البيت، لكن منذ ٢٠١١ كتبت أغلب نصوصى فى المقهى، فى ركن لا يعلم فيه أحد بوجودى، مع كوب شاى ساخن، بعدها شربت القهوة فى كوب بيد زجاجية.

■ هل يفتقد فن القصة القصيرة إلى التفات النقد كما فى السابق، الستينيات على سبيل المثال؟

– فى الستينيات كان هناك تيار هائل للكتابة عن الأعمال القصصية والشعرية، مرحلة برز فيها: عبدالمحسن طه بدر، وغالى شكرى، وعبدالمنعم تليمة، وصلاح فضل، وجابر عصفور، وإدوار الخراط الذى كتب عن التجربة بشكل جيد.

بعدها افتقر الواقع لمثل هذا العطاء، حتى جاء جيل جديد، أراه قادرًا على تخطى النمط، ومن بينه: فريال غزولى، واعتدال عثمان، ومحمد عبدالمطلب، ومحمد على الكردى، وبعد مسافة زمنية: حسين حمودة، وخيرى دومة، ومصطفى ومحمود الضبع، وهيثم الحاج على، ومحمد فكرى الجزار، وهذا جيل له عطاء فريد، ونضيف إليهم بالطبع: شريف الجيار، ومنى طلبة، وأنور مغيث، والسيد نجم، وغيرهم.

■ هل لك طقوس معينة فى الكتابة؟ مكان، زمان، أو مزاج؟

– أكتب فى الهزيع الأخير من الليل، أصنع كوب الشاى بنفسى، واقتداء بخالتى «فتحية»، أرفع الكوب فى مواجهة المصباح وأتأمل اللون فيعتدل مزاجى، انطلق فى الكتابة ولا أتوقف إلا بعد إنهاء النص.

أحيانًا أقف فى البلكونة، وأتابع مطاردة القطط للفئران، ومروق العرس من تحت عقب الباب، وأستغرب صرخات القطط فى موسم التزاوج. فى الليالى الصافية أتأمل النجوم البراقة، وأهتدى بها فى الكتابة وكسر التوقع عند القارئ، ولى نجمة وحيدة أفتقدها إن غابت.

■ الرواية مقابل القصة، أيهما عانيت فى نشره؟ وما السبب؟

– لم أعان أبدًا فى النشر، ربما لحسن حظى، فقد نشرت ٥ دواوين بشعر العامية، دون مشاكل مادية، أغلبها فى دور نشر حكومية، وفى القصة كنت سعيد الحظ بالنشر فى دور محترمة ولها ثقلها، مثل: «أكتب» و«الأدهم» و«غراب»، ولى توقع بنشر مجموعاتى الجديدة فى دور أكثر اهتمامًا بفن التصميم والغلاف والتسويق، مع منح المؤلف شيئًا من المال الحلال.

الاهتمام بالأعمال الفائزة بجوائز ليس عيبًا

أنا ابن المكان لكننى لا أدين النزوح إلى القاهرة

ولائى الأول للقصة القصيرة ولا أفصل الخيال عن الواقع

«الإخوان» حاولت تجنيدى كشاعر للجماعة وفشلت

قبل أقل من أسبوع، قرر الفنان التشكيلى الكبير محمد عبلة ردّ «وسام جوته»، الذى حصل عليه من ألمانيا فى 2022، احتجاجًا على الموقف الرسمى الألمانى تجاه العدوان الإسرائيلى على غزة.

وأدان «عبلة» موقف الحكومة الألمانية الرسمى تجاه العدوان على غزة، ووصفه بـ«المشين»، مشددًا على أن «أى إنسان لديه ضمير وكرامة عليه أن يتخذ مثل هذا الموقف»، وفقًا لما كتبه على حسابه الرسمى فى «فيسبوك».

موقف الفنان التشكيلى جاء فى ظل زيادة صادرات ألمانيا من السلاح إلى إسرائيل، خلال العام الماضى 2023، بنحو 10 أضعاف مقارنة بـ2022، مع تشديد برلين على أن تعاملها مع طلبات تصدير هذه الأسلحة «أولوية»، منذ تنفيذ عملية «طوفان الأقصى»، فى 7 أكتوبر الماضى، وفق ما ذكره مصدر فى الحكومة الألمانية.

«حرف» التقت «عبلة» للحديث عن كواليس رده «وسام جوته»، ودور الفنان فى المجتمع بصفة عامة، إلى جانب رؤيته لأوضاع الفن التشكيلى فى مصر حاليًا، والفن والثقافة بصفة عامة، فكان هذا الحوار.

نضال ممدوح

«سورة» الشرف

محمد عبلة: رد «وسام جوته» مجرد تعبير بسيط من مواطن مصرى عن دعمه فلسطين

دور المثقف لم يغب أبدًا أو يتراجع.. والمصريون دائمًا عندهم وجهة نظر

عدم الإقبال على أقسام النحت يعود لأسباب اقتصادية.. «ما بتجيبش فلوس»

■ رد «وسام جوته» ليس الموقف الأول للفنان محمد عبلة من الحكومات، فقد سبق ذلك موقفه من الحرب على العراق، وهو دور يستقيم مع شخصيته ومواقفه الفكرية والوطنية، وكعضو فى لجنة صياغة الدستور المصرى... فما القصة؟

– العالم كله الآن ينتفض من أجل فلسطين، فيه مظاهرات لدعم فلسطين، ينتفض لموضوع يخصنا نحن، لذا جاء رفضى لهذا التكريم، وهو مجرد تعبير بسيط من مواطن مصرى يريد القول إن «المصريين لسه عايشين».

أرى أن هذا دور الفنان الطبيعى، من المفترض أن هذا دوره، لا بد أن تكون له علاقة بما يدور فى المجتمع وقضاياه كافة، لا بد أن يعبر عنها، لأن الفن ليس فقط إنتاج لوحات فنية، بل إن المنتج الفنى أسهل ما فى الموضوع.

يستطيع الجميع إنتاج أعمال فنية، التافه ومن يمتلك معرضًا وغيرهما الكثير، لكن الفنان لا بد أن تكون لديه وجهة نظر، يعبر عنها بأشكال مختلفة منطلقًا من الفن، لأن الفن له علاقة بالمجتمع، شئنا أم أبينا ذلك، هذا دور الفنان فى الأساس، أن يعبر عما يحلم ويفكر به الناس ويتفاعل معهم، والفنان ينبغى أن يكون فى الطليعة.

■ ولماذا غاب هذا الدور خلال الـ٤٠ عامًا الماضية؟

– لا، لم يغب، دور الفنان والمثقف موجود طوال الوقت، لكن هل مسموح تسليط الضوء عليه والكلام عنه؟ دورنا موجود، نحن نحتج ونقول وجهة نظرنا، لكن هل تظهر وجهة النظر هذه؟

■ دعنى أطرح السؤال بصيغة أخرى، لماذا تراجع دور المثقف أو الفنان مقابل المتشددين؟

– الدور المجتمعى الذى لعبه المتطرفون كان أحد أسبابه سماح الدولة لهم بالعمل منذ السبعينيات، بل كانت تدعم وتؤيد هؤلاء المتشددين لضرب الاتجاهات الأخرى، مثل الاشتراكيين واليساريين والعلمانيين، فى الجامعة ومختلف الأماكن.

لكن وكما ذكرت قبل قليل، طوال الوقت المصريون يحتجون وعندهم وجهة نظر، ودور المثقف لم يغب أو يتراجع، والمجتمع لم يمت، لكن الظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ساعدت على انتشار الأفكار المتشددة.

وأتذكر أيام الجامعة، عندما كانت تقام حفلة موسيقية، يتعرض لها «الإخوان» وغيرها من الجماعات، ويحطمون المسرح، من دون تدخل من الأمن. إذن السبب كان الدولة وقتها، لكى ترضى الولايات المتحدة، التى كانت تعمل على مواجهة «المد الاشتراكى»، وإنهائه فى المنطقة العربية كلها، وكان البديل هو «المد الإسلامى».

■ ما دور الفن فى التعبير عما يحدث من تجاوزات إنسانية بحق الشعوب بشكل عام، وضد الفلسطينيين الآن على وجه التحديد؟

– الفن له أشكال متعددة، قد يكون انفعاليًا، أى رد فعل لحظى، مثل من يخرجون فى مظاهرات، بجانب دور آخر متأنٍّ، يحتاج إلى وقت وتفكر ليبقى مؤثرًا، وفيه يحسب الفنان متى يتكلم، وماذا يقول، وما الرسالة التى يريد توصيلها، وكيف ستصل هذه الرسالة، وبأى وسيلة. والفن له أشكال متعددة، مثل الرسم، والأشكال الفنية تأخذ وقتًا، لأنها تحتاج إلى هضم المواقف أولًا، والتفكير فيها بتأنٍّ، وإلا ستتحول إلى رد فعل.

■ كنت فى صفوف «اعتصام وزارة الثقافة ٢٠١٣».. كيف ترى التيارات المتطرفة؟ وما تأثيرها على الفن وهوية الوطن؟ وهل انعكس هذا على اختيارات طلاب الكليات الفنية، فقسم النحت مثلًا يعرض الطلاب عن الالتحاق به؟

– هذه التيارات لديها أيديولوجيا ووجهة نظر، ومن ضمنها أن الفن إما حرام أو مُعطل، وأى شخص أو إنسان ينتج فنًا سيبدأ فى التفكير و«يشغل دماغه»، وهذا ما لا تريد التيارات المتشددة والمتطرفة أن يحدث، لأنه لو حدث سيحدث عنه تفكير وفكر ووجهات نظر وتساؤلات، تقود بالتالى إلى ضد الاتجاه السائد، وهذا ما لا يريدونه.

وكانت هذه التيارات تقول إن النحت حرام ويحرمونه، لكن الآن، عدم الإقبال على أقسام النحت يعود لأسباب اقتصادية، لأن طلابه لا يستطيعون العمل بعد التخرج، أو بمعنى آخر: النحت «قسم مش بيجيب فلوس»، إذن المعادلات المختلة تسلم بعضها.

■ وماذا كان يفعل طلاب أقسام النحت فى الكليات الفنية منذ تأسست؟

– فى السابق، كان عدد الطلاب قليل، صحيح أن تحريم النحت ظهر مع «الإخوان المسلمين» المتطرفين، فى سبعينيات القرن الماضى، لكن قبلها كان عدد الطلبة معقول، وكما قلت من قبل، قسم النحت لا يوجد به طلبة الآن لأسباب اقتصادية، فالطلاب يبحثون عن الدراسة التى تحقق لهم دخلًا، ويستطيعون العمل والتكسب منها.

قبل هذا، كان من يدرس الفن يدرسه لأنه يحب الفن، لكن بعد «ثورة ٥٢» أصبح الدخول بالمجموع، يعنى الدراسة صارت اقتصادية، ولا علاقة لها بأن الطالب يحب الفن، كما كان فى الماضى.

المعادلة الآن عادية، وليس بها مؤامرة، وفى كل الأحوال، الفن لا علاقة له بالدراسة، فهناك فنانون ليس لهم علاقة بالفن، رغم دراستهم إياه، وهناك فنان لم يدرس لكنه يقود المجتمع.

وأريد الإشارة أيضًا إلى أن طلاب أقسام النحت الآن بدأوا فى تطوير أنفسهم وأدواتهم، من خلال استخدام أعمالهم النحتية فى الديكور، مثل «المزايكو» و«الزجاج المعشق».

■ خضت فى عالمك التشكيلى تجارب متنوعة توحدت فيها المدارس الفنية، لكن بطريقتك الخاصة.. كيف استطعت التمكن من ذلك؟ من خلال الممارسة العملية أم النظرية؟

– لا فرق بين العملية والنظرية. الفنان يحتاج الدراسة النظرية لمعرفة التاريخ، إذن الجانب النظرى مفيد بجانب العملى، والجانبان يكملان بعضهما البعض. لكن الفن تبقى فيه دوافع شخصية لا علاقة لها بطبيعة الفن، فهناك فنان يعمل على اتجاه طول عمره، وآخر يتمرد ويجرب ويتدرب ويغير دائمًا.

بما يعنى أن الفن هو دراسة الاتجاهات والمدارس وتاريخ الفن.. إلخ، وهو الجانب النظرى، وممارسة هذا عمليًا، فإذا ما مل الفنان من اتجاه أو جانب وتغير، يكون هذا اجتهاد شخصى على سبيل المثال، أنا أتدرب على طرق فنية كثيرة وجديدة، وعندما أسافر، هناك الكثير الذى أفعله، ويؤثر فى تعاملى مع الفن.

■ لماذا أسست «متحف الكاريكاتير» فى الفيوم؟

– أسست متحفين، «متحف الفيوم للكاريكاتير»، الذى أسسته عام ٢٠٠٧، بهدف جمع تراث «الكاريكاتير» المصرى كله، من بدايته وحتى الآن، لأننى فى الأصل أحب «الكاريكاتير»، رغم أننى لا أرسمه.

وفن «الكاريكاتير» من أهم الاجتهادات التى حدثت فى تاريخ مصر، لكن للأسف الشديد لم يكن أحد يهتم بهذا الفن وجمع تراثه، لذا أنشأت هذا المتحف، بهدف الحفاظ على تراث «الكاريكاتير»، بعد جمع هذه الأعمال منذ ٣٠ سنة.

■ وماذا عن «متحف عبلة»؟

– جارٍ العمل حاليًا على تأسيس «متحف محمد عبلة»، والهدف منه أن أجمع تاريخى الفنى وأعمالى الفنية، وأعمال الفنانين الذين أحببتهم طوال حياتى وشغفت بأعمالهم، بحيث من يدخل المتحف يرى ويشاهد صورة متكاملة. ما الذى تأثرت به، ومن الذى أثر فىّ، ومراحل أعمالى الفنية المختلفة. ومن المفترض أن يُفتتح المتحف مع بداية العام المقبل ٢٠٢٥، وسيكون مقره فى الفيوم أيضًا.

■ بذكر المتاحف، ما دور المتاحف فى العالم الآن؟.. وأين متاحفنا منها؟

– المتاحف فى العالم مهمة جدًا، والكثير من الدول تهتم بها، والكثير منها الدخول إليه مجانى، فى ظل دورها المهم، سواء فى الحفاظ على التراث، أو تقديم هذا التراث، إلى جانب بناء أجيال جديدة تحب التراث. ومتحف يعنى مدرسة، وكلما تزيد المتاحف فى مجتمع، كان هذا المجتمع حيًا، وعنده رغبة فى التعلم، والعكس صحيح.

فى مصر، عندنا أقل عدد من المتاحف، فكيف أن عدد سكان الجمهورية ١٢٠ مليون نسمة، ولا يوجد لدينا غير متحف واحد للفن الحديث؟ هذا بينما متاحف الآثار أكثر، لأن السياح يرتادونها، وبصفة عامة، عندنا نقص كبير جدًا فى المتاحف.

■ ما رؤيتك لدور «الجاليريهات» فى وصول الفن المصرى إلى العالم؟

– يتكون الفن من ٣ أضلاع، فنان وجمهور و«جاليرى»، والجمهور منه مَن يكتفى بالفرجة، ومنهم مَن يشترى الأعمال الفنية، وهذه الأضلاع الثلاثة مهمة.

وبالنسبة لـ«الجاليرى» يقوم فى الأساس على التكسب من الفن، من خلال البيع والعرض والشراء، هو مهم للعملية الفنية، لأنه يروج للفن ويساعد على انتشاره، لكن فى الوقت ذاته، «الجاليريهات» يمكن أن تضر الفن.

«الجاليرى» يضر الفن لو كان هدفه تجاريًا صرفًا، بمعنى أنه لا يعرض غير اللوحات والأعمال مضمونة البيع، وفى هذه الحالة يكون تابعًا للجمهور، أو تحت أمر الجمهور، وبالتالى الفنان يتأثر، ويكون هو الآخر تحت أمر ورغبات الجمهور، لذا عملية الإنتاج الفنى تحتاج تعاونًا بين الثلاثة عناصر: الفنان و«الجاليرى» والجمهور، حتى يتسنى للجميع إنتاج عمل محترم.

■ وماذا عما يتردد حول تمويل الفن التشكيلى و«الجاليريهات»؟

– فى الأول والأخير، «الجاليرى» مكان خاص، ولو مالكه له اتجاه سياسى أو غيره، لا يمكننا الحكم عليه أو تقييمه، إلا من خلال ما يقدمه أو يعرضه. وما يُشاع أو يقال عن أحد «الجاليريهات» بأنه «له أجندة لسحب الفنانين المصريين»، أو أنه «إخوانى» أو «سعودى» مثلًا، يُثبت أو يُنفى من خلال ما يقدم فى هذا «الجاليرى».

الجمهور يتردد على «جاليرى» هنا أو هناك، فقط لمشاهدة لوحات فنانين مصريين، لكن هل هو يروج للثقافة السعودية فى مصر؟ هل هو يدعو الناس لـ«السعودة»، أعتقد أن «كل دا كلام فاضى». كل «الجاليريهات» داخل فيها مستثمرون، وأنا ضد أنى أروح أشوف فن متخلف، وأنا أحاسب فقط على ما يقدم من فن فى «الجاليرى»، وليس «فلوسه جاية منين؟».

■ كيف ترى الحركة التشكيلية فى مصر الآن وموضعها من حركة الفن العالمى؟

– نحن بعيدون عن العالم بشكل كبير، فالفنان فى العالم يستطيع عيش حياة مستقرة اقتصاديًا من عمله الفنى، إنما هنا لا نقدر على هذا، فالفنان فى مصر لا بد أن يكون له عمل أو إثنين، بجانب عمله بالفن.

وأى بلد فيها ٣ أو ٤ مجلات للفن التشكيلى، بينما لا توجد لدينا مجلة واحدة. فى العالم كل مدينة فيها «جاليرى»، بينما فى مصر لا توجد القاعات الفنية إلا فى القاهرة، وقاعة أو قاعتين على استيحاء فى الإسكندرية. ثم إن الحركة الفنية ليس فقط إنتاج لوحات، فالفنانون المصريون ينتجون لوحات عبقرية، رغم كل هذه الظروف، إلا أن هذا لا يعنى أن الحركة الفنية بخير.

على الدولة أن تساعد الفنانين وتدعمهم، لأن الفن جزء منه اقتصادى. مثلًا دولة مثل الإمارات تحقق دخلًا يقدر بـ٢ مليار، من الفن الذى لا تنتجه بالمناسبة، وإنما هو لفنانين من خارجها، لكن هنا فى مصر لدينا معوقات كثيرة لهذه الحركة، بداية من «الروتين» وعدم فهم قيمة الفن. على سبيل المثال، هناك جمارك لدخول وخروج لوحات الفنانين، ويجب الحصول على تصاريح، وهو ما يتطلب وجود متخصص، لتسهيل إجراءات حركة دخول وخروج اللوحات، وتذليل هذه العقبات.

أيضًا الجمارك الباهظة على الأدوات والألوان الفنية، نظرًا للتعامل معها على أنها «كماليات»، ما يزيد من سعر هذه الأدوات، رغم وجود ٢٠ مليون طالب بالكليات الفنية، ولو المواد متوفرة كل الفنانين سيعملون أفضل، خاصة الشباب فى الكليات الفنية، الذين يستعيضون عن المواد بأخرى، لعجزهم عن جلب المواد الأصلية.

ما أبرز طقوسك الفنية؟

– السير فى الشوارع، الكلام مع الناس، أدخل سينما، أقرأ كتبًا، أمارس أمورًا حياتية عادية ككل الناس، وعندما أبدأ العمل أستحضر كل ما مر هذا، فى مزيج يظهر فى العمل الفنى. لكن أنا لا أخطط «اسكتش» مثلًا قبل العمل، ولا أكتب «هاشتغل فى إيه»، عندما تأتينى الفكرة، إما أن تخرج على الفور فوق اللوحة وتُنفذ، أو لا تأتى، فالفكرة تكون حالة نتيجة ممارسات عديدة.

الفنان محمد عبلة يتحدث للزميلة نضال ممدوح

«الإخوان» تعادى الفن لأن الفنان «بيشغل دماغه» وهذا خطر على وجودها

عدسة: إسلام محمود

أوراق

الدستور تطلق منتدى «أوراق» فى حضرة «صاحب كرامات الكتابة»

تواصل مؤسسة «الدستور»، بقيادة الإعلامى محمد الباز، تحريك المياه الراكدة فى واقعنا الثقافى، وبعد أسابيع من إطلاق «حرف»، أول صحيفة ثقافية رقمية فى مصر، دشنت منتدى «أوراق»، الذى تطمح أن يكون ملتقى لكل الرؤى الفكرية، ليس فى مصر فحسب، بل على المستوى العربى ككل.

واستضافت قاعة الندوات فى مؤسسة «الدستور»، الخميس الماضى، أولى فعاليات المنتدى الجديد، للاحتفاء بالكاتب الكبير عبدالرحيم كمال، ومناقشة أحدث رواياته «موت العالم.. المعروفة شعبيًا بمذكرات محمود غزالة»، والتى أدارها الكاتب والإعلامى علاء أبوزيد، وأجراها الدكتور يسرى عبدالله، الناقد والأكاديمى الأدبى المعروف، وسط حضور كبير لعدد من الكُتاب والنُقاد والإعلاميين.

حنان عقيل- خالد حماد

عبدالرحيم كمال

1 تحريك المياه الراكدة

فى البداية، رحب الدكتور محمد الباز، رئيس مجلسى الإدارة والتحرير بمؤسسة «الدستور»، بضيوف منتدى «أوراق»، مشيرًا إلى أنه من «الفأل الحَسَن» تدشين المنتدى بالاحتفاء بصاحب «كرامات الكتابة» عبدالرحيم كمال، الذى يعد واحدًا من التنويريين فى العالم العربى، بأعماله الدرامية العابرة للحدود، وبإخلاصه لكتاباته الإبداعية.

وأضاف «الباز»: «منذ شهرين أطلقنا جريدة (حرف)، لتكون ملتقى لكل الرؤى الفكرية فى العالم العربى، يضم كل الأطياف الفكرية فى مصر والعالم والعربى، ونهدف أن يكون لهذا المنتدى دور كبير فى الحياة الثقافية، وهو ما جعلنا نخطط لإطلاق جوائز لأفضل الأعمال الإبداعية، عبر منتدى (أوراق)، هدفها نشر الأعمال الإبداعية المميزة فى مجالات القصة والرواية».

وأشاد الإعلامى علاء أبوزيد بدور مؤسسة «الدستور» فى تحريك المياه الراكدة بالواقع الثقافى، عبر إطلاق الجريدة الثقافية الرقمية «حرف»، ثم إطلاق منتدى «أوراق»، الذى يُنتظر منه الاضطلاع بدور مهم فى استعادة دور المثقفين المصريين، وإعادة الاهتمام بالصحافة الثقافية، بعد أن خفت بريقها فى السنوات الأخيرة.

وانتقل «أبوزيد» بعدها للحديث عن الصداقة التى تجمعه بضيف المنتدى، الكاتب عبدالرحيم كمال، قائلًا: «كلانا ولد فى نفس القرية أقصى جنوب الصعيد، فجمعتنا صداقة مكان النشأة، ثم طريق الإبداع حتى هذه اللحظة الراهنة».

وقدّم الدكتور يسرى عبدالله، الناقد والأكاديمى، الشكر للدكتور محمد الباز، كونه صاحب فكرة تأسيس منتدى «أوراق» فى مؤسسة «الدستور»، معربًا عن تطلعه لأن يصير المنتدى قيمة مضافة لمتن الثقافة المصرية والعربية، فى لحظة مليئة بالتناقضات والتحديات للدولة، ومعبرًا عن سعادته بحضور العديد من الكتاب والنقاد من مختلف الأطياف الفكرية والثقافية لفعاليات المنتدى، الذى سيعقد فى الخميس الأول والثالث من كل شهر.

2 مناطق متعددة للخيال

بدأ الدكتور يسرى عبدالله مناقشته لرواية «موت العالم.. المعروفة شعبيًا بمذكرات محمود غزالة»، لمؤلفها الكاتب الكبير عبدالرحيم كمال، قائلًا: «من بعيد يمكننا أن نبدأ، ومن قريب أيضًا، من معنى الدراما بوصفها صراعًا بين إرادات متناحرة، من سردية التصوف الإصلاحى لا المخملى، من تيمة الحب، التى تعد التيمة المركزية فى أعمال عبدالرحيم كمال جميعها، سردًا ودراما».

وأضاف «عبدالله»: «من قريب إذن يمكننا أن نتحدث عن المشروع الإبداعى لعبدالرحيم كمال، عن تيماته المتعددة، وبنياته الأساسية، وملامحه الخلاقة، وحيث يمكننا أن نرى بعضًا منها فى تيمات الحب والارتحال القلق، والبحث عن اليقين، وجميعها محددات مركزية فى أعماله السردية والدرامية».

وواصل: «أفسح عبدالرحيم كمال للخيال مناطق متعددة، تجلت فى أعماله المختلفة، يمكن أن نرى ملامح منها فى الفانتازيا العارمة، فى روايته (المجنونة)، ففيها ركاب طائرة كل ما يحدث فيها أقرب للجنون، وبها نزعة ساخرة محرضة على التأمل والتفكير، وأيضًا الخيال الصوفى الرحب، فى (بواب الحانة)، حيث المآلات والتحولات».

وأكمل: «نرى الخيال المعتمد على عناصر تراثية تعيدك إلى مدونة ألف ليلة وليلة، فى العمل الملحمى (أبناء حورة). أما (فى كل الألعاب للتسلية) فنجد هذا اللعب الفنى الذى يحيلك إلى علاقة المثقف بالسلطة. وهنا فى (موت العالم.. المعروفة شعبيًا بمذكرات محمود غزالة) نجد عالمًا أكثر تركيبًا من نصوص الكاتب السابقة».

بعدها انتقل «يسرى» للحديث عن رواية «موت العالم.. المعروفة شعبيًا بمذكرات محمود غزالة»، وتحديدًا ما تضمنته من عنوان فرعى، مشيرًا إلى أن «العناوين الفرعية ليست غريبة عن أعمال عبدالرحيم كمال، فهى ليست بنية جديدة فى عناوينه، بل يبدو العنوان الفرعى جزءًا جوهريًا من بنية الرواية، وعنوانًا مكملًا للعنوان المجرد الذى أطلقه الكاتب فى العنوان الرئيسى».

وأفاد بوجود ٤ تنويعات على تيمات: الفقد والوحدة والاستلاب، تشكل الفصول السردية الأربعة التى تمثل متن الرواية: «تكاليف الحياة - أهل البيت- البعث- سكان الفضاء الإلكترونى»، وتتفاوت فيما بينها فى المساحة الكمية للسرد، ليأخذ الفصل الأول (التنويعة الأولى.. تكاليف الحياة) الحيز الكمى الأكبر من الرواية (١٢٧ صفحة من أصل ٢٦٢ صفحة) أى نصف الرواية تقريبًا، لأن فيه إشكالية النص الأساسية، وجوهر الرواية وتقديمتها الدرامية.

واستعرض الناقد الأدبى أبرز التقنيات الفنية فى الرواية، قائلًا: «كتاب مجهول الهوية يلقاه سجين، منزوع منه الصفحات الأولى، يحيلك على عنوان الرواية (موت العالم.. المعروفة شعبيًا بمذكرات محمود غزالة)، ومن تقنية الرواية داخل الرواية، ولعبة الكتاب الغامض، الذى تركه سجين فى محبسه ليعثر عليه سجين آخر، تتوالى سردية البداية فى رواية عبدالرحيم كمال، ولطالما حملت الرواية المصرية لعبة الأوراق المجهولة، أو المخطوط الذى يعثر عليه شخص ما».

وأضاف: «تكنيك الرواية داخل الرواية هو ما يعتمد عليه نص (موت العالم)، وهو تكنيك مراوغ، تتسع مخاتلته فى النص، حين يبدو أب آخر للرواية، هو موظف الرقابة على المصنفات الفنية، الكاتب المغمور الذى صار شهيرًا فيما بعد، (سعد عيسى)، ولا نكتشف ذلك إلا فى الفصول التالية التى تتلو الفصل الأول المركزى فى الرواية، لنصبح أمام تجسيد لما يعرف بالرؤية المصاحبة، حيث يعرف القارئ فى اللحظة التى يعلم فيها الأبطال والشخوص أنفسهم.».

وفصل حديثه قائلًا: «ثمة رواية كتبها (سعد عيسى)، تراها لديه (فوزية) أو (سوزان) كما أصبحت تسمى بعد ولادتها الجديدة، وتنتبه إلى اسمها (موت العالم المعروفة شعبيًا بمذكرات محمود غزالة)، وتعلم ونحن معها أن (غزالة) كان مُدرسًا لـ(سعد)، يكتب الخطابات الغرامية للمحيين، وحينما يطلب منه (سعد) أن يكتب خطابًا إلى (هالة) يبادر على الفور، ولكن وشاية (سعد) به، بعد افتضاح أمر الخطاب، تفضى به إلى الفصل من المدرسة، ليسلك بعدها مسارًا مهنيًا وإنسانيًا آخر».

3 مشكلة الإنسان المعاصر

قال الناقد يسرى عبدالله إن ثمة مرويتين هنا عن «غزالة»، أحداهما تتصدر الرواية وتخاتل القارئ حتى منتصفها، حيث «غزالة» المعتقد بأن الناس قد ماتوا، وهم لا يعلمون، ويبدأ فى تسريب دعوته التى تتخذ شكلًا غرائبيًا، يصنف فيه الناس إلى موتى هم الأغلبية الغالبة، والبعض المنتمى إلى تلك الأرواح المنهكة، ونفر قليلون هم الأحياء الحقيقيون.

وأضاف «عبدالله»: «هكذا رأى (غزالة) (صباح) الممرضة، وصديقه التائه فى شوارع الحسين وباب النصر (أحمد عبدالحميد)، وهكذا أدرك السجان (رشدى شحاتة)، وهكذا حاول (أبانوب)، بخلاف الباقين، من (مريم) الزوجة المتبلدة بطفليها، وصولًا إلى زملاء العمل والجيران والطبيب النفسى والقاضى، وكل من رآهم (غزالة)، بعد حادثة قتله لجاره (سمير أسعد)، الذى فطن هو الآخر إلى مشكلة الإنسان المعاصر».

وواصل: «تذهب الرواية إلى تقديم مشكلة الإنسان المعاصر، والذى حينما يموت الإنسان فيها يموت العالم، وهذا الذى دافع عنه بطل الرواية، تلك الفكرة التى جاءت تفاصيلها فى الفصل الأول من الرواية والمعنون بـ(تكاليف الحياة)».

وشدد على أن «ثمة منحى صوفيًا يمكن لمسه فى أعمال عبدالرحيم كمال بشكل عام، وفى رواية (موت العالم) نشهد تناصات (شفيفة)، وظلال صوفية متصلة بعوالم الشخوص، وهذا ما نجده فى استخدامه لبعض أبيات ابن الفارض)».

وبيّن «عبدالله» أن الفصل الأخير «سكان الفضاء الإلكترونى»، يقدم فيه عبدالرحيم كمال ميلاد جيل يولد ليكتب «البوستات»، ويلعب على «الآيباد»، ويبث منشوراته إلى العالم، فهو جيل يرفض ملامسة هذا العالم والاندماج فيه، هم «جبهة أعداء الحياة»، متابعًا: «فى هذا الفصل صنع الكاتب عالمًا روائيًا يعيش على ظلال العالم الواقعى، ويقدم فضاءً فانتازيًا»

وختم الناقد والأكاديمى حديثه بأن «الرواية تمثل إضافة كمية ونوعية لمنجز عبدالرحيم كمال، الذى يكتب روايته على مهل بلا ضجيج، متسلحًا بطاقة الحب الهائلة التى يغزو بها العالم».

4 فى حضن الجبل

فى كلمته، تحدث الكاتب والسيناريست عبدالرحيم كمال عن منابع الخيال التى استقى منها إبداعه، فقال إنه ولد فى الجنوب، وسط كتاب من الصور المفتوحة للطبيعة والحياة، فقد جاء ميلاده فى قرية «العيساوية» بمحافظة سوهاج، التى تحتضن الجبل.

وأضاف «كمال»: «فى تلك الفترة لم تكن الكهرباء قد دخلت إلى القرية، ولم تكن هناك وسائط لمشاهدة العالم، من تليفزيون أو سينما، لذلك جاء الخيال ليكون الصورة البديلة عن الواقع، وكان المصدر الرئيسى لخيالات الطفولة نابعًا من حكايات والدتى عن عالم العفاريت والجن».

وعن نشر عملين فى الوقت ذاته، قال عبدالرحيم كمال إن العملين لم يكتبا فى وقت واحد، فقد صدرت «أبناء حورة» منذ ما يقرب من ٣ سنوات، وكان قبلها قد بدأ فى كتابة رواية «موت العالم»، وانتهى منها بعد عامين، وتم تأجيل نشرها لظروف تخص دار النشر، ثم شرع بعدها فى كتابة «كل الألعاب للتسلية»، لكنهما صدرتا فى توقيت واحد، وهذا لا يعنى كتابتهما فى توقيت واحد، فالعملان استغرقا ما يقرب من ٤ أعوام معًا فى الكتابة.

ورأى «كمال» أن العمل الإبداعى يعبر عن أسئلة الكاتب، ومهما تنوعت القصص والسرد والشخصيات، كل عمل يطرح أسئلة المبدع، إذ ليس هناك مسافة بين المبدع وأسئلته، وبالتالى لا يمكن له أن يفضّل عملًا له عن الآخر.

5 مداخلات الحضور

اهتم الحضور من الكتاب والنقاد المصريين والعرب بتقديم مداخلاتهم حول منتدى «أوراق»، وكذلك حول إبداعات الكاتب والسيناريست عبدالرحيم كمال، ومن بينهم الكاتب الصحفى محمود الشربينى، الذى قال: «نحن فى منتدى جديد نستبشر به خيرًا، صديقنا الناقد والكاتب المبدع الدكتور يسرى عبدالله يضطلع بإدارته، ويدير دفته، وتدعمه مؤسسة (الدستور)، برئاسة الدكتور محمد الباز، وتقف وراء انطلاقته».

وعن رواية «موت العالم»، قال إن عبدالرحيم كمال فيها يبدو لنا بكامل أناقته الذهنية والفنية، من الفكرة المبتكرة، إلى خلق مشاهد وسيناريوهات جديدة، فلم يسبق أن أُبتكرت شخصية مثل «محمود غزالة»، الذى يحاور الناس من قمة الجنون بقمة العقل، ولديه مثل هذه الحلول الراديكالية، التى تبدو عقلانية جدًا.

وختم: «عبدالرحيم كمال لديه قدرة لافتة على ابتكار الشخصيات وتوظيفها، من يمكن أن يتخيل شخصية (فوزية)؟ وكيف جاءت بلا توقع شخصية مراقب المصنفات؟ (سعد) أو (عيسى) كما تسميه (فوزية) أو (سوزان)، والذى عرفنا فى نهاية الرواية أنه مؤلفها».

وقالت الكاتبة الروائية إنجى همام إنه فى رواية «كل الألعاب للتسلية»، للكاتب الروائى عبدالرحيم كمال، نجد أنفسنا فى عالم الألعاب، إذ يتم تبادل الأدوار والأسماء، فالكاتب يدخل فى لعبة كبيرة، طويلة ذات مستويات، ويدخل الجميع كذلك معه داخل اللعبة، ويغوصون داخل طبقات من اللعب، بدءًا من لعبة الكتابة الأولى أو الظاهرة، أو التى نذهب إليها عند بداية القراءة، ثم لعبة الكتابة التى تدور داخل النص، ثم تفاصيل ألعاب تلك الكتابة.

وأضافت: «ألعاب الكتابة متعددة وطبقات السرد تلى بعضها بعضًا، فى رواية (موت العالم)، من (محمود غزالة) إلى حكاية (عيسى)، الذى هو (سعد)، و(شيرين) التى هى (فوزية)، نتعرف بعد وقت طويل أن الرواية لـ(سعد) بالأساس، وليست لـ(غزالة)، الذى كان مجرد ذكرى قديمة تحمل فى قلبها شعورًا بالذنب، لتتحول لرواية يخفيها صاحبها طويلًا، ويعيش (سعد) مع (فوزية) رحلته الأهم، ويعود ليكتب ويكتب، وتتفرع الحكايات ويتدفق السرد، فى نعومة وسلاسة، حتى تنغلق الدائرة».

واختتمت بقولها: «تعرض السرد لمناطق حميمة وناعمة، مثل طفولة (سعد) ومغامراته البريئة، واعتمد أيضًا الواقعية فى بؤرة أحداثه، عندما يرجع (سعد) (فوزية) إلى أهلها، بدلًا من استكمال قصة الحب، كما يعتمد الرومانسية فى الأخير، عندما يحلق معها فى نهاية الرواية إلى عوالم الجمال الخالص».

أما جميل عبدالمجيد، أستاذ النقد الأدبى الحديث، فقد أشاد بمنتدى «أوراق»، قائلًا: «أحيى هذا المنتدى ورؤيته الشاملة، فهو ليس مجرد حدث ثقافى، وإنما هو رؤية وطنية نحن فى مسيس الحاجة إليها، وأتوقع لها النجاح والاضطلاع بدور مهم فى الحياة الثقافية».

ووصف «عبدالمجيد» عبدالرحيم كمال بأنه واحد من أبرز كتاب الرواية والدراما فى الوقت الراهن، مشددًا على أهمية التفات الجامعات المصرية لمشروعه الروائى والدرامى معًا، وكذلك الالتفات إلى تلك المساحات بين الشكلين المختلفين من الإبداع.

عبدالرحيم كمال: استقى الإبداع من ميلادى وسط كتاب من الصور المفتوحة للطبيعة والحياة

محمد الباز: نطمح أن نكون ملتقى المثقفين ونعد بجوائز لأفضل الأعمال الإبداعية

يسرى عبدالله

يسرى عبدالله: عبدالرحيم كمال يكتب روايته على مهل بلا ضجيج

علاء أبوزيد

علاء أبو زيد: «الدستور» تسهم فى استعادة دور بريق الصحافة الثقافية

ابن عربى

خُصصتُ بعلم لم يخص بمثله سواى من الرحمن ذى العرشِ والكرسى
وأُشهدتُ من علمِ الغيوبِ عجائب تصانُ عن التذكارِ فى عالمِ الحسِّ

قبل ما يقرب من عشرين عامًا توقفت أمام صورة رسمها أحد الباحثين لزيارة النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى مصر، اقتحمتنى المعلومات التى بذل جهدًا خارقًا لإثباتها رغم أنه لا يملك دليلًا على ما يقوله إلا أن ما لديه فيض مما نقله غيره من الرواة والمحدثين.
حاولت استيعاب ما قرأت، فلو أنه موجود فى كتب التراث، فلماذا لم يهتم به أحد من قبل؟
لماذا ظل مخفيًا غير ظاهر، مجهولًا غير منشور؟
وإذا كان تم نشره من قبل، فلماذا ليس منتشرًا؟

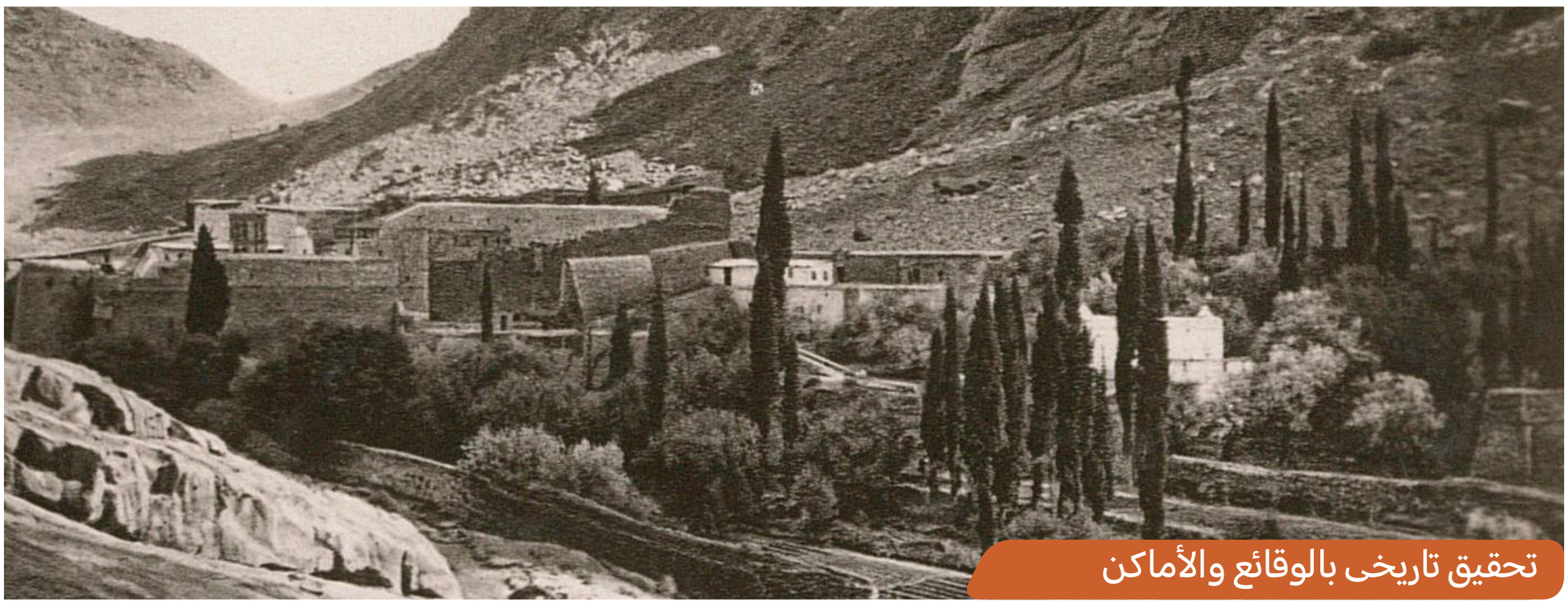

تحقيق تاريخى بالوقائع والأماكن

البازل

هل زار النبى محمد مصر؟

الرسول جاء إلى مصر أثناء رحلة الإسراء والمعراج وزار معها يثرب وطور سيناء وبيت لحم

سقط الكتاب من ذاكرتى، ولم يعد لصاحبه ذكر فيما عندى من أوراق، لكن ظلت الصورة التى رسمها تخايلنى وتقتحم على المساحة التى تتسع يومًا وراء يوم بقراءاتى عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى قراءات لم يكن جميعها فى صف ما رسخ فى عقولنا وقلوبنا عنه، بل كثير منها يتناقض تمامًا مع ما تعارفنا عليه، للدرجة التى يمكنها أن تعصف ببقينك وتزلزل اطمئنانك.

الحكاية تقول إن النبى محمدًا، صلى الله عليه وسلم، زار مصر بالفعل أثناء رحلة الإسراء والمعراج التى جاءت تسرية عنه وتسلية له بعد أن عصره عام الحزن بموت زوجته السيدة خديجة وعمه أبى طالب، وهجوم أهل الطائف عليه وشكوته لله منهم.

لم يزر النبى مصر وحدها فى رحلته ولكنها جاءت ضمن أماكن أخرى، هى يثرب وطور سيناء وبيت لحم، وكان فى زيارته لكل منها حكمة.

الحكمة يحملها لنا حديث أورده البخارى ومسلم عن أنس، رضى الله عنه، الذى يروى أن النبى قال: ركبت ومعى جبريل، فسرت، فقال: انزل فصل، ففعلت، فقال: أتدرى أين صليت؟ صليت ومعى فسرت، فقال: انزل فصل، ففعلت، فقال: أتدرى أين صليت؟ صليت بطور سيناء حيث كلم الله عز وجل موسى عليه السلام، ثم قال: انزل فصل، فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟ صليت فى بيت لحم، حيث ولد عيسى عليه السلام.

يحتج البعض بهذا الحديث الذى يسجل جانبًا من ملحمة الإسراء والمعراج التى استقرت فى المخيلة الإسلامية من روايات صحابة النبى وعبر الأحاديث التى سجلوها عنه، على أن النبى محمد صلى الله عليه وسلم، زار مصر بالفعل.

لو استسلمنا لصحة الحديث، فإن ما جرى على وجه التحديد فى العام ٦٢٠ ميلادية ليس زيارة، بل يمكن التعامل معه على أنه مرور عابر على مصر لم يستغرق فى الغالب سوى دقائق، وهو مرور له رمزيته، خاصة عندما نضعه فى سياق رغبة السماء فى أن تقف بالنبى فى محطات بعينها، فهو يصلى فى المدينة التى سيهاجر إليها، وفى طور سيناء وبيت لحم لأنهما يرتبطان بموسى وعيسى عليهما السلام، فى إشارة إلى أنه حلقة فى سلسلة الأنبياء الذين وضعت السماء على أكتافهم مهمة هداية أهل الأرض.

لا يمكن لمثل هذه الزيارة أن تخلف أثرًا أو تترك خلفها دلالة معينة، فلم يختلط النبى، صلى الله عليه وسلم، بأحد من أهل مصر، لم يتحدث معهم، لم يستمع منهم، ولذلك يمكنك ألا تركن إليها، لأننا من الصعب أن نبنى عليها أى شىء.

لا يمكن لهذا الملف أن يكون مكونًا من هذه الورقة فقط، عندما تتصفحه ستجد ورقة أخرى تحاول تسجيل زيارة ثانية للنبى محمد، صلى الله عليه وسلم إلى مصر، لكن قبل تكليفه بالرسالة السماوية بسنوات، وهى الزيارة التى جرت عندما كان يعمل فى التجارة، متنقلًا ما بين رحلات الشتاء والصيف.

تنحاز الأخبار المروية إلى أن النبى، صلى الله عليه وسلم، خرج فى أول رحلة تجارية وعمره تسع سنوات مع عمه أبى طالب، وكان هو من طلب مرافقته، وهناك من يصل بسنه إلى اثنى عشر عامًا عندما خرج تاجرًا فى رحلة إلى الشام، بعد سنوات قضاها النبى فى رعى الغنم.

على هامش هذه الرحلة نسجت الرواية الأسطورية الأولى فى حياة النبى، فعندما وصل إلى مكان يقال له «بصرى» بأرض الشام، نزل تحت صومعة يعيش فيها راهب اسمه بحيرى، كان قد قرأ كتب أهل الكتاب وعرف ما فيها من الأمارات والأنباء، فرأى غمامة تظلل الصبى الصغير، فنزل من صومعته وخرج إلى أصحاب القافلة وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك.

اقترب بحيرى من الصبى الصغير، وبدأ يتفقد جسده حتى رأى خاتم النبوة بين كتفيه، وسأله عن حاله فى منامه ويقظته، فأخبره بها فوافقت ما عنده فى الكتب، وسأل أبا طالب عنه، فقال له: ابنى، فرد بحيرى: كلا، فقال: ابن أخى... مات أبوه، فرد الراهب: صدقت، ثم أخذ بيده وقال: احفظوا هذا من اليهود والنصارى فإنه سيد العالمين، وسيبعث نبيًا إليهم جميعًا، وإن عرفوه معكم قتلوه.

تعجب أبو طالب، وسأل الراهب: وما علمك بذلك، فقال له: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبى، وإنى أعرفه بخاتم النبوة أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة.

لم تتوقف الرواية عند هذا الحد، بل طلب الراهب من أبى طالب أن يرد الصبى ولا يقدم به إلى الشام، خوفًا عليه من الروم واليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة.

لا يمكن أن نستسلم لصدق هذه الرواية، التى لا دليل عليها إلا أنها وردت فى كتب السيرة منقولة من فم إلى فم، فهى ليست من أقوال النبى، صلى الله عليه وسلم، ولدينا أكثر من سبب.

الأول: يمنح ناسج الرواية للراهب- الذى هو فى النهاية مجرد راهب- ما لم يمكن أن نصدقه، فكيف استطاع أن يعرف نبأ سجود الحجر والشجر للصبى الصغير، أى قدرات خارقة جعلته يتقن لغة الجماد؟ أى لغات تعلمها تلك التى جعلته يفك شفرة لغة مخلوقات لا يعلم بها إلا الله... لكن ولأننا نركن إلى منطق الأسطورة لم نسأل... ولا نريد أن نفعل ذلك فى الغالب.

الثانى: أن مثل هذه الحكايات الأسطورية لا تظهر على صفحة العظماء إلا بعد رحيلهم، والرسول كان عظيمًا بقرار السماء ودعم الأرض، ولم يكن هناك داع لنسج مثل هذه الحكايات لتأكيد نبوته، فقد جاء بشرًا رسولًا يستمد شرعيته من قيمة ما قدمه إلى البشرية.

الثالث: أن عم النبى أبى طالب، لو كان سمع هذا الكلام عن ابن أخيه ومبكرًا جدًا، كان من الطبيعى أن يؤمن به عندما يعلن أنه نبى، لا أن يقف موقف المحايد، صحيح أنه رعاه وبسط حمايته عليه، لكنه مات دون أن يشهد لابن أخيه بما يستحقه.

الرابع: أن النبى واصل عمله فى التجارة، وشد الرحال إلى اليمن والشام، بعد أن تولى تجارة السيدة خديجة عندما تجاوز بعمره سنواته العشرين، فلو أن هناك تحذيرًا ساقه فى طريقه الراهب لما أقدم النبى على الخروج من مكة بعد ذلك من الأساس.

من بين الأخبار التى تسجل حياة النبى فى التجارة أنه اتجه فى رحلة من رحلات الصيف إلى الأرض التى تغرب عندها الشمس وهى مصر التى وصل فيها إلى منف، وأثناء عودته إلى أرض الحجاز مر بدير سانت كاترين.

يمكن أن تخطفنا اللحظة التى اجتمع فيها النبى، صلى الله عليه وسلم برهبان دير سانت كاترين، تأسيسًا على أن كل الرهبان- على طريقة الراهب بحيرى- لا بد أن يقرأوا له بعلامات النبوة القادمة، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، لم يقل لنا أحد إن هناك من تحدث معه بمنطق النبوءة أو الملك القادم، تعاملوا معه على أنه تاجر كبير، وهو ما يظهر أمامنا من لقبه الذى لقبوه به وهو «أمير التجار».

هناك إشارة إلى أن لقاء النبى، صلى الله عليه وسلم، برهبان دير سانت كاترين جاء لأنه احتمى بديرهم من قطاع الطرق الذين كانوا يترصدون لأصحاب القوافل التجارية، ولا بد أنهم تحدثوا معه عما يهددهم، وطلبوا منه أن يتحدث مع كبار العرب الذين يعملون فى التجارة حتى يكفوا عنهم أيدى البدو والأعراب الذين كانوا لا يترددون عن سرقة مواشيهم وتدمير مزارعهم، ولا بد أنه وعدهم أنه سيفعل ذلك.

عاد النبى محمد إلى مكة، انشغل عن رهبان دير سانت كاترين بمهمته الجديدة، لم يأت على ذكرهم أبدًا، لا أثر لهم فى أحاديثه أو المرويات عنه، وهو ما يجعلنى أميل إلى أن الاتصال تم من ناحيتهم، فقد عرفوا ما صار إليه أمر «أمير التجار» وتسيده لقومه، فأرسلوا له يذكرونه بما قطعه على نفسه من عهد أن يساهم فى حمايتهم.

جرى الاتصال على الأرجح فى العام ٦٢٨ ميلادية، أى قبل وفاة النبى، صلى الله عليه وسلم، بأربع سنوات فقط، وقتها تذكرهم وأرسل لهم وثيقة لا تزال- طبقًا لبعض الباحثين- موجودة فى الدير، ويقول من رآها إنها مختومة بكفه.

يقول النبى محمد، صلى الله عليه وسلم، فى هذه الوثيقة: «هذا كتاب كتبه محمد بن عبدالله إلى كافة الناس أجمعين بشيرًا ونذيرًا ومؤتمنًا على وديعة الله فى خلقه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزًا حكيمًا، كتبه لأهل ملته ولجميع من ينتحل دين النصرانية من مشارق الأرض ومغاربها، قريبها وبعيدها، فصيحها وعجميها، معروفها ومجهولها».

كان الرسول واضحًا ومحددًا فيما يريده، فما خطه إليهم كان: «كتابًا جعله لهم عهدًا، فمن نكث العهد الذى فيه وخالفه إلى غيره وتعدى ما أمره كان لعهد الله ناكثا وليثاقه ناقضًا وبدينه مستهزئًا وللعنة مستوجبًا سلطانًا كان أو غيره من المسلمين المؤمنين، لا يغير أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا حبيس من صومعته ولا سايح من سياحته، ولا يهدم بيت من بيوت كنائسهم فى بناء مسجد ولا فى منازل المسلمين، فمن فعل شيئًا من ذلك فقد عادى الله وخالف رسوله، ولا يحمل على الرهبان والأساقفة ولا من يتعبد جزية ولا غرامة».

ويتعهد النبى محمد أمام الجميع عندما يقول: «وأنا أحفظ ذمتهم أين ما كانوا من بر أو بحر فى المشرق والمغرب والشمال والجنوب وهم فى ذمتى وميثاقى وأمانى من كل مكروه، ولا يجادلون إلا بالتى هى أحسن ويحفظ لهم جناح الذل من الرحمة، ويكف عنهم أذى المكروه، حيث ما كانوا وحيث ما حلوا، ويعاونون على حرمة بيعهم وصوامعهم ويكون ذلك معونة لهم على دينهم وفعالهم بالعهد».

يمكن أن تستند إلى هذه الوثيقة لتؤكد أن النبى، صلى الله عليه وسلم، كان هنا ذات يوم، أو على الأقل مر من هنا، لكنها الوثيقة نفسها تؤكد أن لقاءً لم يحدث، وحديثًا لم يقع، فكلام النبى، صلى الله عليه وسلم، عام لا خصوصية فيه ولا إشارة إلى أنه يتحدث لمن سبق وعرفهم أو جالسهم.

يمكنك بالطبع أن تستوقفنى بعتاب، فما الذى يجعلنى أتبنى وجهة نظر أن النبى لم يزر مصر ولو مرة واحدة، فما الذى يضرنى لو أن هذا حدث؟

منطق السؤال يحتاج بالطبع إلى تقويم من زاوية ما، فزيارة النبى، صلى الله عليه وسلم، لمصر أمر يسعدنى وينعش روحى ما فى ذلك شك، لكننا نتحدث هنا عن تاريخ، يستند على أن علاقة المصريين بالنبى، صلى الله عليه وسلم، أكبر وأعمق من واقعة محددة، وأن حضوره فى الشخصية المصرية لا يحتاج لأن يأتينا بنفسه.

لا بد أن نتوقف قليلًا عند اللحظة التى خطفتنا، وهى لحظة جلوس النبى مع رهبان دير سانت كاترين، ونسأل عما فعله النبى أثناء زيارته إلى مصر وبقائه فيها لأيام على أقل تقدير لم تقل عن شهر، كيف رأى المصريين عندما جالسهم، وكيف تعامل مع كلامهم عندما تحدث إليهم وتحدثوا إليه، كل ذلك لا نعرف عنه شيئًا، لأن النبى، صلى الله عليه وسلم، لم يتحدث عنه أو يشير إليه فيما ورد عنه من أحاديث.

أعرف أن المصريين يرغبون فى أن يكون لديهم شئ- أى شىء- من النبى، صلى الله عليه وسلم، وأعتقد أن ما سأقوله هنا سيكون مفاجئًا للبعض.

لو زرت مصر القديمة سترى هناك مسجدًا يطلقون عليه «مسجد أثر النبى»، وحتى لو لم تزرها فحتمًا تعرف اسمه، فهو فى منطقة تحمل نفس الاسم «أثر النبى».

ما تعرفه وأعرفه ويعرفه الجميع أن المسجد يحمل هذا الاسم لأن به حجرًا عليه آثار أقدام النبى، صلى الله عليه وسلم، وتحديدًا لوح حجرى مائل للحمرة عليه آثار لقدم النبى، واللوح محفوظ فى حجرة صغيرة مطلة على النيل وملاصقة للحائط الغربى للمسجد.

الاعتقاد بنسبة الأثر على الحجر للنبى، صلى الله عليه وسلم، له أصل.

يمكننا أن نعود معًا إلى بدايات القرن الرابع عشر الميلادى، تحديدًا فى العام ١٣٠٧، عندما تم البناء الأول للمسجد، وقتها كان الشائع عنه أنه «رباط الآثار» وذلك لمعرفة الناس أن به آثارًا للنبى، لأن من بناه وهو الوزير تاج الدين بن الصاحب قال إنه اشترى قطعة من الخشب والحديد عليها «أثر قدم النبى» ودفع فيها ستين ألف درهم فضة من بنى إبراهيم الذين كانوا يسكنون الحجاز، وادعوا أنها متوارثة فى عائلتهم التى تنتهى عند الرسول، صلى الله عليه وسلم.

لم يكن هذا الحجر وحده هو الذى اشتراه تاج الدين، بل كانت هناك آثار أخرى منسوبة إلى النبى، صلى الله عليه وسلم، لكنها تبددت بعد احتلال العثمانيين مصر فى بدايات القرن السابع عشر، وتحديدًا فى العام ١٥١٧، عندما هزم طومان باى فى معركة الريدانية.

بعد ما يقرب من ثلاثة قرون كان المسجد قد تحول إلى حطام، حتى جاء العام ١٨٠٩ وبعد أربع سنوات فقط من حكم محمد على لمصر تم إصلاح المسجد، وهو الآن واحد من الآثار الإسلامية الشهيرة فى مصر.

هل يمكن أن نقابل كلامًا آخر؟ بالطبع، فالحياة ليست على وجه واحد أبدًا.

يمكن أن نستمع هنا إلى ما قاله د.حجاجى إبراهيم، أستاذ الآثار الإسلامية، لموقع «رصيف ٢٢»، حيث ذهب إلى أن أصل تسمية منطقة «أثر النبى» فرعونى، فقد كان اسمها «اتير ان نوبى» وترجمتها الحرفية «حتحور الذهبية» أو «حتحور النوبية»، وحرفها العامة فيما بعد إلى أثر النبى.

الاسم الفرعونى لمنطقة أثر النبى يعود إلى عصر الأسرة الخامسة والعشرين، عندما غزت مملكة قوش النوبية، تحت زعامة «بعنخى» مصر مستعينة بقوة خارجية، ممثلة فى الأشوريين، واستوطن الغازون فى هذه المنطقة التى سميت بـ«اتير ان نوبى».

يميل حجاجى إبراهيم إلى أن اسم المنطقة كان موجودًا قبل دخول الإسلام والمسيحية إلى مصر، بل قبل غزو الفرس والإسكندر مصر، لكنه اجتهد فى تفسير الأمر بمنطقه، حيث يرى أن هذه الآثار المنسوبة للنبى قد تكون حدثت فى زمن سحيق كانت فيه الصخرة طينية لزجة وطبعت عليها قدم بشرية، نسبها الناس بعد ذلك إلى النبى، صلى الله عليه وسلم.

فعليًا لا يوجد دليل أثرى واحد على أن هذا الأثر للنبى، ويمكن أن نتفهم ذلك بالمنطق الذى يضعه بين أيدينا حجاجى إبراهيم، فعنده أن الأحجار التى يقال إن عليها آثار لأقدام الرسول لا توجد فى مسجد أثر النبى فقط، فهناك أحجار أخرى يقال إن عليها قدم النبى فى مساجد السيد البدوى فى طنطا وإبراهيم الدسوقى فى مدينة دسوق بكفرالشيخ.

صحيح أن المعنى فى بطن الشاعر، كما يقولون، لكن الشاعر دائمًا يفصح عما لديه، وربما يكون أستاذ الآثار أشار إليه، فوجود حجر عليه أثر قدم النبى ليس حقيقة، بل رغبة لدى الجميع، ولما كانت الرغبة لم تتحقق على الأرض فقد اخترعوها وصدقوها وآمنوا بها.

لا يمكن التعامل مع المصريين عندما يصرون على أنهم يمتلكون أحجارًا عليها أثر قدم النبى بمنطق أننا أسرى للخرافة، أو مسلوبو الإرادة أمام الأساطير، ولكن يمكننا التعامل بالمنطق العاطفى، فلا يكفى التأكيد على حبنا للنبى بما نقوله بألسنتنا ونمسك به فى قلوبنا، ولكن لابد أن يكون لدينا بعض منه.

قد لا يعرف كثيرون من العامة حكايات زيارات النبى التاريخية إلى مصر، سواء التى يمكن أن تكون تمت قبل البعثة النبوية الشريفة، أو حتى تلك التى يمكن أن تكون جرت خلال رحلة الإسراء والمعراج، لكنهم فى النهاية يعرفون معنى أن يزورهم النبى، ولذلك ليس عليك إلا أن تتوقف أمام العبقرية الشعبية المصرية التى صاغت هذه الجملة «إحنا زارنا النبى».

مؤكد أنك سمعتها أكثر من مرة، يقابل بها المصريون عزيزًا لديهم يزورهم أو صاحب مقام رفيع دخل عليهم، إنهم يكرمونه عندما يرفعون قدر زيارته إلى الدرجة التى تماثل بها زيارة النبى لهم... فلا أغلى عندهم من نبيهم ولا أحب إليهم منه.

لا تلتفت بالطبع إلى من يحترفون تضييق الحياة علينا، فهناك من بين أبناء الجماعات المتشددة من يعترضون على عبارة «إحنا زارنا النبى» باعتبارها خروجًا على الأدب مع الرسول، وأن من يردده فاسق مبتدع.

لن أبحث كثيرًا، سأمنح أذنى إلى عدد من دعاة الحياة الذين لا يتجرأون على الله ورسوله، ستجد عند هؤلاء أن بعض العوام يقولون لأحبائهم من الأقارب والأصدقاء حينما يزورونهم «إحنا زارنا النبى»، وهو قول حسن ليس فيه شىء.

وستجد عندهم أن المعنى المقصود من هذا التعبير أن الشخص الذى يقوم بالزيارة فيه قطعة من النبى أو صفة من صفاته.

وستجد عندهم أنه لا يجب أن ننسى القاعدة التى يميل أصحابها إلى أنه «ما من مسلم إلا وفيه شىء من رسول الله».

لن أتجاهل ما قيل عن زيارات النبى لمصر بشكل كامل بالطبع؟

لكن ما يشغلنى حقًا هو: لو أن هذه الزيارات حدثت فما الذى تركته من أثر فى حياة النبى وأفكاره؟

هناك حديث عن زيارة الرسول إلى مصر قبل تكليفه بالرسالة السماوية بسنوات وهى الزيارة التى جرت عندما كان يعمل فى التجارة

لو زرت مصر القديمة سترى هناك مسجدًا يطلقون عليه مسجد أثر النبى وحتى لو لم تزرها فحتمًا تعرف اسمه فهو فى منطقة تحمل نفس الاسم أثر النبى

فى زيارة الإسراء والمعراج لم يختلط النبى صلى الله عليه وسلم بأحد من أهل مصر ولم يتحدث معهم

ابن عربى

فيا عجبًا إنى أروحُ وأغتدى ... غريبًا وحيدًا فى الوجود بلا جنسِ
لقد أنكرَ الأقوامُ قولى وشنعوا ... علىَّ بعلمٍ لا ألومُ به نفسى

رمضان يهزم الإسلاموفوبيا

شهر الصوم فى عيون الغرب: 30 يومًا من السمو والنفحات الربانية

منذ عام 1805 على الأقل، بدأ قادة الغرب فى ممارسة بعض البروتوكولات الدبلوماسية للتعبير عن احترامهم لشهر رمضان المعظم، ففى التاسع من ديسمبر لهذا العام، غيّر توماس جيفرسون، ثالث رئيس فى تاريخ الولايات المتحدة، وقت غداء البيت الأبيض المعتاد، من الثالثة والنصف بعد الظهر إلى غروب الشمس، احترامًا لضيف مسلم قادم من تونس، وكان يلعب دورًا سياسيًا مهمًا آنذاك.

وفى الآونة الأخيرة، انتهج الزعماء الغربيون طرقًا عديدة لإظهار احترامهم للمسلمين فى شهر رمضان، سواء الموجودين فى بلدانهم أو فى مختلف دول العالم الإسلامى، ومنها على سبيل المثال استضافة إفطار فى مقارهم الرئاسية، أو بث فيديوهات عبر منصاتهم على مواقع التواصل الاجتماعى للتهنئة بقدوم الشهر المعظم.

وتحول شهر رمضان بذلك إلى مناسبة لطمأنة العالم الإسلامى وإظهار الاحترام له، من قبل زعماء وقادة الغرب، وهو ما دفع مجلة «ذا إيكونوميست» البريطانية الشهيرة لأن تصف هذا الاهتمام بقولها: «عندما يصبح رمضان رقصة دبلوماسية بطيئة!».

ولم يقتصر الاهتمام برمضان على القادة والزعماء فقط، بل امتد أثره إلى دور النشر الغربية، التى انفتحت على إصدار العديد من الكتب عن شهر رمضان وطقوسه، تستعرض «حرف» بعضها فى السطور التالية.

هالة أمين

1 Ramadan Mubarak

البداية مع كتاب «Ramadan Mubarak: A Little Inspiration for the Blessed Month»، أو «رمضان مبارك: القليل من الإلهام فى الشهر الفضيل»، وهو من تأليف الصحفى البريطانى المسلم طارق حسين، المتخصص فى الثقافة الإسلامية، وصدر عن دار النشر الشهيرة «هاشيت يوكيه»، فى ١١ يناير الماضى.

واستعرض «حسين» فى كتابه بضعًا من «نفحات» رمضان، وكيف يساعد الإنسان على التجدد والتحفيز واستشعار الأمل والسمو الروحى، مع الاستعانة بالاقتباسات والأقوال والتعاليم من القرآن الكريم، وبمجموعة مختارة من الشخصيات البارزة، ليرفع القارئ إلى مستوى جديد من الإيمان، ويلهمه لكيفية قضاء شهر رمضان هادئ وهادف.

يشارك المؤلف القراء، عبر كتابه المكون من ١٦٠ صفحة، مجموعة ثرية من الكلمات القوية، لمساعدتهم على الشعور بالإلهام والتحفيز طوال شهر رمضان المعظم، الذى وصفه بأنه «وقت الأمل والتجديد»، معتمدًا على الحكمة المستوحاة من القرآن الكريم، وتوجيهات مجموعة واسعة من الشخصيات الإسلامية، وذلك بكتابة مبسطة للمسلم الغربى المبتدئ، الذى يتعلم ماهية الصيام، وقيمة شهر رمضان ومكانته الكبرى.

ويعطى الكاتب الكثير من الأفكار والنصائح حول كيفية أن تكون إيجابيًا طوال هذا «الشهر المقدس»، عن طريق كتابه، الذى يعد مصدرًا للقوة، ويُقدم الدعم الروحى والتوجيه، أثناء مغامرة الصائم ورحلته التأملية نحو مزيد من الراحة للروح والسلام للقلب، خلال الشهر الكريم.

> خلال هذا الشهر من عام 610م تحدث الله لأول مرة إلى النبى محمد من خلال المَلك جبريل

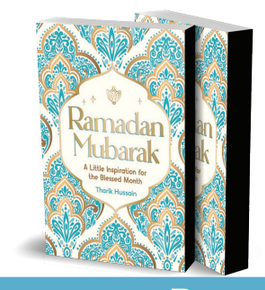

ويتحدث الكاتب عن رمضان ومبادئه الأساسية، والسياق الدينى التاريخى الذى يُكسب هذا الشهر أهمية كبرى بالنسبة للمسلمين، بما يتجاوز التصور الشعبى، علاوة على الأحداث التاريخية الرئيسية التى حدثت فى هذا الشهر، بما يكشف الكثير من الحقائق عن أقدس شهر فى السنة لمسلمى العالم، البالغ عددهم ٢ مليار شخص.

وفسر «حسين» فى كتابه أسباب التقدير الكبير لشهر رمضان عند المسلمين، قائلًا إن «شهر رمضان كان مهمًا قبل الإسلام، ويقال إنه كان مقدسًا عند العرب قبل ظهور الدين المحمدى بوقت طويل، وفيه كانت تتوقف الخلافات والحروب المحلية، فوقتها كان يسود السلام المتواصل، ويتوجه كثير من الأشخاص إلى المعابد والكهوف والمساحات الأخرى للتأمل».

وأضاف المؤلف: «وفقًا للمفاهيم الإسلامية والمستمدة من الأحاديث النبوية، كان رمضان هو الشهر الذى أنزل فيه الله الكتب المقدسة على رسله، مثل التوراة والمزامير والإنجيل على موسى وداود وعيسى، إلى جانب ما شهده من أحداث تاريخية إسلامية عديدة، على رأسها انتصارات كبرى».

وواصل الكاتب حديثه عن أهمية رمضان لدى المسلمين، مشيرًا إلى أنه «خلال هذا الشهر من عام ٦١٠م، تحدث الله لأول مرة إلى النبى محمد من خلال المَلك جبريل، وفقًا للعقيدة الإسلامية، بعدما اعتزل محمد إلى كهف صغير فى ضواحى مكة يسمى (غار حراء)، كما كان يفعل غالبًا خلال هذا الشهر من كل عام، وذلك للتأمل». وتابع: «فى إحدى الليالى الفردية، خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان، سمع محمد صوتًا يطالبه بالقراءة (اقرأ)، وهكذا بدأ نزول القرآن، وأصبحت الليلة التى بدأ فيها نزول الوحى تسمى (ليلة القدر)، التى يقول عنها القرآن إنها (خير من ألف شهر)، ولهذا ينتظر المسلمون الأيام العشرة الأخيرة من رمضان ويطلبونها، على أمل أن يناولوا بركاتها».

ويقدم المؤلف نظرة شاملة إلى الصوم فى هذا الشهر الكريم، وكيف أن له بعدًا روحيًا أبعد من الامتناع عن الطعام والشراب، قائلًا: «رغم أنه يُنظر إليه على أنه امتناع عن الطعام والشراب، يمتنع المسلمون خلال الصوم عن جميع السلوكيات المبتذلة وغير المقبولة، بينما يكون الطعام والشراب كناية عن الحاجات والرغبات الدنيوية»، مشيرًا إلى أن «فعل الصيام يسبق الإسلام، ويتضح فى جميع الديانات الكبرى فى العالم، وهو ممارسة قديمة قد تحمل فوائد صحية».

C.V

طارق حسين

الكاتب الصحفى طارق حسين يعتبر من أوائل البريطانيين المهتمين بالتراث الإسلامى، وسبق أن أنتج برنامجًا إذاعيًا عن «مساجد أمريكا» لهيئة الإذاعة البريطانية، ونال عنه العديد من الجوائز، وهو عضو فى «الجمعية الجغرافية الملكية» بالعاصمة البريطانية لندن، و«مركز الدين والتراث» التابع لجامعة «جرونينجن» فى هولندا.

2 Ramadan reflections

الكتاب الثانى بريطانى أيضًا، من إصدارات دار النشر الرائدة «بنجوين»، فى مارس ٢٠٢٣، ويحمل عنوان: «Ramadan reflections: 30 days of healing from your past، أو «خواطر رمضان: ٣٠ يومًا من التعافى من الماضى».

الكتاب ضمن قوائم «الأكثر مبيعًا»، وهو ما دفع دار «بنجوين» إلى إصدار نسخة صوتية منه، بعد نجاحه الأدبى الكبير، وتقدم خلاله الكاتبة البريطانية «عالية»، وهو اسمها بعد اعتناق الإسلام، مزيجًا من التأملات والخواطر الملهمة والتمارين العملية، لإرشاد القارئ خلال شهر رمضان، وتعميق اتصاله الفردى بالله، من خلال اقتباسات مهمة، إلى جانب خلاصة الحكمة الروحية للقرآن الكريم والسنة النبوية.

ويدفع كل فصل من فصول الكتاب، المكون من ٢٢٤ صفحة، القارئ للتفكير فى حياته بشكل أوسع، ويحثه على التغير بمحبة نحو الأفضل، من خلال التطرق إلى جميع جوانب الإيمان، وكيفية ربطها بأى موقف قد يمر به الشخص، ليساعد بذلك على إعادة تقييم الأولويات الإيمانية والحياتية، خلال الشهر الكريم.

وينقسم الكتاب إلى ٣ أجزاء، تركز على الماضى والحاضر والمستقبل على التوالى، مع وجود فصل لكل يوم من أيام شهر رمضان، إلى جانب مطالبة القارئ فى النهاية بكتابة أفكاره وتدوينها، لتكتمل الرحلة الروحية الخاص به فى هذا الشهر المعظم.

ويعتمد كل فصل على الأفكار التى أثارها الفصل السابق له، لتُقدم كل فصول الكتاب فى مزيج مثالى من الحكايات الشخصية والنصائح والمعلومات الدينية، دون شعور بالوعظ أو الأهمية الذاتية، وهى سمة غالبًا ما تكون مفقودة فى الكتب ذات الطابع الدينى.

C.V

عالية

اعتنقت الكاتبة البريطانية «عالية» الإسلام عام ١٩٩٩، وهى المؤسس والرئيس التنفيذى لجمعية «SOLACE»، المسجلة فى المملكة المتحدة، وتدعم النساء اللاتى يواجهن صعوبات حياتية، كما أنها تعد الكاتبة الأكثر مبيعًا فى صحيفة «صنداى تايمز» لعام ٢٠٢٣.

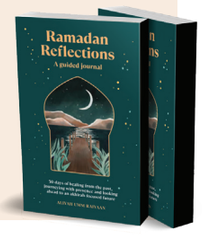

3 صور ورسوم توضيحية ملونة للأطفال عن الـ«Holy Month»

C.V

إتش إيه راى وزوجته «مارجريت»

قدم الكاتب إتش إيه راى وزوجته «مارجريت» سلسلة كتب «جورج الفضولى»، عام ١٩٤١، وتم تحويلها إلى فيلم سينمائى ناجح، وبرنامج تليفزيونى حائز على جائزة «إيمى».

حرصت العديد من دور النشر الغربية الكبرى على إصدار كتب عن رمضان مخصصة للأطفال، لتعريف «الملائكة الصغار» بالشهر الكريم وقواعده، ومن بينها الكتاب الأمريكى «Ramadan: A Holy Month»، أو «رمضان: شهر مقدس»، الذى صدر فى فبراير ٢٠٢٤، عن «جولدن بوكس»، التابعة لدار النشر الشهيرة «بنجوين».

وتشرح الكاتبة والرسامة ديبى رحمة، فى هذا الكتاب، لماذا تحتفل العائلات المسلمة فى الولايات المتحدة والعالم بشهر رمضان، وكيف يكون هذا الاحتفال، مع تعليم الأطفال كل شىء عن الشهر الكريم، وماهية الصيام، والقرآن الكريم.

ويستعرض الكتاب أنواع الطعام الذى يُقدم خلال الصوم، وكيف تحتفل الأسر بالشهر الكريم، وذلك من خلال الرسوم التوضيحية الملونة، والنصوص البسيطة الغنية بالمعلومات.

أما «فارشور» التابعة لدار نشر «هاربر كولينز» الأمريكية الشهيرة، فأصدرت كتاب «Moon's Ramadan: Learn about one of the world's most important Muslim festivals»، أو «قمر رمضان: تعرف على أحد أهم الاحتفالات الإسلامية فى العالم»، وذلك فى مارس ٢٠٢٣.

الكتاب من تأليف الأمريكية ناتاشا خان كازى، وهو مخصص للأطفال الأمريكيين الذين يبدأون تعلم كل شىء عن الدين الإسلامى، ويشرح كيف يمكن للمسلمين وغير المسلمين على حد سواء الاحتفال بالشهر المعظم، مع الإشارة إلى مهنة «المسحراتى»، الذى ينادى على الأسر النائمة بالطبول، من أجل إيقاظهم لتناول وجبة السحور.

ويجسد هذا الكتاب المصور معنى شهر رمضان، الذى يصفه بأنه «أحد أهم الاحتفالات الإسلامية فى العالم»، ويشرح الاختلافات الثقافية فى الاحتفال بالشهر المعظم فى بلدان العالم، من خلال عرض الطقوس فى كل منها، من الأذان والصلاة، إلى مشاركة الطعام المطبوخ فى المنزل، وذلك عبر مجموعة من الرسوم التوضيحية، لتقديم الكثير من الحقائق المفيدة، وسرد وشرح المصطلحات الدينية.

وكجزء من سلسلة كتب «Curious George» أو «جورج الفضولى»، نشرت دار «كلاريون» كتاب: «It's Ramadan, Curious George»، أو «إنه رمضان يا جورج الفضولى»، فى مايو ٢٠١٦، وهو من تأليف إتش إيه رى وهينا خان، ويرصد كيفية قضاء اليوم الأول من شهر رمضان.

ويستعرض الكتاب كيف يحتفل «جورج المسيحى» مع صديقه «كريم المسلم» وعائلته، باليوم الأول من شهر رمضان، وانضمام «جورج» إلى العائلة المسلمة فى الإفطار، لتذوق المأكولات والاستمتاع بوجبة خاصة أعدتها العائلة، وصولًا إلى تعاونهما معًا فى صنع سلال الهدايا للتبرع بها إلى المحتاجين، علاوة على مراقبة الهلال، مع الرجل ذو القبعة الصفراء، قبل الاحتفال بعيد الفطر فى النهاية.

ووصفت مجلة «ذا نيويوركر» وصحيفة «هافينجتون بوست» الأمريكيتين الكتاب، الأكثر مبيعًا وقتها، بأنه محاولة لسد الهوة الثقافية لدى جيل جديد فى الولايات المتحدة، من أجل المساعدة فى التغلب على «الإسلاموفوبيا»، وتعزيز الاحترام المتبادل والقبول والتفاهم، وتثقيف الأطفال الأمريكيين حول المسلمين، إلى جانب تعزيز الثقافة الدينية.

C.V

هينا خان

– الكاتبة هينا خان مسلمة أمريكية من أصول باكستانية، ولدت ونشأت فى ولاية «ماريلاند»، ولها مؤلفات أخرى عن الإسلام للشباب، بما فى ذلك «القباب الذهبية» و«الفوانيس الفضية».

ابن عربى

فلا هم مع الأحياءِ فى نور ما أرى ولا هم مع الأموات فى ظلمة الرمسِ
فسبحانَ منْ أحيا الفؤادَ بنورِهِ وأفقدهُمْ نورَ الهداية بالطمسِ

مؤلف من منطقة الجليل الأوسط كتب قصصًا استلهمها من أحاديثه صلى الله عليه وسلم

اختراق المجتمع الإسرائيلى بسيرة النبى محمد

الكتاب ليس حديثًا، نعرف ذلك، لكن ليس معنى أنه ليس حديثًا أنه ليس موجودًا، كان أول نشر له فى العام 2021، اسمه « قصص النبى محمد والتقاليد الإسلامية»... ويمكن أن تحبس أنفاسك قليلًا، لأنك ستعرف الآن أنه صادر فى إسرائيل، كتبه صاحبه باللغة العربية، لكنه لم ينشره بها، بل انحاز إلى ترجمته إلى العبرية، لتكون النسخ الموجودة فى الأسواق الإسرائيلية منه بالعبرية فقط.

لم يلتفت إلى الكتاب أحد من قبل، رغم أهميته، ورغم الدلالة التى يحملها، ولا يجب أن نجعلها تعبر دون أن نتوقف أمامها ونتأملها.

لا نحاول النفخ فى الموضوع، ولكن الكتاب وكواليس إنتاجه تقول إننا أمام محاولة جادة لاختراق المجتمع الإسرائيلى بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

سارة الشلقاني

هارون تخاوكو

الكتاب اسمه «قصص النبى محمد والتقاليد الإسلامية».. وأول نشر له كان فى عام 2021 باللغة العبرية

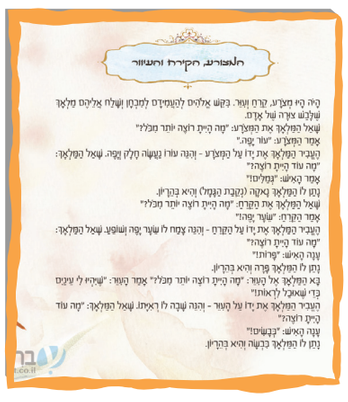

يقولون إن الكتاب يظهر من عنوانه، وعنوان الكتاب الذى بين أيدينا محايد تمامًا، لا تستطيع أن تعرف ما الذى يرمى إليه بمجرد مطالعته، تحتاج قليلًا إلى الانتظار، يمكن أن تنخدع بالتصدير الذى حرص مؤلفه أن يضعه فى صدر الكتاب، فقد طرح سؤالًا بسيطًا جدًا، قال فيه: متى كانت آخر مرة قمت فيها بعمل صالح أو ساعدت محتاجًا أو أشفقت على حيوان فقير».

عنوان الكتاب المحايد فيما أعتقد كان مقصودًا، فمؤلف الكتاب فى الغالب كان يقصد ذلك، لم يكن يرغب فى استفزاز أحد، أراد فقط أن يقرأه الإسرائيليون وتحديدًا الأطفال دون أن يكون هناك موقف عدائى من الكتاب قبل الدخول إليه.

لن تلتفت كثيرًا إلى أن سعر الكتاب حوالى ٥٨,٤ شيكل، أى ما يعادل نحو ١٦ دولارًا، حسب أحد المواقع الإسرائيلية المتخصصة فى عرض الكتب وبيعها، ولكن أعتقد أنك لن تستطيع تجاهل منهج الكتاب الذى اختار مؤلفه من خلال رسومات معبرة نشر مجموعة من القصص المكتوبة بأسلوب ولغة عبرية سهلة لتشجيع الأطفال على قراءتها، والعجيب أنه يقول إن هدفه هو تعريف الأطفال الإسرائيليين بأخلاق النبى محمد وقيم الإسلام.

سنسير مع الكتاب فى طريق حسن النية ولن نغادره، وهو ما سيجعلنا نتعرف أكثر على ما جاء فيه.

فالكتاب يحتوى بالأساس على عدة حكايات تستند إلى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهى حكايات بالأساس حول مساعدة الفقراء والمساكين وشكر الله على ما يمنحه للإنسان من نعم، وأهمية وضرورة التوكل عليه، وإلى جانب ذلك قصص تهتم بالإشارة إلى القيم الإسلامية التى تؤكد الرحمة بالناس والأطفال والحيوان.

بإطلالة سريعة على كتب الأطفال فى إسرائيل سنكتشف أنه الكتاب الأول من نوعه على الإطلاق، فلا يوجد فى المكتبة الإسرائيلية كتاب واحد يحدث الأطفال عن الإسلام من زاوية إيجابية أو على الأقل زاوية محايدة، ونعتقد أن مؤلفه لجأ إلى القصة البسيطة؛ لأنه كان يريد الوصول إلى أكبر عدد من الأطفال فى إسرائيل، وأن يؤثر عليهم بقيم الإسلام، دون أن يلفت الإنتباه إلى أن يريد أن يفعل شيئًا محددًا.

الأمور لم تمر ببساطة بالطبع عندما صدر الكتاب فى العام ٢٠٢١، فقد أثارت قصص النبى محمد جدلًا كبيرًا فى المجتمع الإسرائيلى، فقد التقط بعض الكتاب الإسرائيليين مكمن الخطر القادم من هذا الكتاب، خاصة أن القصص المنشورة فيه، والتى تقدم قيم الإسلام وأخلاق رسوله صلى الله عليه وسلم مكتوبة بلغة عبرية بسيطة لا تحول بين القراء والفهم، بل والاقتناع بها، ولما كان المستهدف بهذه القصص هم الأطفال تحديدًا، فقد تزايد الشعور بالخطر الذى يحمله الكتاب.

يمكننا أن نفتح الكتاب معًا لنتعرف على محتوياته عن قرب، ولن يكون غريبًا بالنسبة لك عندما تكتشف أن كل القصص الواردة فيه تعتمد على الأحاديث النبوية الموثوقة، فقد كان مؤلف الكتاب حريصًا على الاعتماد على أحاديث النبى الصحيحة، أو كما أشار هو، كان يعمل على الوصول إلى ما قاله النبى محمد بنفسه، بعيدًا عما نسبه إليه الآخرون.

قصص الكتاب تشتمل على الآتى:

القصة الأولى... «السحابة والفلاح الصالح»... وهى قصة عن سحابة أنزلت المطر لرجل صالح كان يوزع أملاكه دائمًا على الفقراء، وأكد المؤلف أن رسالة هذه القصة هى أن من يعمل خيرًا فله أجره عند الله.

القصة الثانية.. الثلاثة العالقون فى الكهف».. وهى قصة معجزة عن حجر كبير سد الكهف على ثلاثة أشخاص، وحركته قوة الأعمال الطيبة والصادقة للأشخاص العالقين فى الكهف، وهدفها كما يقول المؤلف التأكيد على فكرة جواز الدعاء إلى الله، وأن نطلب منه المساندة فى أوقات الضيق التى نمر بها، وأننا يمكن أن نتشفع له بالأعمال الطيبة التى نقوم بها.

القصة الثالثة.. «بائع الخمر والقرد».. وتحكى هذه القصة حكاية القرد الحكيم الذى عاقب الرجل غير الأمين الذى باع الخمر المخفف بالماء إلى زبائنه، ورغم أنه لا يجوز للمسلمين شرب الخمر، إلا أن القصة تخبر الأطفال أن البائع الذى باع زجاجات الخمر المزوجة بالماء لم يحصل على نصف الربح بسبب خداعه، وهو يحاول غرس قيمة الأمانة والبعد عن الغش.

اختار مؤلفه من خلال رسومات معبرة نشر مجموعة من القصص المكتوبة بأسلوب ولغة عبرية سهلة لتشجيع الأطفال على قراءتها

القصة الرابعة.. «عمل قليل أجره كبير».. فى هذه القصة نتعرف على حكاية امرأة فقيرة تصدقت بثلاث تمرات، وتصدقت بتمرة لابنتيها، وعندما أرادت أن تأكل رفيقاتها طلبت الفتيات المزيد، فلم تفكر فيما لديها، بل قسمته إلى نصفين وأعطته لهن، فوعدت هذه المرأة بالدخول إلى الجنة، رغم أن الخير الذى قامت به صغير لا يكاد يذكر.

هذه فقط نماذج فقط من القصص التى وردت فى الكتاب، ورغم أن القيم التى تعكسها هذه القصص فى النهاية قيم إنسانية، ويمكن أن نعثر عليها فى كل الأديان، فالأديان مصدرها واحد، والقيم التى تسعى إلى ترسيخها واحدة، فمصدرها واحد من عند الله، إلا أن ربطها بالإسلام وبالنبى محمد على وجه الخصوص هو ما أزعج البعض فى مصر.

لقد تجاهلنا كثيرًا مؤلف الكتاب؟

أعتقد أننا لم نفعل ذلك عمدًا، بل كنا ندخر قصته وكما يقف وراءه، حتى نتعرف على الكتاب وما جاء فيه.

مؤلف الكتاب القصصى اسمه « هارون تخاوكو» عمره الآن ٤٢ عامًا، وهو من سكان «كفر كما»، التى تقع فى منطقة الجليل الأوسط، متزوج ولديه أربعة أطفال، عمل لفترة من حياته صحفيًا ومحرر محتوى، من يعرفونه يؤكدون أنه يحب القراءة ويجعل من الكتب عالمه، يكتبها ويترجمها، ويبذل فى هذا نشاطًا كبيرًا، والآن لديه موقع محلى يعرض عليه أخبار الإسلام، ويهتم بعرض أفكاره بشكل موسع، وإلى جوار هذا النشاط الإعلامى، يقوم بنشاط اجتماعى ملحوظ، فهو يسعى إلى مساعدة المجتمع المسلم فى البلدة التى يسكنها «كفر تخاوكو».

لكن ما الذى دفع « هارون» إلى كتابة هذا الكتاب القصصى تحديدًا؟ ما الذى يريده من ورائه؟

فى السيرة المهنية التى يحملها هارون يمكننا أن نعرف أنه من خلال نشاطه الصحفى والاجتماعى يبذل جهدًا كبيرًا ليصل إلى مزيد من الاندماج بين المجتمعين العربى والعبرى فى إسرائيل.. يريد أن يجعل من وجود المسلمين طبيعيًا فى المجتمع الذى يتعامل مع المسلمين بعنصرية واضحة.

هارون نفسه تحدث، فى إحدى المقابلات الصحفية التى أجريت معه بعد صدور الكتاب قال: إن جيل الشباب فى المجتمع العربى يدعو إلى الاندماج مع نظيره الإسرائيلى، ولذلك فهو يتحدث باللغة السائدة فى البلاد.

ويضيف هارون: بما أنه من المهم بالنسبة لى أن يقترب الأطفال من النبى محمد، أدركت أن إحدى أفضل الطرق للقيام بذلك ستكون باللغة العبرية، ومن ثم عملت على ترجمة قصص الأنبياء، لا سيما قصص النبى محمد إلى اللغة العبرية، وأنا أرى أن للنبى محمد أهمية كبرى، فهو فى النهاية آخر الأنبياء وأهمهم.

كان الاهتمام بما فعله هارون كبيرًا، لذلك كان الإنصات له مهمًا، تحدث عن الرسائل التى أراد توصيلها إلى الأطفال من خلال كتابه القصصى، بأنها بالأساس رسائل بالإنسان بغض النظر عن جنسيته أو عقيدته أو مذهبه، فالإنسان هو الأحق بالاهتمام، خاصة أن الصراعات التى تأكل الأخضر واليابس الآن فى العالم وليس فى إسرائيل فقط لها أساس دينى طوال الوقت.

ويتابع هارون: أنا أعلم أطفالى بهذه الطريقة أيضًا، من المهم بالنسبة لى أن أعلمهم هويتهم وعاداتهم وجذورهم، ومن ناحية أخرى قبول الآخرين أيضًا، وأعتقد أن الجميل فى مجتمعنا هو أننا نعرف كيف ننسجم مع الجميع، فالقصص الموجودة فى الكتاب تنقل أمثالًا مع الأخلاق بلغة بسيطة وطلاقة يمكن لكل طفل أن يتعلمها ويفهمها، وأهمها اللطف وقبول الاختلاف ومساعدة الآخرين وكرم الضيافة والرضا بالقليل وحب الطبيعة والإنسان.

ويستكمل هارون رؤيته، فهو يريد أن يقول للأطفال من خلال هذه القصص إن الإنسان لا يمكنه أن يصل إلى هدفه ولا يمكن أن يحقق ما يسعى وراءه فى الحياة لو اعتمد على الحيل والأكاذيب.

القصة تكتمل بما قاله هارون أيضًا عن ظروف إنتاجه كتابه القصصى، يقول: تأليف الكتاب وتحريره استغرق نحو ٧ أشهر، ودفعنى إلى إنجازه أننى عثرت على مئات الكتب التى يتداولها الأطفال، لكن لم يكن من بينها كتاب واحد يتحدث عن الإسلام بالصورة التى أعرفها.

قرر هارون أن ينتج الكتاب، قرأ الأحاديث جيدًا وفهمها واستخرج منها الرسائل التى يريدها أن تصل إلى الأطفال، وبعد أن انتهى من الكتابة بحث عن رسام أنجز له المهمة، فقد كانت الرسومات مهمة ليصل المعنى إلى الأطفال بشكل أسرع، وبعد أن انتهى من الكتابة والرسومات، ترجم النص إلى العبرية، ثم تقدم به إلى ناشر، والمفاجأة أنه لم يجد أى معارضة أو رفض، وهكذا نشر الكتاب.

لم يلق كتاب هارون ترحيبًا كبيرًا فى إسرائيل بالطبع، بل ما جرى أنه تمت محاصرته، فلا يعنى أنه نجح فى نشر الكتاب، ولا يعنى نزوله إلى السوق الإسرائيلية وتداول الأطفال له، أن تتاح له فرصة الانتشار والتأثير، فقد اعتبر بعض العاملين فى سوق النشر الإسرائيلية أن الكتاب بمثابة اختراق ناعم بسيرة النبى محمد للمجتمع الإسرائيلى، وأنه استهداف واضح للأطفال بهدف التأثير عليهم، ولم يلتفت أحد إلى ما قاله هارون عن كتابه بأنه يسعى من خلاله إلى زيادة الاندماج فى المجتمع الذى يعيش فيه.

لا يوجد فى المكتبة الإسرائيلية كتاب واحد يحدث الأطفال عن الإسلام من زاوية إيجابية أو على الأقل زاوية محايدة

علومٌ لنا فى عالمِ الكونِ قدْ سرتْ ... من المغربِ الأقصى إلى مطلعِ الشمسِ
تحلَّى بها من كان عقلًا مجرَّدًا ... عن الفكرِ والتخمينِ والوهمِ والحدسِ

ابن عربى

يقولون إن البناء من الصغر هو الأساس.. وهذا ما انتبه إليه الأزهر الشريف، فكان أن صدر مؤخرًا أول كتاب لفضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب يخاطب فيه الأطفال والنشء، تحت عنوان «الأطفال يسألون الإمام».

الكتاب أعدته الدكتورة نهى عباس، رئيس تحرير مجلة نور للأطفال، التى تصدر عن المنظمة العالمية لخريجى الأزهر، ويجمع الأسئلة التى تدور فى ذهن الأطفال ولا يستطيع الكبار الإجابة عنها أحيانًا، ظنًّا منهم أنَّ تلك الأسئلة مسيئة للعقيدة، ويطلبون منهم التوقف عن ذلك، وتم جمع فيه أسئلة الأطفال ليجيب عنها الإمام الأكبر شيخ الأزهر بنفسه ليرشدهم، ويعلمهم صحيح دينهم، وتكون رسالة تربويّة لأولياء الأمور توجههم إلى أهمية الانتباه إلى أسئلة أبنائهم الصغار، والإجابة عنها بعقل متفتح؛ بل وتشجيعهم على التفكير والتدبر فى أمور العقيدة وغيرها من الأمور فى الحياة.. «حرف» تنشر جانبًا من أسئلة الأطفال وإجابات الإمام عنها.

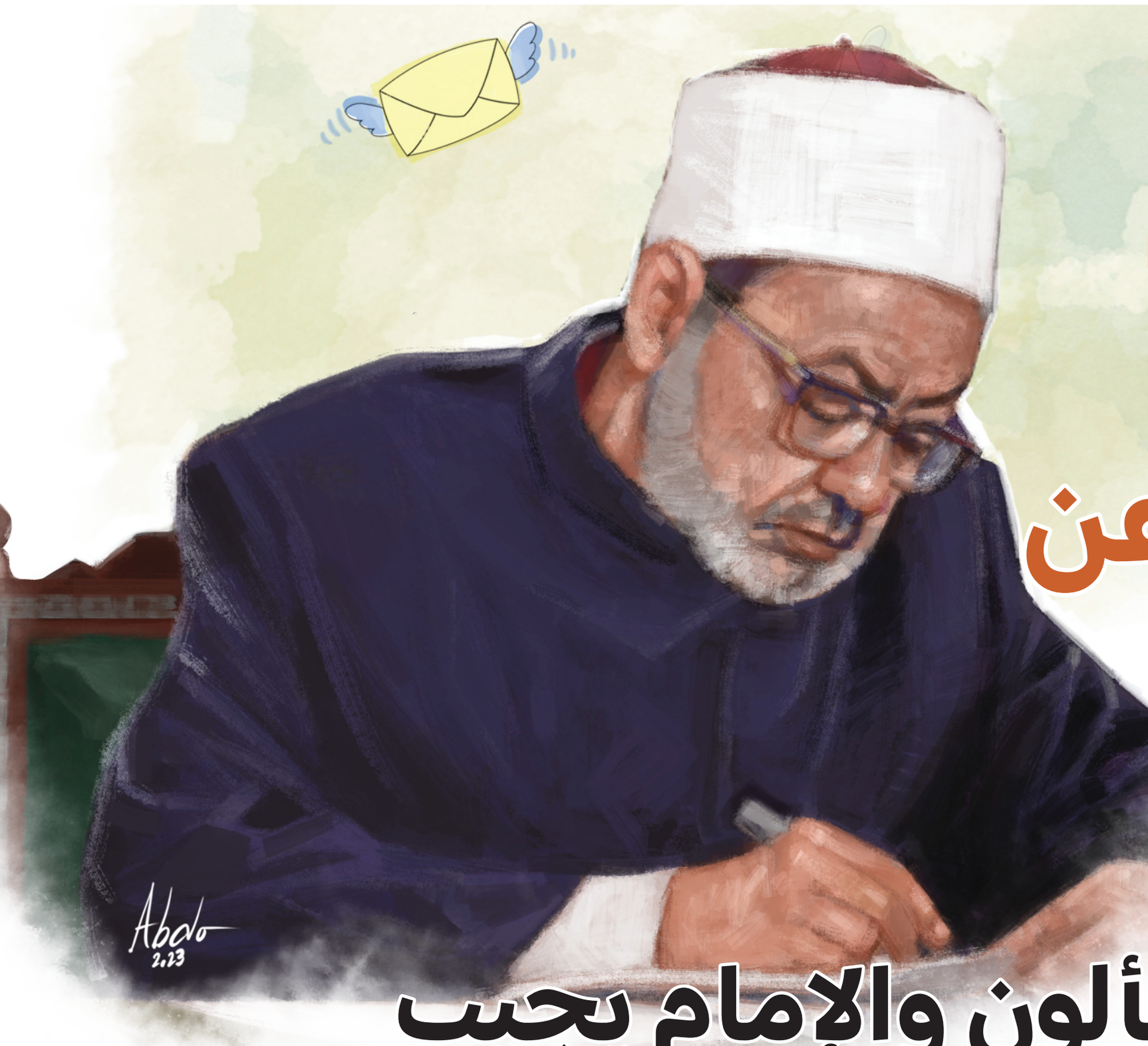

الأسئلة الحائرة عن اللّه

الأطفال يسألون والإمام يجيب

1 يعجبنى شكل شجرة الكريسماس ومظاهر الاحتفال به وأحب مشاهدتها فى الأفلام الأجنبية. فهل هذا حرام؟

– إعجابك بالأشجار أيًا كانت شىء جميل لا شىء فيه لأنها من خلق الله تعالى، ذات المنظر البديع الدال على عظمة الله وقدرته فى خلقه، وكذلك جميع المناظر الطبيعية من حولنا حينما ننظر إليها ونرى جمالها لا نملك إلا أن نقول: سبحان الله.. تبارك الله أحسن الخالقين.

وقد أمرنا الله تعالى فى كتابه بالنظر إلى ما فى الكون والتدبر فيه. قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [سورة يونس].

فكلما تمعن الإنسان فى خلق الله المباح ازداد يقينًا وإيمانًا بالله تعالى. أما إعجابك بمظاهر الاحتفال بالكريسماس لا يحرم إلا إذا كان فى هذه المظاهر أشياء محرمة أو عنف وإساءة، فحينها لا يجوز مشاهدتها ولا الإعجاب بها، وهذه الشروط ليست خاصة بالكريسماس فقط، وإنما هى شروط لكل الاحتفالات وغيرها، سواء كانت خاصة بالمسلمين أو بغير المسلمين، فالأصل فى جميع الأشياء أنها مباحة إلا ما أتى الشرع الحنيف بتحريمه فيصبح حرامًا.

ولكن يا بنى لا بد أن يكون لك ذاتية متفردة لا يستهويك أى شىء تراه، فالله تعالى أعطانا العقل لضبط الأمور وتسييرها فى مسارها الصحيح، هذا ما أريد أن تكون عليه، فلا تنخدع بسفاسف الأمور والانسياق وراءها، وهذا ما ربَّى النبى ﷺ أمته عليه، فقال ﷺ: «لا تَكونوا إمَّعةً، تقولونَ: إن أحسنَ النَّاسُ أحسنَّا، وإن ظلموا ظلَمنا، ولَكن وطِّنوا أنفسَكم، إن أحسنَ النَّاسُ أن تُحسِنوا، وإن أساءوا فلا تظلِموا». لقد اهتم النبى ﷺ ببناء الشخصية المسلمة على التميز، واستخدام العقل والحكمة، وعدم التقليد الأعمى، وعدم اتباع كل ما نرى أو نسمع، أو السير خلف الناس دون روية وتبصر. وفى هذا الحديث يقول النبى ﷺ ناصحًا للمسلمين: «لا تَكونوا إمَّعةً»، والإمعة هو الشخص الذى يقلد الناس بدون وعى ولا رأى، والمقلد والتابع لغيره يكون بلا شخصية ولا رأى، ولا يقوم رأيه على التصديق والاعتقاد، وهذا خطر على المقلد نفسه، وخطر على المجتمع لأنه يؤدى إلى إفراغه من التفكير والتعقل فى الأمور.

الخلاصة أن الإنسان لا بدَّ أن يكون له شخصية واعية لا يتبع كل ما يرى أو يسمع بدون عقل، وهذا ما يسمى بالهوية، فكلُ إنسان له هوية مستقلة يحافظ عليها، وكلُ دين له هوية يحافظ عليها أتباعه، فلا ينساق الشخص خلف رغبات نفسه دونَ هدف.

2 أين الله؟

– الله سبحانه موجود لا يحدُّه زمان ولا يحويه مكان لأنه خالق الزمان والمكان ولا يحتاج لشىء منهما، وإلا فأين كان قبل خلق المكان؟!

فوجوده تعالى لا يحتاج إلى مكان؛ لأن الذى يحتاج وجوده إلى مكان هو الجسم «المادة»، والله تعالى ليس بجسم، سبحانه لا تدركه الأبصار وكل ما يخطر ببالك فالله خلاف ذلك، وهذا مصداقًا لقول ابن عباس: «تفكروا فى كلِّ شىءٍ ولا تتفكروا فى اللهِ».

3 من خلق الله؟

– يرد هذا التساؤل فى خاطر البعض من الكبار والصغار من المؤمنين وغيرهم. إن قضية الإيمان بإله خالق لكل شىء يعنى أنه هو الأول ولا شىء قبله، فإن الله تعالى موجود بذاته وغير محتاج إلى من يوجده، فالله سبحانه وتعالى يا بُنى ليس مخلوقًا، وما دام أنه ليس بمخلوق فلا يصح عقلًا أن نسأل عمن خلقه، وطرح هذا السؤال وتوارده على العقول قد أشار إليه نبينا ﷺ وأرشدنا إلى الانتهاء عن ذلك والاستعاذة بالله من الشيطان. قال ﷺ: «يَأتى الشَّيْطَانُ أحَدَكُمْ فيَقولُ: مَن خَلَقَ كَذَا؟ مَن خَلَقَ كَذَا؟ حتَّى يَقُول: مَن خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ» [صحيح البخارى ٣٢٧٦].

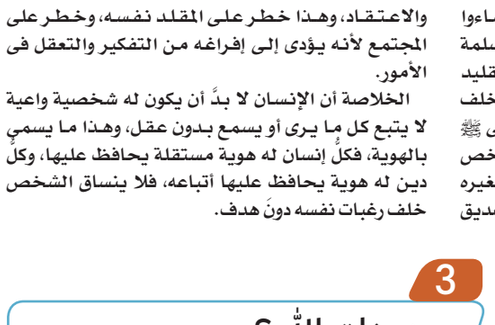

4 لماذا خلق الله بعض البشر بصفات بها نقص؟

– الله تعالى خلق الخلق بتنوع واختلاف، فلم يخلق الخلق كلهم دون اختلاف، فخلق الطويل والقصير، والأبيض والأسود، والسمين والنحيف، والأيمن والأعسر، وكل هذا يدل على قدرته وعظمته فى خلقه. والمخلوق الذى خلقه الله بهيئة أو صفة معينة ويشعر الإنسان بنقص أو عدم تقبل لها فهذا ابتلاء من الله تعالى له هل يصبر عليه ويقبل خلق الله ويتعايش به ويؤدى مهامه أم أنه ييأس ويسخط على خلق الله وعطائه؟ وحينها يكون قد فشل فى الاختبار.

وأصبحتُ فى بيضاءَ مثلى نقية ... إمامًا وإن الناسَ منها لفى لَبْسِ

ابن عربى

5
مات كلبى. هل سأراه فى الجنة؟

– الجنة هى مطلب كل إنسان، وهى دار الخلود التى لا موت بعدها، وفيها من النعيم ما لا يتخيله عقل، وفى الجنة كل شىء طيب يتمناه الإنسان ويحبه، فكل ما تتمناه ستجده فيها، ولكنك ستنشغل فى الجنة بما أعده الله لأهلها من النعيم، فاحرص أولًا أن تكون من أهل الجنة وبعدها ستجد ما تحب فيها.

والجنة ليس فيها إلا كل طيب، ولا يدخلها قبيح أو خبيث، فإن كنت من أهل الجنة وتمنيت رؤية كلبك فسيخلقه الله لك فى أحسن صورة وأجملها لتراه، قال تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١)﴾ [سورة النحل].

قالت لى زميلتى بالمدرسة: إن صداقتى لزميلتنا المسيحية حرام. ما صحة ذلك؟

كلام زميلتك غير صحيح، وصداقتك لزميلتك المسيحية مباح ولا شىء فيه، وقد جعل القرآن الكريم أساس العلاقة بين المسلم وغيره هى البر والقسط لا القطيعة والهجر والعدوان. قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨)﴾ [سورة الممتحنة].

6
أعالج من السرطان وأتساءل دائمًا: هل مرضى عقاب من الله على ذنب فعلته؟

– أسأل الله لك الشفاء والصحة والعافية والسعادة. اعلم أن الصحة والمرض، والغنى والفقر، والألم والسعادة، كل ذلك سنن ربانية فى الكون للاختبار والابتلاء. قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ [سورة الأنبياء].

واعلم أن المرض والابتلاء ليسا دومًا عقوبة من الله للعبد على فعل المعاصى؛ بل قد يكون ابتلاء للإنسان لتكفير سيئاته ورفع درجاته. قال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى مِنْ مَرَضٍ، فَمَا سِوَاهُ إِلَّا حَطَّ اللَّهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ، كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا». وقال ﷺ: «مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِى نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»، وقال ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً، فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ». وفى الحديث: «لَا يُصِيبُ مُؤْمِنًا نَكْبَةٌ مِنْ شَوْكَةٍ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ، إِلَّا حُطَّتْ بِهِ عَنْهُ خَطِيئَةٌ، وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةٌ».

فالمرض نوع من الابتلاء، وقد ابتلى الله تعالى بعض الأنبياء به، وأنت تعلم أن الأنبياء معصومون ومرضهم لم يكن أبدًا عقوبة من الله لهم، فقد مرض سيدنا أيوب طويلًا ودعا الله تعالى فقال: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣)﴾ [الأنبياء].

فاصبر على الابتلاء، وارض بما قسمه الله لك بنفس راضية، وعليك بالتداوى بالحلال، فما جعل الله من داء إلا وجعل له دواء.

7
لماذا تأتينا كل الاختراعات الحديثة من البلاد الغربية ونحن لا نخترع شيئًا مثلهم؟

– الحضارات الإنسانية حلقات متصلة لا يمكن أن تقوم للاحق قائمة من غير الاعتماد على السابق، وقد أسهم علماء المسلمين عبر تاريخهم فى إنجازات علمية عديدة فى الفلك، والكيمياء، والرياضيات، والهندسة، والطب، وقد استفادت النهضة الأوروبية الحديثة استفادة بالغة بما قدمته الحضارة الإسلامية والعربية من إنجازات مادية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن العرب والمسلمين شركاء فاعلون فى النهضة الصناعية الحديثة وما نتج عنها من تطور هائل فى الاختراعات والتكنولوجيا، فالمئات إن لم يكن الآلاف من الباحثين المسلمين يعملون الآن فى أرقى المؤسسات البحثية فى العالم، والكثير منهم حصد العديد من الجوائز العلمية الكبيرة فى كل العلوم.

8
لماذا خلق الله الصرصار؟

– نشاهد ونرى فى حياتنا الكثير من الكائنات الحية، وقد نتعرض للأذى من بعضها لو اقتربنا منها، وبعضها تخيفنا ولا نقترب منها، وهنا نتساءل: ما فائدة هذه الكائنات؟ ولماذا خلقها الله؟

أولًا: الكثير من المخلوقات التى يُرى من ظاهرها أنها لا فائدة منها أو أنها ضارة أثبت العلم ما لها من منافع للإنسان أو البيئة، فالعلم يؤكد أهمية كل الكائنات فى الكون حتى ولو كان ظاهرها عدم النفع لما تحققه من التوازن البيولوجى والبيئى فى الكون، وقد شاهدنا الضرر الكبير الذى لحق بالبيئة عند القضاء على كائن حى يرى البعض ضرورة التخلص منه كليًا لعدم وجود جدوى منه وما ترتب على ذلك من اختلال التوازن البيئى، والتسبب فى انتشار كائنات حية أخرى على غير المعتاد، وإلحاق الأذى بالإنسان، وانتشار الأمراض والأوبئة.

ثانيًا: ضرب لنا القرآن الكريم مثلًا على تلك الكائنات التى يراها البعض ضارة لا نافعة كالذبابة، مبينًا ما فيها من قدرة الله على الخلق، ومتحديًا بها غيره، وإثبات عجزهم عن الخلق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

وبهذا يتبين بكل وضوح أنه سبحانه ما خلق أى شىء إلا لحكمة عرفناها أو لم نعرفها، وعلى الإنسان أن يتعايش مع مخلوقات الله، وأن يبتعد وأن يجتنب ما هو ضار منها أو يخيفه.

9
أبى مسلم وأمى أجنبية غير مسلمة. كيف أتعامل معها؟

– التعامل مع والدتك يكون بالبر والإحسان والتودد والصلة كما أمر الله تعالى فى كتابه بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤)﴾ [سورة الإسراء]، والآية الكريمة لم تفرق بين أم مسلمة أو كتابية فهذا واجب للأم عمومًا دون النظر لديانتها، فعليك بالبر والمساعدة والطاعة لأمك إلا فى حالة واحدة وهى لو أمرتك بمعصية الله، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾ [سورة لقمان].

10
يطلب منى أبى ارتداء النقاب بدءًا من العام المقبل لكنى لا أحب النقاب ولا أطيقه. فماذا أقول لأبى؟

– النقاب ليس فرضًا، وهو متروك لحرية المرأة إن شاءت أن تلبسه وإن لم ترغب فى لبسه فلا شىء عليها ولا تُجبر عليه، وإنما الفريضة التى أمر الله بها هى الحجاب أو الخمار وهو ما يغطى الرأس مع الرقبة والصدر ويظهر الوجه. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ (٣١)﴾ [سورة النور]، فالآية فيها أمر صريح بلبس الخمار، وعبَّر عنه تعالى بقوله: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ» زيادة فى التستر لما فيه من صون الأعراض، ولا يحتاج الأمر به بل تلبسه المرأة المسلمة من نفسها لأنه فرض عليها.

فإذا كان والدك يأمرك بالنقاب فتحدثى معه بالمنطق وبالأدلة من القرآن والسنة، وأن تظهرى له من نفسك الحشمة والوقار حتى يطمئن عليك حين ذهابك وإيابك، ويعلم أن ابنته ذات شخصية قوية تتمتع بالهدوء والرزانة، وصاحبة خلق ومبادئ، ولا يستطيع أحد أن يمسها بسوء، عند ذلك لن يأمرك بالنقاب لعلمه أنك فى غنى عنه بأدبك وحشمتك وتعاملاتك مع الغير بحدود، ومن الممكن أن يتواصل والدك مع مركز الفتوى بالأزهر ليوضح له كيفية المعاملة الصحيحة مع الأولاد حتى لا نشدد عليهم.

مَنْ ظَنَّ أنَّ طريقَ أربابِ العُلى ... قولٌ فجهلٌ حائلٌ وتعذرُ
إنَّ السبيلَ إلى الإلهِ عنايةٌ ... منه لِمَنْ قد شاءَهُ وتَعَزُّرُ

ابن عربى

اقرأ باسم ربك

تفسير سورة العلق بقلم زكى نجيب محمود

فى كتابه «الخصائص» يلفت «ابن جنى» أنظارنا إلى ما يسميه هو بالاشتقاق الكبير، وكتاب «الخصائص» مؤلف ضخم يقع فى ثلاثة مجلدات، يبحث فى خصائص اللغة العربية، وهو- كما ذكرت عنه فى مناسبة سابقة- أقرب شىء إلى ما نسميه اليوم بفلسفة اللغة، ولست أعرف فى تراثنا العربى كله، ما ينافس «الخصائص» فى موضوع بحثه، عمقًا، وإسهابًا، وأحسب أن علماء اللغة قبل ابن جنى، لم يعرفوا إلا ضربًا واحدًا من الاشتقاق، وهو ذلك الذى يتعقب الألفاظ التى يمكن أن تتولد من أصل لغوى واحد، فمن الأصل «كتب» تولد «كاتب»، «مكتوب»، و«كتاب»، و«كتيبة»... إلخ، أما الاشتقاق الكبير الذى يلفت ابن جنى أنظارنا إليه فشأنه شأن آخر، وخلاصته أن الأحرف الثلاثة التى يتركب منها الأصل الثلاثى، لتعطى معنى معينًا، يمكن أن نغير فى ترتيبها، فنحصل بذلك على كلمات أخرى، لكل منها معناها، لكنها جميعها لابَّد أن تكون ذات صلات ببعضها ببعضًا، لأنها تكون أشبه بأفراد الأسرة الواحدة، كل فرد منهم متميز بفرديته، لكن يظل الشبه الأسرى قائمًا بينهم جميعًا، ثم ضرب ابن جنى أمثلة يوضح بها ما زعمه عما أسماه بالاشتقاق الكبير.

وعلى طريق ابن جنى، وجدت نفسى مدفوعًا إلى إمعان النظر فى كلمة «اقرأ»، وذلك عندما أحسست فى لحظة من لحظات التأمل، بأنه لا بَّد أن تكون هناك أبعاد بعيدة الأعماق، لأن يكون أول الوحى الإسلامى هو هذا الأمر الإلهى «اقرأ»، وقد يكون هنالك من العلماء السابقين أو المعاصرين، من تقصَّى تلك الأبعاد، لكن ذلك- حتى إن وُجد- لا يمنعنى من متعة التفكير، بل من واجب التفكير، لأن عملية التفكير لمن يحسنها، واجب ومتعة معًا، فكانت أولى خطوات التفكير عندى، محاولة الإفادة بمبدأ ابن جنى فى الاشتقاق الكبير، لأن ذلك من شأنه أن يُصوب الأضواء على ما يمكن أن يكون وراء الكلمة من الأبعاد التى نبحث عنها.

فمن الأحرف التى تتكوَّن منها كلمة «قرأ»، يمكن استخراج كلمة «أرق» وكلمة «أقر»، فلننظر- إذن- إلى هذين اللفظين المستخرجين، ثم نعود بعد ذلك إلى الكلمة التى هى موضوعنا، وهى الأمر القرآنى «اقرأ» وكونه أول ما نزل به الوحى.

أبدأ بالأرق، وللأرق علاقة وثيقة وحميمة بالحياة، فالذى يتأرَّق هو الكائن الحى على وجه العموم، والإنسان على وجه الخصوص، فالمادة الموات لا تتأرق لشىء، الحجر لا يؤرقه أن تسفعه الريح العاتية سفعًا، ولا أن ماء المطر يغرقه، ولا إذا شاءت له حرارة الشمس أن يلتهب وتتفتت أجزاؤه، فليس له فى طبيعته إلا أن يتلقى ما يتلقاه، إنه ينفعل ولا يفعل.. ولا كذلك الكائن الحى على إطلاقه، فماذا تقول فى الإنسان؟ ولقد كنت وقعت ذات يوم على تعريف للحياة- أغلب ظنى أننى صادفته مرتين، إحداهما عند هربرت سبنسر، والثانية عند برتراند راسل- وخلاصة ذلك التعريف، هو أن الحياة إن هى إلا تعاقب مستمر بين حالتى التوتر والارتخاء فى الكائن الحى، وذلك أن الكيان الحى ذو حاجات عضوية، من غذاء وماء وغيرهما، فإذا أحس ذلك الكيان الحى بالحاجة إلى غذاء توترت أجهزته العضوية، حتى إذا ما سرى فيه الغذاء المطلوب، استراح واسترخى، وهكذا دواليك طالما كان الكائن حيًا، فإذا وجهنا أنظارنا إلى الإنسان، وجدنا تلك المراوحة لا تقتصر على الحاجات العضوية وحدها، بل تُضاف إليها فى هذا السبيل حاجات عقلية وحاجات وجدانية، أشد إلحاحًا عليه وأقسى، فانظر كم تتأزم نفس الإنسان إذا افتقد «الحرية» فلم يجدها، وإذا طلب «العلم» فسُدَّت أمامه الطرق، وفى كل حالة من حالات تأزمه لنقص فينا يشبع حاجاته العقلية والوجدانية، يتوتر كيانه كله، فلا يستريح إلا إذا أشبعت له حاجته الظامئة- وذلك هو الأرق الذى تتصف به كل حياة، وتتصف به حياة الإنسان بصفة أخص، وأدق، وأسمى.

ولم يَعُد الآن موضعًا لغرابة، إذا تناولنا اللفظ الثانى الذى استخرجناه من مادة «قرأ» وهو كلمة «أقر»، فقد رأينا فى الأرق أنه اضطراب يعقبه استقرار عندما تُشبع الحاجة، وهكذا تكون كلمة «أقر» فى معناه جزءًا من «أرق» ومعناها.

فإذا عدنا إلى «قرأ»، رأينا فى معناها ذلك العُمق الذى ظهر من النظر إلى شقيقتيها السالفتين، ففى فطرة الإنسان التى خلق عليها، حاجة حيوية لأن «يعرف» ما استطاع معرفته عما حوله، وعما فى نفسه، فتلك المعرفة عند الإنسان، ليست للزينة، أو للمفاخرة، بل هى لحياته كضرورة الهواء يتنفسه، والماء يشربه والطعام يأكله، فما لم «يعرف» الإنسان ما بدَّ من معرفته عن المكان الذى يسكنه وعن الزمان الذى يحيا فيه، لما استطاع العيش يومًا واحدًا، انظر إلى أهل الكهف حين استيقظوا، وسعوا فى المدينة وهم لا يعلمون أن الزمان قد تغير عما ألفوا، فتعذر عليهم التفاهم والتعامل، وإنه لمصير محتوم على كل إنسان يبتر الروابط عن ظروف مكانه وظروف زمانه، سواء أجاء هذا البتر بإرادته أم جاء مفروضًا عليه، فشرط الحياة للإنسان، حتى وهى فى أبسط درجاتها، هو أن «يعرف» ذلك الإنسان فى أىّ مكان هو، وبأى زمان يستظل، ثم تتدرَّج معرفة الإنسان لمكانه وزمانه، تدرجًا يتفاوت فيه الصعود بتفاوت الأفراد.

زكى نجيب محمود

على أن صلاحية المعرفة المكسوبة- وأعنى صلاحيتها كمًا وكيفًا- مسألة لا تُقاس بما يعرفه كل فرد على حدة، وإنما تُقاس بما تعرفه مجموعة الأفراد معًا فى شعب معين، إذ المطلوب ليس هو أن يعرف كل مواطن كل شىء، بل المطلوب هو أن يكون حاصل جمع ما يعرفه أبناء الشعب المعين، فيه ما يكفى لحياته كما يريد لنفسه أن يحيا.

هى فطرة الإنسان، التى لا تكلف فيها ولا تصنع، هى فطرته أن يكون على «معرفة» ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.. فإذا لم يشبع من فطرته تلك حاجتها من المعرفة «تأرقت» نفسه لذلك النقص الذى يحد من إنسانيته، بل يحد من قدرته على الحياة، وأما إذا أشبع تلك الحاجة «أقر» بذلك نوازع نفسه، ولكن ما وسيلته إلى تلك المعرفة التى هى من حياته بمثابة القلب والصميم؟ وسيلته إليها هى أن «يقرأ»، ومن هنا كان أول الوحى هو: «اقرأ».

القراءة أمرٌ إلهىٌ للإنسان، بل هى من الأوامر الإلهية أوَّلها نزولًا، فهل نخطئ إذا قلنا عن القراءة إنها عبادة؟ ولكن ما كل قراءة هى فى ذلك القبيل الأسمى، بل إن من القراءة ما يضل ويُفسد، إذن، فماذا تكون؟ وكيف تكون؟ إن الإجابة تتبدَّى فى صيغة الأمر الإلهى نفسه: «اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» و«اقرأ باسم ربك الذى خلق». فى كلتا الحالتين يأتى الأمر بالقراءة متبوعًا باسم الله، فليست القراءة الواجبة- إذن- هى قراءة الآلى، وإنما هى القراءة التى تفك بها الرموز، فيكشف عن الكنوز المكنونة من معرفة لما كتبه قلم يحمل علمًا كان مجهولًا للإنسان قبل قراءته «الحالة الأولى»، ومن معرفة لما خلقه الله، وذلك بدراسته ما وسع الإنسان أن يدرس ليعلم «الحالة الثانية».

هى قراءة مزدوجة، فرع منها يقرأ الكلمات، وفرع آخر يقرأ مخلوقات الله، والفرعان كلاهما يستهدفان هدفًا واحدًا، وهو، «المعرفة» بعد فك الرموز والكشف عما تعنيه، ولعل الأمر يزداد أمامنا وضوحًا إذا ذكرنا محاولة من أهم محاولات الفلاسفة المسلمين الأولين، وهى محاولة قد وفقوا فيها إلى حدٍّ بعيد، وأعنى محاولتهم أن يبينوا بأنَّ الحقائق التى نزل بها الوحى قرآنًا هى نفسها الحقائق التى يصل إليها العقل علمًا، وربما كان أمتع وأنفع ما نقرؤه فى هذا المجال، هو كتاب «حى بن يقظان» لابن طفيل، فهو «أمتع»، لأنه «أدب من حيث الشكل الروائى»، وهو «أنفع» لأنه وضع أمام قارئه إنسانًا نشأ وحده على جزيرة ليس فيها إلا نبات وحيوان وكائنات مادية كالأرض والماء والشمس، فلما نما جسمًا، ونضج عقلًا، استطاع من تأمل المخلوقات التى حوله، أن يستدل بعقله المحض على وجود الله، وطبائع الأشياء، وأريد للقارئ أن يتأمل الاسم الذى اختاره ابن طفيل لبطل روايته الفلسفية، إذا استخدمنا مصطلحات الأدب فى عصرنا، وأحب هنا أن أضيف حقيقة إملائية، وهى أن القارئ إذا ما رآنى قد كتبت «ابن طفيل» بحرف الألف فى «ابن»، فذلك هو الصواب، لأن الألف فى «ابن» لا تُحذف إلا إذا جاءت بين اسمين كقولنا: «عمر بن الخطاب»- أعود إلى سياق حديثى، فأقول إننى أريد للقارئ أن يتأمل اسم «حى بن يقظان»، ليرى كيف أحسن ابن طفل اختيار الاسم، لأنه إذا كان الإنسان المعزول وحده فى جزيرة منذ وُلد، قد استطاع بعقله أن «يقرأ» الكائنات من حوله، قراءة كشفت له عن الحق سبحانه، وعن حقائق الأشياء وطبائعها، فذلك لأنه لم يكن غافلًا ولا لاهيًا بما يسمع ويرى، أعنى لم يكن غافلًا أو لاهيًا عندما «قرأ» الذى قرأه فيما حوله، فذلك لأنه «حى» بكل معنى الحياة، ولأنه «يقظان» بكل وعيه وإدراكه.. فهذا الذى صنعه الفلاسفة المسلمون الأولون، حينما بيَّنوا التقاء ما نزل به الوحى، وما يدركه العقل باستدلالته وبراهينه، يوضح لنا ما قلناه عن القراءة بشعبتيها، وتلك هى القراءة العابدة، لأنها قراءة باحثَّة كاشفةً عارفة.

ومن هذا الذى قدَّمناه، تتولد نتيجة أراها ذات أهمية كبرى فى رؤيتنا الإسلامية من جهة، وفى تربية أبنائنا على تلك الرؤية من جهة أخرى، وأعنى بها النظرة التى ننظر بها إلى الحلال والحرام، اللذين هما جوهر الشريعة، فالحلال حلال لأن شريعة الله قد أحلَّته، والحرام حرام لأن شريعة الله قد حرمته، وهما بغير شك مطاعان عند المسلم لمجرد أنهما شريعة الله، وهناك علماء من أفضل العلماء، يرون أن طاعة المسلم فيما حلل له وما حرم، يجب أن تؤخذ بغير أن يسأل: لماذا كان الحلال حلالًا وكان الحرام حرامًا؟ والرأى عند كاتب هذه السطور هو- بكل التواضع الذى يقبل التصحيح بلا تردد إذا ظهر له أن فى الرأى خطأ هو لا يراه، أقول: إن الرأى عند كاتب هذه السطور هو أن الخير كل الخير أن نسأله: لماذا؟ وأن نحاول الجواب والبيان وهذا الرأى أبنيه على ازدواجية القراءة التى أسلفت ذكرها، فإذا كان الأمر هو كما بيَّنه الفلاسفة المسلمون الأوَّلون، أن العقل يمكنه بالاستدلالات الصحيحة من وقائع العالم كما تقع لنا، أن يستنتج الأحكام التى نزلت وحيًا، كان معنى ذلك هو أن الحلال والحرام هما النافع والضار فيما يدركه العقل، لو أنه تعقب حقائق الأشياء وطبائعها ونتائجها القريبة والبعيدة، فكل حلال إنما هو فى حقيقته الواقعية، شىء يُفيد فائدة مطلقة، لا يحتمل أن يشوبها ضرر مهما امتدَّ حبل النتائج التى تترتب عليه، وكل حرام هو شىء ضار، قد يظهر ضرره فور وقوعه، وقد يكون ضررًا كامنًا تظهر نتائجه بعد حين قصير أو طويل، وأعتقد أن بيان ما هو حلال وما هو حرام، لمن نربيه على الإسلام، يزداد عمقًا فى نفس المتعلم- وفى نفس المسلم عامة- إذا «عرف» بعقله لماذا حلل الحلال، وحرَّم الحرام، إن الأوامر والنهى لا يتبدل فيهما شىء، عندما ينتقلان من مرحلة القبول الذى لا يسأل عن الأسباب، إلى القبول ومعرفة أسبابه، ففى تربية الوالد الرشيد لولده، يأمره بأفعال وينهاه عن أفعال، لكنه يمسك عن ذكر الأسباب إذا رأى طفله أقل قدرة على إدراك تلك الأسباب، لكن كلما نما ولده وازداد قدرة، اتسع المجال أمام ذلك الولد، ليشرح لولده لماذا كان الأمر ولماذا كان النهى.

لكنه فى الوقت الذى لا يتغير فيه شىء من الحلال والحرام، بين أن يكون الإنسان على علم عقلى بالأسباب، أو لا يكون على شىء من ذلك العلم، فإن الفرق كبير فى الإنسان نفسه، بين أن يعلم تلك الأسباب وألا يكون على علم بها، فاستعداد الإنسان لقبول أحكام بغير علم بمبرراتها، قد يتسع مداه فى حياته الإدراكية- دون أن يشعر بذلك- من دائرة الطاعة الصامتة فى مجال الدين، إلى الطاعة الصامتة كذلك فى مجال العلاقات الاجتماعية، بما فى ذلك علاقة الحكومة بالشعب، وعندئذ قد يطغى من يطغى، دون أن يكون من حق المحكوم أن يسأل لماذا؟.. ثم قد يتسع المدى كذلك لينتقل الإنسان السلبى فى طاعته، من دائرة الأحكام الدينية، إلى دائرة الاعتقادات التى لا هى من أحكام الدين فتطاع بغير سؤال من العقل، ولا هى من المعرفة العلمية التى محَّصها العقل وأثبت صحتها قبل قبولها، وأعنى بتلك المجموعة الضخمة من الاعتقادات، التى لا هى من دين، ولا هى من علم، تلك «الخرافات» التى إذا شاعت ودامت مع الناس، رسخت فى نفوسهم كأنها حقائق لا موضع فيها لجدل أو سؤال، لا سيما إذا كانت الأغلبية الغالبة من الشعب قد حُرمت من الحد الأدنى من التعليم والتثقيف، ذلك الحد الأدنى الذى لا يسمح لصاحبه أن يقبل رأيًا، أو فكرة، أو حكمًا، أو صورة من صور السلوك، إلَّا إذا كان لها مُبرر معروف.

وارتفع بالمسألة المطروحة درجة، لأقول إن عقيدة المسلم هى أن الإسلام دين لكل زمان ولكل مكان، ومن الحكمة أن نُبين للناس ذلك الأساس الذى يُؤيد صدق عقيدة المسلم فى دينه، والأساس هو استناد الإسلام إلى «العقل» ليكون هو أداة الإدراك كلما أريد للفكرة المدركة أن يكون لها ثبوت وثبات، وليس الإسلام هو المسئول، إذا نشأت جماعة من المسلمين على تربية تبيح لهم أن يبيعوا عقولهم من أجل خرافة ووهم، فالحقيقة العقلية وحدها هى التى تستطيع بحكم طبيعة تكوينها- أن يدوم لها صدقها مهما تغير بها المكان أو الزمان، وإذا قلنا الحقيقة العقلية فقد قلنا الحقيقة العلمية، إذ لا فرق- فى الأساس- بين العبارتين، وهل يتأثر الصدق فى قولنا «إن الاثنين نصف الأربعة» مهما تغير المكان أو الزمان الذى تُقال فيه؟

من هنا يكون الفرق بين أن تذكر لى أسلوبًا معينًا من أساليب العيش، قائلًا لى إنه أسلوب جيد أو أسلوب ردىء، وبين أن تذكر لى فى الوقت نفسه «المبدأ» العقلى «أى التعليل» الكامن وراء ذلك الأسلوب من أساليب العيش، فيجعله حسنًا أو رديئًا، لأن المبادئ العقلية، أو قل: الحقائق العلمية هى وحدها التى لا يتغير من صدقها شىء برغم تحولات المكان والزمان، وفى هذه المناسبة أروى عن سقراط، وقد كان فى موقفه من تاريخ الفكر الإنسانى، ينقل المفاهيم العامة والمهمة فى حياة الناس، ينقلها من حالات الغموض والإبهام إلى حالة التحديد العلمى، ليتبين صدقها أو بطلانها، فلقد صادف سقراط شابًا فى ساحة المحكمة، وسأله عما جاء به إلى هناك، فقال له الشاب «وهو أوطيفرون»: جئت لأشكو أبى، لأنه قتل عبدًا فى المزرعة بغير حق، مما قد جاوز بالوالد حدود التقوى، فسأله سقراط، وما هى حدود التقوى؟ فأجابه الشاب بما معناه أنها هى الحدود التى جعلت أباه فى قتله للعبد على باطل وضلال، وجعلته هو فى رفع الأمر إلى القضاء، مع أن القاتل هو أبوه، على حق وهدى، فاعترض سقراط على تلك الإجابة، مبينًا للشاب أنه إنما يحدد معنى التقوى بسلوك معين فى موقف معين، مع أن التحديد لا تتوافر فيه الشروط العقلية- إلا إذا جاوزنا الموقف المعين، لنستخرج ما يكمن وراءه من «مبادئ»، لأن المبدأ هو الحقيقة العامة التى تتخطى جزئية السلوك الفردى فى مكانه المعين وزمانه المعين، ليشمل كل سلوك لأى فرد، فى أىَّ مكان، وفى أىِّ زمان.

وهذه النقطة هى عندى بيت القصيد، فلقد كان الإسلام آخر الرسالات الدينية لهذا السبب نفسه، وهو أن الإسلام قد أوكل المشكلات التى قد تنشأ فى حياة الناس، مما لا يكون قد ورد فيه حل قاطع، أوكلها إلى «العقل» الإنسانى، أى أنه أوكلها إلى «العلم»، فكل مشكلة مهمة تعترض حياتنا، هى بمثابة موضع يختص به علم معين، أو مجموعة علوم، إذ قد تكون من اختصاص علماء الطب أو علماء الاقتصاد أو علماء النفس والاجتماع، أو غير ذلك من سائر العلوم، حسب طبيعة المشكلة المطروحة، وما دام الأمر فى تدبير الحياة إذا ما أشكلت على الناس، قد أحيل «فى الإسلام» إلى عقل الإنسان وعلمه، ففيم تكون الرسالات الدينية بعد ذلك؟

إنها رؤية إسلامية، تنظر إلى الإسلام من ناحية إقراره لعقل الإنسان وأحكام ذلك العقل فى استدلالاته إذا ما التزم فيها منهج العلم، وهى رؤية أذكرها، لا لأضيف بها جديدًا من حيث الأساس، بل لأذكر بها من نسيها أو تناسها والذكرى تنفع المؤمنين.

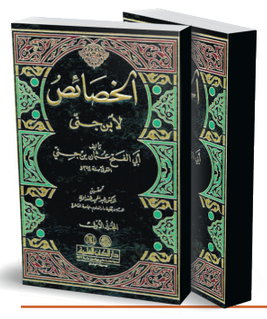

الحلال حلال لأن شريعة الله قد أحلَّته والحرام حرام لأن شريعة الله قد حرمته وهما بغير شك مطاعان عند المسلم لمجرد أنهما شريعة الله

ابن عربى

لا يُرتَضَى لحقيقةٍ ذى غِرةٍ ... إلا إذا ضمَّ السنابل بيدرُ
الحالُ يطلبُهُ بِشَرْطِ مقامِه ... فإذا ادّعاه فحالُهُ لكَ يُشهرُ

محمد عبده ملهم المجددين

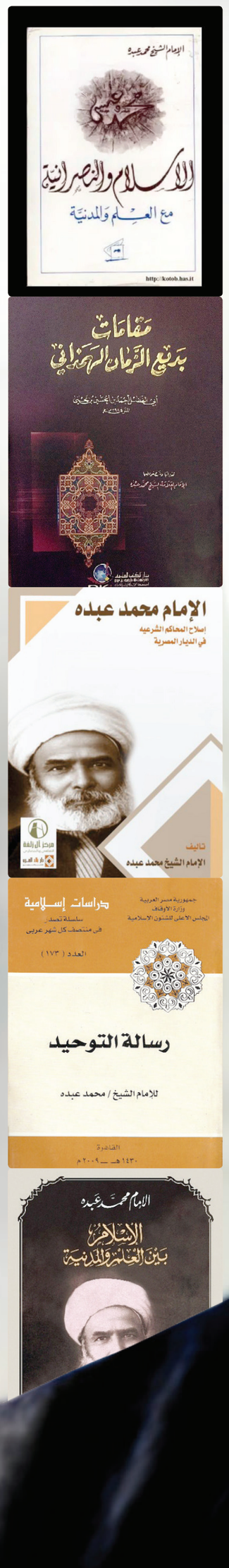

قراءة فى كتاب مجهول

عندما كنت أقلب فى أرشيف التجديد والمجددين، عثرت على كتاب «الإسلام والتجديد فى مصر» الذى صدر عن لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية فى العام 1935.

الكتاب ألفه الدكتور تشارلز آدمس، وترجمه عباس محمود، وقدم له شيخ الأزهر مصطفى عبدالرازق.

أهمية الكتاب تتبدى لنا من المقدمة التى كتبها مؤلفه، حيث يصفه بأنه القسم الأول من رسالة قدمها فى أغسطس 1928 إلى قسم الدراسات الخاصة بالعهد القديم فى جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة، للحصول على درجة الدكتوراه فى الفلسفة، وقد كتب له الظهور بفضل مدرسة الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بمصر التى اتصل بها بضع سنين، حيث قررت أن يكون حلقة من سلسلة الأبحاث الشرقية التى تصدرها.

القسم الثانى من الرسالة كان ترجمة إنجليزية لكتاب عن الخلافة، ألفه على عبدالرازق أحد الكتّاب المحدثين فى مصر، الآخذين من حرية الفكر بحظ أوفر من غيرهم، كما وصفه مؤلف الكتاب، ويقصد كتابه «الإسلام وأصول الحكم».

لكن هذا القسم لم يقدر له أن ينشر ضمن فصول كتاب «الإسلام والتجديد فى مصر»، كما يقول المؤلف لأسباب عديدة، فقد أخرج على عبدالرازق كتابه «الإسلام وأصول الحكم» فى العام 1925، وهو بحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام، فأثار معارضة شديدة عند ظهوره، وذلك لما تضمنه من الأفكار الحرة، وربما يكون السبب الأقرب إلى المنطق أن الكتاب منشور بالعربية، فلا داعى لإعادة نشره مترجمًا.

يركن المؤلف قليلًا إلى كتاب على عبدالرازق، ويتساءل: إلى أى أصل ترجع هذه الآراء الخارجة على القديم؟ وهل تمت بصلة ما إلى حركة الإصلاح الحديثة التى أنشأها الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية المتوفى عام 1905؟ أم هى أكثر اتصالًا بما ألفه العلماء الأوروبيون؟

كان سؤال «تشارلز آدمس» سببًا فى أن يبدأ كتابه ببحث يحاول فيه بيان نشأة حركة الإصلاح الحديثة فى مصر وتطورها، ويقدر مدى تأثيرها، ويميط اللثام عن الصلات التى قد تكون بين آراء الشيخ محمد عبده وبين آراء على عبدالرازق وآراء أقرانه من الكتاب المحدثين فى مصر.

يمنحنى هذا الكتاب الذى يكاد يكون مجهولًا تمامًا فى مصر بداية الخيط إلى الطريق الذى سنسلكه معًا، وهو البحث عن أصحاب العمائم الثائرة، وكيف كانوا بداية الخيط لكل تجديد جرى فى مصر بعد ذلك.

يتخيلُ المسكينُ أنَّ علومَهُم ما بينَ أوراقِ الكتابِ تُسَطَّرُ
هيهاتَ بل ما أودعوا فى كتبهم إلا يسيرًا من أمورٍ تَعْسُرُ

ابن عربى

محمد عبده

ملهم المجددين

محمد عبده

يشير الكتاب إلى أن هناك مدرسة حديثة للإصلاح فى مصر، هى المدرسة التى أسسها محمد عبده، ويهمنى منها أنها أثرت فى أجيال عديدة من بعده، وهؤلاء ليسوا من رجال المؤسسات الدينية الرسمية، ولكن من الكتاب والأدباء والروائيين والفلاسفة، لكن قبل أن نقرأ ما رصده «تشارلز آدمس» من أثر لمحمد عبده فيهم، قد يكون من المهم أن نتعرف على ملامح هذه المدرسة وإسهامات محمد عبده فيها، وهو ما يمدنا به هذا الكتاب المجهول بأكثر مما نتصور.

يذهب «تشارلز آدمس» إلى أن التجديد الإسلامى فى مصر اتخذ خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحت زعامة الشيخ محمد عبده صورة حركة معينة تسعى إلى تحرير الدين من أغلال الجمود، وتتجه إلى استكمال إصلاحات توفق بينه وبين مطالب الحياة العصرية المعقدة.

وهذه الحركة تختلف فى هذه الناحية عن حركة الإصلاح التى قام بها طائفة العقليين من مصلحى الهند الذين كان همهم الأول منصرفًا إلى الحركة الثقافية وإلى التوفيق بين الإسلام وبين مطالب المدنية الأوربية الحديثة، ومهما يكن من شىء، فقد توافقت الحركتان على أن الإسلام دين عام يناسب كل الناس ويلائم جميع العصور والثقافات.

ويرصد «تشارلز آدمس» الدافع الأول إلى حركة الإصلاح المصرى، الذى لم ينشأ— فى رأيه— من مصر نفسها، بل كان صدى لتعاليم السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان محمد عبده أحد شباب الطلاب المصريين الكثيرين الذين تأثروا تأثرًا عميقًا بآرائه، ولكنه كان أيضًا أكثرهم دلالة على القرابة الروحية والعقلية، لذلك المعلم الكبير، فقد خلد روح أستاذه ومثله الأعلى بمساهمته فى الحياة الساسية والاجتماعية والدينية فى بلده، وخلدها أكثر من هذا بإصلاحاته العملية القوية.

يتعامل «تشارلز آدمس» مع محمد عبده على أنه كان بالنسبة لمصر والإسلام نبى عهد جديد، ولم يخطئ— بالنسبة له— المؤرخون الذين وصفوه بأنه أحد مبدعى مصر الحديثة، ولا يجاوز هو الحق عندما يراه أحد مؤسسى الإسلام الحديث، وذلك لأن جهوده فى التوفيق بين أصول الإسلام وبين الآراء العلمية الغربية كان لها خطرها فى العالم الإسلامى أجمع.

يقترب مؤلف «الإسلام والتجديد فى مصر» من محمد عبده أكثر، فيضيف إلى ملامح صورته ملامح جديدة، ستفيدنا كثيرًا فيما نسعى إليه.

لقد ظلت نزعة الإصلاح التى ترعرعت فى مصر على يد محمد عبده قائمة حتى الآن- الكلام عن العام ١٩٣٥ وأعتقد أنها لا تزال- وأصبحت بادية الأثر فى كثير من النواحى، فأيده كثير ممن كانوا يميلون إلى حركته الإصلاحية، وواصلوا الدفاع عن تعاليمه بعد موته.

ويظهر أن أنصاره المجاهرين بالولاء له لم يكونوا من الكثرة أو من الشللية والانسجام، بحيث يستطيعون أن يكونوا مدرسة أو حزبًا إصلاحيًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ومع هذا فقد صادفت تعاليمه آذانًا واعية ولقيت عطفًا واسع المدى بين المستنيرين فى مصر وفى غيرها من البلاد الإسلامية، وقوى سلطانها فى كثير من البيئات وأصبحت ذات أثر فعال حتى فى الدوائر التى لم تكن موالية له.

كانت آراء محمد عبده خصيبة تتوالد وتتكاثر، وكانت روحه قوية شديدة التأثير، وقد أخذت تنبعث فى مصر خلال الربع الأول من القرن العشرين، أو قبل هذا بقليل، يقظة صادقة تجلت فى صورة نهضة عقلية وأدبية، وفى حركات اصلاح اجتماعى وفى تطورات سياسية كشفت عن نمو روح الوطنية.

ويختم «تشارلز آدمس» رأيه فى أثر محمد عبده بقوله: على أن آماله فى الإصلاح الشامل للدين لم تتحقق إلى المدى الذى كان يشتهيه ويتوقعه، وإن كانت بواعث الإصلاح ونزعات التحرير التى أطلقها من عقالها فعلت فعلها فى النواحى التى كان يرمى إليها، وما زالت تستكمل الكثير مما يمكن أن يعد جزءًا من مراميه.

لكن كيف أصبح محمد عبده هذا المصلح العظيم والمجدد الذى سرق النار من الجميع، بحيث لم يصبح رائد التجديد الأول، بل أصبح هو الأب الروحى له؟

الإجابة سنعتمد فيها على ما أورده «تشارلز آدمس» فى كتابه.

فقد استهل محمد عبده حياته بالتصوف الممزوج بالفلسفة والتوحيد، واشتغل كذلك بالمسائل التى طالما شغلت بال الحكماء، وإن كان أكثرهم منهم عناية وعلمًا بمسائل العلم الحديث، ولو أنه واصل هذه الحياة دون أن يزعجه شىء، لاستطاع أن ينشئ مدرسة فلسفية جديدة، ربما نجحت فى التوسط بين تفكير القرون الغابرة وبين التفكير الحديث، ولكن الحياة العامة جذبته، فألقى بنفسه فى أحضانها، واشتغل بكثير من الأعمال، فقل فراغه للدرس والتحصيل.

ويبدو من سيرة حياته أن مؤلفاته وتعاليمه سارت جنبًا إلى جنب مع جهوده العامة، وأثر كل منهما فى الآخر، أو على وجه أصح تأثر كل منهما بالغرض الأسمى الذى جعله نصب عينيه، وهو إصلاح الإسلام وإمداده بالقوة والحياة، وإعادة الشعوب الإسلامية إلى ما كانت عليه من عزة ومجد.

لم تكن مشكلة الإصلاح كما تمثلت أمام محمد عبده أمرًا هينًا، وذلك لأن المسلمين كانوا فى تأخر شديد.

فمن الناحية السياسية كان أكثرهم تحت سلطان دول تخالفهم فى الدين، ومن نجا منهم فى الخضوع للحكم الأجنبى المباشر، لم يكن ينجو من النفوذ الأجنبى، فلم يكن بد إذن من بعض روح هذه الأمم المتأخرة، وإحلال التآلف بينها، ونظمها فى وحدة واحدة، حتى تشعر بما يجمعها من الأخوة فى الدين والاشتراك فيما خلفه من تراث.

ومن ناحية ثانية كانت حياة المسلمين الاجتماعية والخلقية والفكرية فى حال تثير الأسى، وتبعث فى النفس الألم، كان فيهم كثير من العيوب والعلل، وقد أصبحوا عبيدًا للكثير من العادات المشينة التى لا تمت إلى الإسلام بصلة ما، وإنما هى وليدة الجهل بالإسلام الصحيح، وعجز المسلمين على اتباع ما عرفوه من أحكامه.

كان الشيخ محمد عبده يرى أن علاج هذه العلل الكثيرة هو الرجوع إلى الإسلام الصحيح.

وكان السؤال الذى كان مهمًا أن يجيب عنه هو: وما هو الإسلام الصحيح؟

أدرك محمد عبده أن المسلمين انقسموا شيعًا، تزعم كل شيعة منها أنها وحدها على الحق، وأحس فوق هذا بأن الإسلام كما فقهه الفقهاء، قد أصبح من التشعب والاتساع بحيث يصعب على أى إنسان، وبخاصة إذا لم يكن له حظ من التعليم أن يعرف تمامًا ما هو الإسلام.

وإذا كان الأمر كذلك، فقد أصبح الرجاء الوحيد فى إحياء الإسلام معقودًا باستعادة أصول هذا الدين، أى أصول العقائد التى بغيرها لا يكون المسلم مسلمًا، وهذا هو الإسلام الصحيح الذى يعترف به الجميع وتتفق كلمتهم عليه.

وحتى يتحقق ذلك كان لا بد من إذكاء يقظة فكرية بنشر التعليم بين العامة، وبالاشتغال بالدراسة العلمية الحديثة لتستطيع الأمم الإسلامية مباراة غيرها من الأمم، وليس فى روح المدنية الحديثة، أو فى ثمرات العلم الحديث، ما يناقض الإسلام الصحيح إذا أحسن فهمه، وأحسن بيانه، وإن ضرورة تصوير الإسلام على صورة تتجانس مع العلم الحديث، تستلزم أيضًا استعادة ما فى الإسلام من أصول جوهرية وليس ما كان منه مقصورًا بطبيعته على زمن ما أو مكان ما.

كانت الحاجة ماسة على وجه خاص لإعادة النظر فى نظام الشريعة، وهى جزء مهم من الإسلام، حتى يثبت عمليًا أنها أداة صالحة للحكم فى الظروف الجديدة.

وعلى هذا لم يكن الأمر مجرد تخفيف أو تسكين للمفاسد التى كانت فاشية، بإدخال إصلاحات ظاهرية كما يفعل بعض المصلحين، ولم يكن أيضًا مجرد صوغ للفلسفة والتوحيد فى صورة جديدة، على نحو ما فعلت المذاهب، إنما كان الأمر أعظم من هذا خطرًا، وأكثر صعوبة، فهو من ناحية إصلاح للدين ورجوع به إلى بساطته الأولى وتأثيره الفعال، وهو من ناحية أخرى حمل جماهير الناس على قبول الدين الخاص، واتباع أحكامه فى حماس وإخلاص.

كان الأمر إذن إحياء الإسلام فى قوة جديدة، حتى يمكن بذلك أن ينجو المسلمون من حالتهم السيئة، وأن يعود إليهم مجدهم الغابر.

ولكن بأى الوسائل يمكن تحقيق هذا الإصلاح؟

– طبقًا لما كا يراه محمد عبده فإن الإصلاح لا يمكن له أن يتحقق إلا بالوسيلة الوحيدة التى يرجى نجاحها، وهى إحياء العاطفة الدينية فى كل قطر إسلامى.

استعرض محمد عبده أمامه جهود المستنيرين فى إيران والهند وبلاد العرب ومصر، وخلص إلى أنه يمكن أن يقال أن الغرض الذى يرمى إليه جميعهم، إنما هو تصحيح الاعتقاد وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ فى فهم نصوص الدين، حتى إذا سلمت العقائد من البدع، تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستضاءت بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية، وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة، وسرى الصلاح منهم إلى الأمة.

ويضيف إلى خلاصته قوله: فإذا سمعت داعيًا يدعو إلى العلم بالدين، فهذا مقصده، أو مناديًا يحث على التربية الدينية، فهذا غرضه، أو صائحًا ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد، فتلك غايته، وهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شىء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا، وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة به ما بيناه، وهو حاضر لديهم، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟

من بين الأسس المهمة التى استند عليها محمد عبده فى تأسيس مدرسته لإصلاح ما استقر بين يديه من إسلام، كان إعلاء قيمة وشأن العقل.

فى كتابه « رسالة التوحيد»، يقول: الإسلام دين يعتمد على العقل قبل كل شىء، وقد رفع القرآن من شأن العقل ووضعه فى مكانه بحيث ينتهى إليه أمر السعادة، والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع».

وفى كتابه «الإسلام والنصرانية» يشهد بأن الإسلام يقرر أن الإنسان قادر على الوصول إلى معرفة الله بالعقل، ولذلك فلم يكن غريبًا أن يستند فى دعوته للاعتقاد بوجود الله ووحدانيته إلى استنهاض العقل البشرى.

يقول محمد عبده: توجيه العقل إلى النظر فى الكون، واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات، ليصل بذلك إلى أن للكون صانعًا واجب الوجود، عالمًا حكيمًا قادرًا على كل شىء، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الأكوان، وأطلق للعقل البشرى أن يجرى فى سبيله الذى سنته له الفطرة، واستنهضه للنظر فى الخلق والتأمل فيما فى الكون من آيات تدل على قوة الله وحكمته، وأن يتدبر فيها ليصل إلى معرفة الله.

يخطو محمد عبده خطوة أوسع، عندما يقدم العقل على النقل عند التعارض بينهما، ومع ما نجده فى قوله: اتفق أهل الملة إلا قليلا ممن لا ينظر إليه، على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أخذ بما دل عليه العقل، وبقى فى النقل طريقان، طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر لله، وطريق تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

كان طبيعيًا أن يسلك محمد عبده بعد أن استقر على هذا الرأى- تقديم العقل على النقل- سبيلًا غير السبيل التى سلكها المسلمون منذ قرون عديدة، أى القول بالتقليد والأخذ برواية السلف فى قبول العقائد من غير مناقشة أو اعتراض.

فعل محمد عبده هذا وهو يعترف بأنه كان طبيعيًا أن يأخذ عامة الناس بالتقليد، لأنهم لا يستطيعون فهم العقائد عن طريق العقل، وهو ما فعله العلماء أيضًا عندما سلكوا نفس السبيل فى أمور الدين وفى مسائل العلم.

لم يستسلم محمد عبده إلى هذه الروح بل تمرد عليها، وبدأ يناهضها، ويقاومها مقاومة تامة، وربما يدلل لنا على سلوكه هذا بما قاله إن الإسلام جهر بان الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام، أعلام الكون ودلائل الحوادث، وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طريق البحث هادون.

سرب محمد عبده رؤيته هذه وهو يفسر القرآن إلى الكريم.

تعرفون الآية الكريمة «كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون».

لكن هل تعرفون ماذا قال محمد عبده فى تفسيرها؟

يقول: وأين أهل التقليد من هدى القرآن؟ هو يذكر لنا الأحكام بأسلوب يعدنا للعقل، ويجعلنا من أهل البصيرة، وينهانا عن التقليد الأعمى، وهم يأمروننا بأن نخر على كلامهم وكلام أمثالهم صمًا وعميانًا، ومن حاول منا الاهتداء بالكتاب العزيز، وما بينه من السنة المتبعة أقاموا عليه النكير، ولعله لا يسلم من التبديع والتكفير، يزعمون أنهم بهذا يحافظون على الدين، وما أضاع الدين إلا هذا، فإن بقينا على هذه التقاليد، لا يبقى على هذا الدين أحد، فإننا نرى الناس يتسللون لواذًا، وإذا رجعنا إلى العقل الذى هدانا الله إليه فى هذه الآية وأمثالها، رجا لنا أن نحيى ديننا، فيكون دين العقل وهو مرجع الأمم أجمعين.

ويدل محمد عبده من لم يفطن إلى مقصده على الطريق من زاوية أوضح، عندما يقول: الإسلام أطلق سلطان العقل من كل ما كان قيده، وخلصه من كل تقليد كان استعبده، ورده إلى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته،

مصطفى عبدالرازق

التجديد الإسلامى تحت زعامة الشيخ محمد عبده سعى إلى تحرير الدين من أغلال الجمود

جمال الدين الأفغانى

استهل محمد عبده حياته بالتصوف الممزوج بالفلسفة والتوحيد واشتغل كذلك بالمسائل التى طالما شغلت بال الحكماء

لا يقرأُ الأقوام غيرَ نفوسِهم ... فى حالهم مع رَبِّهِمْ، هل تَحْضَرُ
فترى الدخيلَ يقيسُ فيه برأيِهِ ... ليقالَ هذا منهمو فيُكبرُ

ابن عربى

يقول الإمام محمد عبده: التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين

إن الإسلام صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين

مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته، ولا حد للعمل فى منطقة حدودها، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها.

ويدخل محمد عبده المعركة من بابها الواضح الصريح، عندما يحمل على دعاة التقليد ورافعى رايته، يقول عنهم: إن قلوب الجمهور من الخاصة قد التاثت بمرض التقليد، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقًا لما يعتقدون، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته، وإن أدى إلى جحد العقل برمته، فأكثرهم يعتقد فيستدل، وقلما نجد من يستدل فيعتقد.

وحتى يثبت محمد عبده أركان دعوته، نراه يستخدم فى سبيل ذلك كل آية من آى القرآن تؤيد حرية الفكر ولا يغفل عن انتهاز الفرصة للزراية بمن يقاومون ذلك.

هل أدلكم على ما قاله فى تفسير الآية الكريمة «ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمى فهم لا يعقلون»؟

يقول الإمام محمد عبده: الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين، وأن المرء لا يكون مؤمنًا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به، فمن ربى على التسليم بغير عقل، والعمل ولو صالحًا بغير فقه، فهو غير مؤمن، لأنه ليس القصد من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان، بل القصد منه أن يرتقى عقله ونفسه بالعلم والعرفان، فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى به، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته، ويكون فوق هذا على بصيرة وعقل فى اعتقاده، فلا يأخذه بالتسليم لأجل آبائه وأجداده، ولذلك وصف الله الكافرين بعد تقرير المثل بقوله «صم» لا يسمعون الحق سماع تدبر وفهم، و«بكم» لا ينطقون به عن اعتقاد وعلم، و«عمى» لا ينظرون فى آيات الله، وفى أنفسهم فهم لا يعقلون.

الفكرة التى أعتبرها الأهم فى مشروع محمد عبده الإصلاحى، هى الفكرة التى لخصها بمطالبته بـ«نصيب متساو من فضل الله لجميع القرون».

تحتاج الفكرة إلى مزيد من التفسير... أعرف ذلك.

كان محمد عبده يعرف أن الأصل الذى أقام عليه دعاة التقليد دعواهم واحترام السابقين فى الإسلام، وهم يزعمون أنهم وحدهم القادرون على تفسير الدين، ولهذا أنكروا على الأجيال اللاحقة حق الاجتهاد، أى البحث المستقل لتكوين رأى خاص فى أى أمر من أمور الدين.

دعم محمد عبده حق الجيل الحاضر- وكل جيل حاضر- فى الاجتهاد.

اسمعه وهو يقول: إن الإسلام صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الأبناء، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا سيما لعقول على عقول، ولا لأذهان على أذهان، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان، بل للأحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وأبنائه.

ولأن الإمام محمد عبده كان متسقًا مع نفسه، فقد قال ما يمكننا اعتباره دليلًا على أنه لا يخدعنا ولا يخدع نفسه، فهو لا يمارس وصاية بما يقوله على الآخرين.

كان محمد عبده يكتب رسالة إلى علماء تونس، وختمها بقول: أقول قولى هذا ولا أريد إلزام سامعه بقبول وإلا خالفت ما أدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأى، على أنى لا أظن أن فى السامعين من يلتزم به لو طلبت إلزامه، ولكنه رأى أعرضه على مسامعهم فإن وجده السامع صوابًا، أخذ به، وإلا فإنه لم يخش شيئًا سوى احتماله مشقة الحر فى هذا المجلس، وهو قدر مشترك بينى وبينه.

كان طبيعيًا ومحمد عبده يأخذ هذا الموقف من العلم أن يتطلع إلى العمل على نشر جميع العلوم بين المسلمين لأنه كان يقدر أن العقل إذا استخدم فى درس ظواهر الطبيعة، أفضى هذا من ناحية إلى معرفة الله وفى ذلك منافع دينية، ومن ناحية أخرى إلى كشف أسرار الطبيعة وما يستتبع هذا الكشف من المنافع العلمية الكثيرة.

تحتشد أقوال محمد عبده فى شأن العلم.

فهو يقول: إن رسالة النبى اشتملت على دعوة الناس إلى العلم بأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان، وسلطهم على فهمها، والانتفاع بها، بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة.

ويقول: إن القرآن يذكر مثل هذا، فى أصل الكون والخلق، وهو إطلاق العقل ليجرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان، والقرآن لا يقيد العقل، وهو فى كثير من آياته يدعو الإنسان إلى النظر فى آيات الكون، ولو أردت سرد جميعها، لأتيت بأكثر من نصفه.

ويقول: لا تعارض بين الدين والعلم، لأن كلًا منهما يعتمد على العقل، ويدرس إلى حد ما نفس الظواهر، ولكن لكل منهما غاية خاصة يتجه إليها.

ويقول: ولما كان القرآن قد حث على درس ما فى الكون الطبيعى من آثار، دون أن يجعل لهذا حدًا، فلا بد وأن يكون الدين صديقًا للعلم، من أجل هذا يقرر الشيخ محمد عبده أن الدين من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه، وتقلل من خلطه وخبطه، وأنه على هذا الوجه، يعد صديقًا للعلم، باعثًا على البحث فى أسرار الكون، داعيًا إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالبًا بالتعويل عليها فى آداب النفس وإصلاح العمل.

ويقول: قد وعد الله بأن يتم نوره، ولن ينقضى العالم حتى يتم ذلك الوعد، ويأخذ الدين بيد العلم، ويتعاونان معًا على تقويم العقل والوجدان.

وفى إحدى مقالاته بجريدة الأهرام يقول: إننا لا نجد سببًا لرقيهم- أمم الغرب- فى الثروة والقوة، إلا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم، فأول واجب علينا هو السعى بكل جهد واجتهاد فى نشر هذه العلوم فى أوطاننا.

وتحت عنوان «الإسلام الصحيح» يبحث «تشارلز آدمس» عن ملامح تصور محمد عبده لما يرى أنه كذلك، فينقل عنه ما قاله فى إحدى مناظراته: عند النظر فى أى دين للحكم له أو عليه فى قضية من القضايا، يجب أن يؤخذ ممحصًا مما عرض عليه من بعض أهله، أو محدثاتهم التى ربما تكون جاءتهم من دين آخر، فإذا أريد أن يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين فى بيان بعض أصوله، فليؤخذ فى ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين، ومن تلقوه على سذاجته التى ورد بها من صاحب الدين نفسه.

وقد سلك الشيخ محمد عبده هذا المسلك فى كلامه عن النصرانية فى كتاب «الإسلام والنصرانية»، وأخذ به أيضًا عندما حدد أصول الإسلام التى يجب الرجوع إليها، وعندما دعا إلى الكثير مما يعد الآن من الإسلام، وهو فى الواقع دخيل عليه مناقض لروحه.

وإذا رجعنا إلى المقاصد التى رمى إليها الشيخ محمد عبده نجده يقول: ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين، الأول تحرير الفكر من قيود التقليد، والثانى فهم الدين على طريق سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى.

وهنا من المهم أن نتوقف عند ما قاله محمد عبده من أن الأركان الضرورية فى الإسلام هى العلم بما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل.

والأهم بالطبع هو ما قاله فى تفسير مقصده.

ما رأيكم أن تسمعوا ما قاله محمد عبده فى الآية الكريمة «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول».

فسر محمد عبده هذه الآية تفسيرًا يتوافق مع العصر الحاضر.

يقول: إطاعة الله هى الأخذ بكتابه كله، وفيه ما رأيت من النهى عن الاختلاف والتفرق فى الدين، وإطاعة رسوله بعد وفاته هى الأخذ بسنته، والأمور الاعتقادية والتعبدية يجب إرجاعها إلى هذين المصدرين، أو بعبارة أخرى ينبغى إرجاعها إلى ما كان عليه السلف الصالح بلا زيادة ولا نقصان.

أما أولو الأمر- كما يقول عبده- الذين جاء ذكرهم فى الآية فهم أهل الرأى والبصيرة، وهم الذين يسمون فى عُرف الإسلام أهل الشورى، وأهل الحل والعقد، وهم العلماء وأرباب الرياسة الذين يسمون عند الأمم الأخرى بنواب الأمة، ويجب أن ترد إلى هؤلاء جميع الأمور القضائية والإدارية والسياسية، بما فى ذلك إعادة النظر فى الشريعة التى يقيمونها على القواعد الشرعية فى حفظ المصالح ودرء المفاسد، بحسب حال الزمان والمكان.

ويقول محمد عبده: ولو أخذنا بهذا المبدأ الذى يقضى بالرجوع إلى الإسلام فى أبسط صوره وأهم أركانه، لوجدنا أساسًا يربط المسلمين جميعًا، وتتفق عليه كلمتهم ويصبح دين الناس كافة، ويظهر من هذا أن ما فى الإسلام الآن من الأحكام الخاصة بالطلاق، وتعدد الزوجات والرق، وأشباه ذلك من المسائل ليست من أصول الدين، وأنه يمكن تعديلها وفق ما تقتضى به الظروف.

ولمحمد عبده رؤية مهمة أعتقد أنه من الضرورى توثيقها هنا.

يقول: عندما تظهر طبيعة الإسلام الحقيقية باعتباره آخر صورة لدين الله الحق، وهو دين واحد فى الأولين والآخرين، لا تختلف إلا صوره ومظاهره، أما روحه وحقيقة ما طولب به العالمون أجمعون على ألسن الأنبياء والمرسلين فهو لا يتغير، فالإسلام آخر صورة لهذا الدين الحق.

«جاءت المسيحية فى دور أسبق من أدوار تطور البشر، فوجهت كل همها إلى إذكاء عاطفة الإنسان، وقالت بالزهد والتجرد من الدنيا وغير ذلك مما ينافى طبيعة الناس، فأنكر المسيحيون ذلك أو عدلوه ليتفق مع رغباتهم وحاجاتهم، ولكن عندما كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالإنسان أشده، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده، جاء الإسلام يخاطب العقل، ويستصرخ الفهم واللب، ويشركه مع العواطف والإحساس».

«وتبدو اليهودية والنصرانية والإسلام فى بعض النواحى، كأنها أغصان تفرعت عن دوحة واحدة هى الدين الحق، وإن تفرع هذه الأغصان لا يضر بوحدة نوعها، على أننا إذا أمعنا النظر فى الإسلام، ألفينا فيه أصول هذه الأديان جميعًا، فهو لهذا أفضل ما يعد الروح الإنسانية إلى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الإيمان، وبهذا كانت وظيفته العليا هى جمع الناس تحت لواء الدين الواحد الحق».

فى الفصل العاشر والأخير من كتاب «الإسلام والتجديد فى مصر» يمهد لنا «تشارلز آدمس» الأرض لنرصد أثر الإمام محمد عبده فى الأجيال التى تلته من المجددين.

يقول «آدمس» هناك طائفة من الكتاب والعلماء فى مصر فى عصرنا الحاضر يظهرون نشاطًا أدبيًا فائقًا فى نزوعهم إلى التجديد والتقدم قد يصل أحيانًا إلى التطرف فى الحرية، ومن الطبيعى أن نفصح عن مبلغ تأثر هؤلاء الكتاب بتعاليم الشيخ محمد عبده.

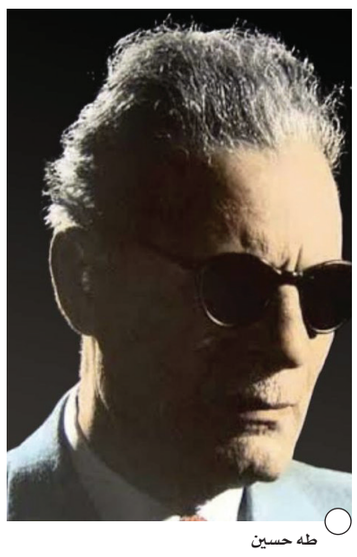

طه حسين

لا تعارض بين الدين والعلم لأن كلًا منهما يعتمد على العقل ويدرس إلى حد ما نفس الظواهر

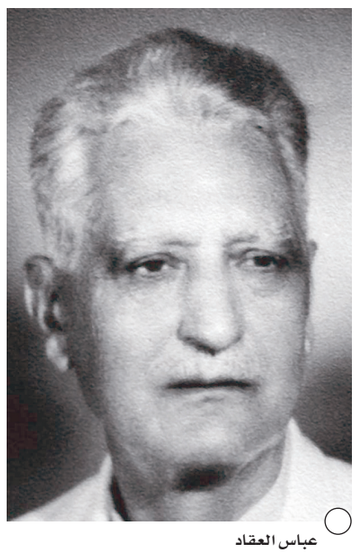

عباس العقاد

القرآن يدعو إلى إطلاق العقل ليجرى شوطه الذى قدر له فى طريق الوصول إلى ما كانت عليه الأكوان

وأول ما يبدو هنا من الحقائق التى لا تقبل المناقشة والجدل هو أن الشيخ محمد عبده توفى فى العام ١٩٠٥ حينما كان أكثر هؤلاء الكتاب فى سن الشباب، وفى أوائل عهدهم بالدرس والتحصيل، فلم يكن من الميسور أن تنشأ بينهم وبينه صلات شخصية طويلة العهد، ولا أن يكون أثره المباشر قد ذهب فى نفوسهم إلى غور بعيد.

ولا يخالجنا شك- والكلام لتشارلز آدمس- فى أن بعض هؤلاء الكتاب، إن لم يكونوا جميعًا، إذا كان فاتهم أثر الإمام المباشر، فقد تأثرت بآرائه أرواحهم ونزعاتهم إزاء المشكلات الحديثة، وغايتنا هى أن نكشف عن مدى أثر الشيخ محمد عبده فى بعض هؤلاء الكتاب إذا كان هذا ميسورًا.

ويضيف آدمس: ولو كان غايتنا أن نتقصى الكلام فى الأدب المصرى الحديث لوجب أن نذكرهم جميعًا، ولكننا قصرنا بحثنا على ناحية محدودة معينة، ولهذا رأينا أن نتخير ثلاثة من أهم الكتاب المحدثين، وهم فى الوقت نفسه يمثلون هؤلاء الكتاب تمثيلًا كافيًا، وهؤلاء هم: مصطفى عبدالرازق أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية، وطه حسين أستاذ الأدب العربى فيها إلى عهد قريب، وعلى عبدالرازق وهو أخو مصطفى وكان قاضيًا فى المحاكم الشرعية.

ويكمل آدمس الصورة بقوله: وممن يجب أن تذكر أسماؤهم محمد حسين هيكل محرر السياسة، وهو دكتور فى الاقتصاد السياسى من جامعة باريس، وقد لاحظنا من قبل أن صلته بالجريدة كانت تدل على ميل إلى الآراء الجديدة التى كان يذيعها أحمد لطفى السيد وشيعته، وكانت تتصل بالأدب والوطنية أكثر من اتصالها بالدين، وقد ظل هيكل يواصل العطف على هذه الآراء فى جريدة السفور التى خلفت الجريدة وفى صحيفته السياسة.

ويجزم آدمس بأن هيكل لم يستمد آراءه من تعاليم الشيخ محمد عبده مباشرة، غير أنه ليس بعيدًا كل البعد عن العطف على بعض وجوه الحركة، وبخاصة تلك الناحية التى عنى بها قاسم أمين الذى كان يعجب به هيكل أيما إعجاب، لهذا نجده مثلًا عند بيانه كيف انتهى إلى تأليف الكتاب الذى سماه «تراجم مصرية وغربية»، وبعد هذا الكلام على أهم الشخصيات البارزة فى تاريخ مصر الحديث، يقول إنه عنى بقراءة كتب قاسم أمين وكل ما كتب عنه منذ كان طالبًا يدرس الحقوق فى مصر، فتكونت فى نفسه فكرة يحسبها هيكل دقيقة غاية الدقة.

أما تأثير محمد عبده المباشر فيما يتعلق بعباس محمود العقاد وإبراهيم عبدالقادر المازنى، فربما كان أبعد احتمالًا من تأثيره فيما يتعلق بهيكل، لقلة الصلة الشخصية وروابط المعرفة بينهما وبين جماعة الشيخ عبده، وقد كان العقاد صديقًا لسعد باشا زغلول، ولكن فى السنوات الأخيرة التى أصبح للسياسة المكان الأول فى تاريخ سعد.

أما المازنى فيقول إنه رأى محمد عبده فى مناسبتين.. كانت أولاهما عندما كان صبيًا فى العاشرة من عمره، أرسله أخوه الأكبر إلى بيت الشيخ محمد عبده ليرجو إليه مساعدة لهذا الأخ، فاستقبله الشيخ عبده فى حنو وعطف، مع أنه كان حينذاك محاطًا بعظماء الزائرين ووسط صديقه الشيخ أبا خطوة فى إجابة طلبه.

ابن عربى

وتناقضتْ أقوالُهُ إذ لم يَكُنْ عنْ حالِهِ فيما تَقَدَّمَ يُخْبِرُ
عِلْمُ الطريقةِ لا يُنال براحةٍ ومَقايس فاجتهدْ لَعَلَّك تَظْفَرُ

محمد عبده

ملهم المجددين

أما الدكتور منصور فهمى، أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية فربما كان أشد قربًا إلى روح محمد عبده من هؤلاء جميعًا، وقد قضى الدكتور منصور خمس سنوات فى فرنسا فى جامعة السوربون، ونال فى نهاية هذه المدة درجة الدكتوراه بعد أن قدم رسالة عن «المرأة فى الإسلام»، وقد سببت له رسالته هذه كثيرًا من المتاعب بعد عودته إلى وطنه، وهاجت ثائرة الناس عليه، واشتدت المعارضة له حتى انتهى الأمر بالحيلولة بينه وبين منصبه فى الجامعة سنوات عدة.

وفى سنة ١٩٢٢ كان الدكتور منصور من خطباء الحفلة التى أقيمت لإحياء ذكرى الشيخ محمد عبده، فأثنى ثناءً مستطابًا على ما كان للشيخ عبده من خلق عظيم، وعلى استقلال رأيه ومثله فى التربية والتعليم، ثم روى أنه رأى الأستاذ مرة واحدة، فقد كان صبيًا فى أيام دراسته الأولى عندما رأى الرجل العظيم الذى سمع عنه كثيرًا يمر بجانبه.

وفى سنة ١٩٣٠ أصدر الدكتور منصور مجموعة مقالاته التى سماها «خطرات نفس» وهى تكشف عن خلق ورقى ورعاية للدين، وتهكم بالمحافظة الجامدة، واحترام لحرية الفكر، ولأن يكون لكل فرد الحق فى استخدام مواهبه العقلية، وهذا يذكرنا بالكثير من جيد ما كتب الشيخ عبده نفسه، لما بينهما من تشابه فى النظر إلى الأمور أكثر من التشابه فى صوغ العبارة أو إبراز الفكرة.

على أن الدكتور منصور له كثير من الآراء التى لا تكاد تتفق مع آراء الشيخ عبده، كاحترامه التقدير الفنى الذى يحركه التأمل فى الجمال الإنسانى، احترامًا يكاد يكون روحانيًا ويؤدى إلى الشعور بالعبادة والتقديس للمصور الأكبر.

ويصور خطاباته إلى الفتيات المبعوثات، وكن على وشك مبارحة البلاد للتعلم فى الخارج، محافظته على القيم ونزوعه إلى التجديد فى وقت واحد، وذلك عندما يقول: إن الأوراد التى قرأها لكل الأمهات قبل أن تبرحن أرض مصر ستصرخ فى آذانكن من قوم لهم ماض وتقاليد، وأن للماضى عليكن أن تطورنه ولكن لا تحقرنه.

نأتى إلى الثلاثى الذى اهتم «تشارلز آدمس» بتلمس أثر الإمام محمد عبده عليهم.

الأول هو مصطفى عبدالرازق، الذى يقول عنه «آدمس»: لا يخالجنا شك فى علاقته بالشيخ محمد عبده، وهى تمتاز عن صلات الكتاب الذين تكلمنا عنهم بالوضوح والتعيين، فهو وأخوه على أبنا حسن عبدالرازق باشا الذى كان صديقًا حميمًا للأستاذ الإمام ونصيرًا له فى مجلس شورى القوانين ورئيسًا لحزب الأمة فى ١٩٠٧، ومصطفى وعلى كلاهما من تلاميذ الإمام فى الجامع الأزهر، وعهد أولهما به أقدم، لأنه أكبر سنًا من أخيه، وكان مصطفى فى حقيقة الأمر واحدًا من التلاميذ المقربين إلى الشيخ محمد عبده.

فى شتاء العام ١٩١٨ ألقى مصطفى عبدالرازق سلسلة من المحاضرات فى الجامعة المصرية تكلم فيها على حياة الإمام وعلى آرائه، ولما أقيم الاحتفال بالذكرى السنوية السابعة عشرة لوفاة الإمام، ألف مصطفى الخطبة الرئيسية التى لخص فيها حياة الشيخ محمد عبده، وطبعت مع غيرها من الخطب التى ألقيت يومها فى سنة ١٩٢٢.

ويذهب «آدمس» إلى أنه على ما يبدو لنا أن مصطفى مع تمسكه بالدفاع عن مبادئ الشيخ عبده يعنى عناية خاصة بالنواحى العقلية من النهضة التى أنشاها الإمام، أكثر من عنايته بناحيتها الدينية، وهذه الحقيقة هى التى تضع فارقًا جوهريًا بين نزعات الشيخ مصطفى ومراميه، وبين غيره من شيعة الإمام الذين دانوا بالزعامة للمنار، فإنهم جعلوا اهتمامهم بالإصلاح الدينى أكثر من اهتمامهم باى شىء آخر.

ويضيف «آدمس»: وهذا الاهتمام العقلى الذى يظهره مصطفى عبدالرازق يجعل نوعًا من القرابة بينه وبين المحدثين، الذين اهتموا اهتمامًا قليلًا بالاصلاحات الاجتماعية والخلقية، وجعلوا غرضهم الأول حرية الفكر واستقلال الرأى فى البحث العلمى، على أنه بالرغم من كل هذا يجب أن نقرر أن مصطفى عبدالرازق هو أقرب المحدثين إلى الشيخ عبده، وأنه يسلك سبيله ويسير على سنته ويتبع تعاليمه.

الدكتور منصور فهمى كان أشد قربًا إلى روح محمد عبده

الثانى هو طه حسين، ويكشف «آدمس» بعض أسراره كتابه الشهير «فى الشعر الجاهلى، الذى صدر فى العام ١٩٢٦.

فقد كانت النظرية الأساسية فى كتاب طه حسين هى أن الجانب الأكبر من الشعر المنسوب إلى الجاهليين ليس من الجاهلية فى شىء، وهو يصرح بأن الشكوك قد ساورته من قبل فى صحة الأدب الجاهلى، وأنه وصل بعد البحث إلى نتيجة تكاد تبلغ عنده مبلغ اليقين، وهى أن الكثرة المطلقة مما نسميه الأدب الجاهلى ليس من الجاهلية فى شىء، وإنما هى منتحلة بعد ظهر الإسلام، فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين.

وينقل «آدمس» عن طه حسين قوله: وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدًا لا يمثل شيئًا، ولا يدل على شىء، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى.

ويرى طه حسين أن طائفة من العوامل كانت سببًا فى انتحال الشعر ونسبته إلى شعراء اشتهرت أسماؤهم فى الجاهلية، كالرغبة فى نشر الدعوة السياسية أو إرضاء العصبيات، أو خدمة الغايات التى كان يرمى إليها الرواة والقصاص والنحويون والمحدثون وعلماء الكلام وأصحاب التأويل.

على أن مناقشته للعامل الدينى هى التى أثارت عليه غضب المحافظين على وجه خاص، فقد جاء فى سياق كلامه بعض الآراء التى اعتبرها خصومه دليلًا على إلحاده، كإنكاره القصة التى تذهب إلى أن إبراهيم وإسماعيل بنيا الكعبة، وشكه فى وجودهما التاريخى، ومثل إنكاره ما تعارف عليه الناس من أن القراءات السبع جاءت عن النبى، وإنكاره أن الإسلام كان دين إبراهيم وأنه وجد قبل محمد فى بلاد العرب.

ويتبنى «آدمس» وجهة نظر تقوم على أن القيمة الحقيقية لكتاب طه حسين ليست فيما حواه من الشكوك والإنكار للعقائد الإسلامية، تلك الشكوك التى أثارت عليه ثائرة المحافظين، وإنما فى دعوته إلى اتباع مناهج النقد فى درس الأدب العربى.

فقد نقد طه حسين فى الفصول الأولى من كتابه المذاهب والأساليب المتبعة فى درس الأدب العربى نقدًا عنيفًا، ووجه فى الكتاب كله سهامًا من السخرية والتهكم إلى تلك النزعة التى تتجه إلى قبول كل ما قاله القدماء والتسليم به دون نقد وتمحيص، وكان القدماء أنفسهم لا يعرفون إلا شيئًا قليلًا من أساليب النقد.

يقول طه حسين: أريد ألا نقبل شيئًا مما قال القدماء فى الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت، ثم يؤكد أن المنهج الذى يدعو إلى اتباعه فى البحث النقدى سيقلب العلم القديم رأسًا على عقب، ويقرر أنه إذا أريد أن يظفر الأدب العربى بما ينبغى أن يكون عليه من القوة والنمو والحياة، يجب أولًا أن يتحرر من هذه القيود التى تربطه بالعلوم الدينية، فإن الأدب يدرس الآن باعتباره وسيلة لفهم القرآن والحديث، ولا يدرس الأدب لنفسه، وإن الاستغناء عن درس الأدب قد يكون ميسورًا لو أمكن أن يفهم القرآن والحديث بدونه، بل إن اللغة نفسها قد اعتبرها القدماء لغة مقدسة لأنها لغة القرآن والدين، ولذلك لم تخضع للبحث العلمى الصحيح.

ويضيف الدكتور طه: أنا أريد أن أدرس تاريخ الآداب فى حرية وشرف، كما يدرس صاحب العلم الطبيعى علم الحيوان والنبات، لا أخشى فى هذا الدرس أى سلطان، وأنا أريد أن يكون شأن اللغة والآداب شأن العلوم التى ظفرت بحريتها واستقلت بها من قبل، والتى اعترفت لها كل السلطات بحقها فى الحرية والاستقلال، وعلى هذا الشرط وحده يستطيع الأدب العربى أن يحيا حياة ملائمة لحاجات العصر الذى نعيش فيه.

كان طه حسين يعرف ما الذى سيجره عليه كتابه، فاستبق الجميع وقال: ما لى أدرس الأدب لأعيد ما قال القدماء؟ ولم لا يكتفى بنشر ما قال القدماء؟ ومالى أدرس الأدب لأقصر حياتى على مدح أهل السنة وذم المعتزلة والخوارج، وليس فى هذا كله شأن ولا منفعة ولا غاية علمية؟، ومن ذا الذى يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشرًا بالإسلام أو هادمًا للالحاد، وأنا لا أريد أن أبشر، ولا أريد أن أناقش الملحدين، وأنا أكتفى من هذا كله بما بينى وبين الله من حظ دينى؟

لم يكن طه حسين معنيًا إذن فى كتابه فى الأساس بالنواحى الدينية، فقد كانت غايته الأولى فى الناحية العلمية والرغبة فى رفع الدراسات العلمية المصرية فى نظر العلماء الغربيين.

ولأنه كان يعرف أن تحقيق هدفه هذا ليس سهلًا، فقد حاول أن يخفف ما يمكن أن تحدثه طريقته فى البحث من سوء الأثر عند الجمهور، فيقرر أنه من الممكن أن يكون للإنسان نزعتان فى وقت واحد.

إحداهما نزعة العالم الذى ينهج سبيل النقد.

والأخرى نزعة الرجل الذى يتقبل تعاليم الدين بالتسليم.

وكان طبيعيًا أن نجده يكتب فى «السياسة الأسبوعية» فى ١٧ يوليو ١٩٢٦: كل امرئ منا يستطيع إن فكر قليلًا أن يجد فى نفسه شخصيتين ممتازتين، إحداهما عاقلة تبحث وتنقد وتحلل وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، وتهدم اليوم ما بنته أمس.

والأخرى شاعرة تلذ وتألم، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وترغب وترهب فى غير نقد ولا بحث ولا تحليل، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا، لا نستطيع أن نخلص من إحداهما، فما الذى يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟

سار طه حسين مع هذا المبدأ الذى خطه بنفسه لنفسه، فقرر فى التحقيق الذى أجرته معه النيابة بشأن كتابه أنه كمسلم لا يرتاب فى وجود إبراهيم وإسماعيل، وما يتصل بهما مما جاء فى القرآن، ولكنه كعالم مضطر إلى أن يذعن لمناهج البحث، فلا يسلم بالوجود العلمى التاريخى لإبراهيم وإسماعيل، إلا إذا ثبت وجودهما بالدليل العلمى.

ورغم أن هناك من ينفى أى علاقة بين أفكار طه حسين والإمام محمد عبده، فإن «تشارلز آدمس» يقول: إنه من العسير أن نجد فى مصنفات طه مسائل معينة تتصل بتعاليم الشيخ محمد عبده، فعندما دخل طه الأزهر كان الإمام قد انقطع ما كان بينه وبين هذا المعهد من صلات، على أنه لا يخالجنا ريب فى أن طه عرف شيئًا من تعاليم الإمام، ولعل ثورته على برامج الأزهر فى ذلك العصر هى التى شجعت طه وأوحت إليه بالنزوع إلى الاستقلال الفكرى.

الثالث هو على عبدالرازق، الذى يميل «آدمس» إلى أنه يقف موقفًا وسطًا بين أخيه مصطفى وطه حسين، فهو من ناحية لم يتطرف فى أمور الدين ولم يشك فيه كما فعل طه، وهو من ناحية أخرى لم يظهر ما أظهره أخوه من الميل القوى لاتباع تعاليم الشيخ محمد عبده، نعم هو تأثر بتعاليم الإمام إلى حد ما، ولكنه تجاوز مداها فى كثير من النواحى الجوهرية.

أثر على عبدالرازق الأكبر كان فى كتابه «الإسلام واصول الحكم» الذى ينفى فيه تمامًا أن تكون الخلافة نظام حكم إسلامى.

ويرى «آدمس» أن هناك كثيرًا من وجوه الشبه التى ربما دلت على أن على عبدالرازق تأثر تأثرًا قويًا بآراء الشيخ محمد عبده وتشرب الكثير من روحه.

المفكرون والفلاسفة أخذوا من روح محمد عبده وبدأوا فى طريق التجديد

فقد تناول الموضوع الذى كتب فيه من الناحية التاريخية، فدرس الخلافة فى صدر الإسلام، وهو يشابه فى طريقته هذه الطريقة التى سلكها محمد عبده عندما وضع تلك المقدمة التاريخية التى صدر بها رسالة التوحيد.

وهو كالشيخ عبده يتصور الإسلام باعتباره دينًا روحانيًا، وإن كان يفرق بين الدين والدولة مما لم يقل به الشيخ عبده، ثم يسلم مثله بإمكان خضوع الناس جميعًا إلى دين واحد عام يؤلف بينهم، وينظمهم فى وحدة دينية، وإن كانوا يختلفون فى وحداتهم السياسية، وهو كالشيخ عبده ينزع إلى مخالفة أولئك الذين لا يعرفون الدين إلا صورة جامدة، ويشابهه أيضًا فى استقلال تفكيره وفى اتساع أنظاره.

الفكرة واضحة الآن، فالمفكرون والفلاسفة أخذوا من روح محمد عبده وبدأوا فى طريق التجديد، وأعتقد أن كل من حاول أن يقترب من هذه المساحة، أخذ من أفكار محمد عبده سبيلًا، وحتى هؤلاء الذين لم يقرأوا له، كان لأفكاره ظل فيما كتبوه، وهنا لابد أن نقرر الأن محمد عبده هو الأب الروحى لكل تجديد سعى إليه المجددون فى مصر

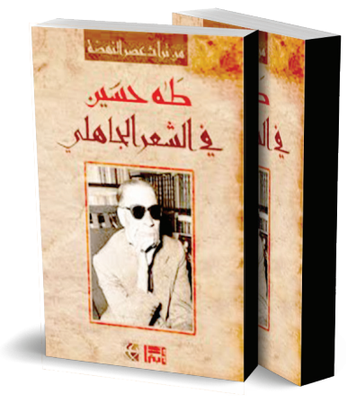

ابن عربى

عزّتْ علومُ القومِ عن إدراكِ ... مَنْ لا يعتريه صبابةٌ وتَحَيُّرُ
وتَنَفُّسٌ مِمَّا يجنُّ وأنَّةٌ ... وجوىً يزيدُ وعَبْرَةٌ لا تَفتُرُ

القلوب عند بعضها

أساطير الغرام فى الغناء الشعبى

محمد العسيرى

1.. وكل الحكاية

عيون بهيـــة

ربما هى مجرد حكاية مثل عشرات الحكايا التى كانت الجدات فى بيوتنا القديمة تستعيرها فى شتاء طوبة لتملأ بها ليلًا قارس البرودة تحت سقف من البوص أو الجريد.. حيث لا كهرباء.. ولا تليفزيون.. ولا موبايلات.. ولا شىء سوى ألحفة قليلة لا تستطيع المقاومة فى أيام الدميرة..

هى حكاية من ضمن الحكايات نعم.. لكنها مغرية للخيال..

لماذا يهرب الفتى ياسين من الغيطان والصحبة والأهل ويذهب إلى الجبل.. وكيف استجاب قلب الصبية بهَّية لهذه الغربة مع «الحنشان والعقارب» بعيدًا عن الأهل واللمة؟! الجدات لا يعرفن إجابات مقنعة لأسئلة الأطفال المزعجة.. كل ما يعرفنه.. أن بهية كانت جميلة وأنها عشقت «الواد ياسين» وراحت معاه الجبل الشرقى.. «أى جبل يا ست؟! هى لا تعرف سوى أنه جبل بعيد..

وأن الأغراب قتلوا ياسين اللى حب بهية وأخدها من كل العيون ليذهب بها بعيدًا وهو غير آبه بالذئاب وعفاريت الجبل..

الأغراب وحدهم.. إنجليز كانوا.. سودانية كانوا تراكوة كانوا..

المهم أنهم أغراب.. قاومهم ياسين لكنهم قتلوه.. أوقعوه من على ظهر «الكحيلة» وقتلوه.. وأين ذهبت بهية.. هل دفنته فى الجبل.. هل بنت له قبرًا.. أين قبره الآن.. وهل يمكننا «زيارته فى «الخمسان» التى نذهب إليها مع نساء البلدة.. وفى الأعياد.. هل يذهب أهل ياسين لزيارته وقراءة الفاتحة؟!

سنوات والأسئلة تحاصرنى عن «مكان ياسين» وباقى حكايته..

وأتعبنى نجيب سرور عندما ظننت أن مسرحيته تكشف عن «البلد» التى عاش فيها ياسين.. وأتعبنى أكثر أن يتنكر مدحت صالح لياسين وهو يغنى لحبيبته.. «لا أنا يا حبيبتى ياسين.. ولا أنتى بهية».

كيف يكون «مدحت صالح» النحيل الذى لا يملك لا خيلًا ولا سيوفًا يحارب بها أفضل من ياسين الذى عرفته طفلًا؟

ما بين تلك الأغنيات التى تكررت وتنوع مطربيها.. ضاعت حقيقة ياسين التى أفتش عنها الآن بعد مائة سنة كاملة من الشتات.

عمنا الباحث الكبير د. أحمد على مرسى يقول إن «الأغنية الشعبية نتاج المجتمع كله من خلال أفراده المبدعين الذين يعبرون عنه.. وهى تعكس ذوق الجماعة أكثر مما تعكس ذوق مغنيها».. إذن فلنفصل مشاعر وذوق كل الذين غنوا لبهية..

ولنذهب إلى كتب التاريخ.

يخبرنا المؤرخون أن النص الأول المغنى الذى تداولته الجماعة الشعبية عن غرام بهية وياسين لم ينسب لمؤلف وحيد..

«يا بهية وخبرينى يا بوى
ع اللى قتل ياسين
جتلوا السودانية يا بوى
من فوق ضهر الهجين»

فهل قتل «الهجانة القادمون من السودان ياسين حقًا؟! وما علاقة هؤلاء السودانيين بالإنجليز؟!

لقد جمعت الأغنية بينهم وبين «السودانية»..

«وجالولى ع الإنجليز يا بوى
رصونا أربعة أربعة آه يا عينى
وجالولنا ع القنال يا بوى
والضابط إنجليزى يا عين»

هذه الأغنية تشير بوضوح إلى الإنجليز.. وإلى السخرة.. وطريقة تجنيد الفلاحين الذين سيذهبون للعمل فى حفر القنال.. ولكن ما علاقة الإنجليز بحفر القنال.. هل خلط المغنى الشعبى بينهم وبين «الفرنساوية» لا أحد سيجيبك.. بل وأزيدك من الشعر بيتًا.. أو بالأحرى من الأغنية مقطعًا جديدًا يشير إلى تورط الأتراك أيضًا:

«وطارت طيارة تركى يا بوى
ضربت فى القنطرة آه يا عينى
ضربت فى الرديف يا عينى
وعد ومكتوب عليا.. يا بوى»

لقد خلط المغنى ما بين السودانية والأتراك والإنجليز بطريقة تشبه طريقة جدتى فى حكاياتها.. فجميعهم «أغراب»، جميعهم شركاء فى «مقتل ياسين»، فهل حدث ذلك بالفعل.. ومتى.. ولأى جريمة ارتكبها العاشق ياسين.. ولماذا ألقى الشعراء فى زمن تال بالتهمة على عيون بهية..ومنحوا كل هؤلاء الأجانب براءة حاسمة؟!

ضاعت حقيقة ياسين التى أفتش عنها الآن بعد مائة سنة كاملة من الشتات

وتَدَلُّه وَتَوَلُّه فى غيبةٍ ... وتلذذٌ بمشاهد لا تظهرُ
وتقَبُّض عند الشهودِ وغيرة ... إنْ قامَ شخصٌ بالشريعةِ يَسْخَرُ

ابن عربى

القلوب عند بعضها

أساطير الغرام فى الغناء الشعبى

لم يحدد الرواة والمؤرخون وقّتا لميلاد ياسين.. حددوا موعد وفاته بعام 1905

ياسين

محمد صالح حرب

1
يا بهية ولملمينا.. نطرح مليون ياسين؟!

الجماعة الشعبية تخلق بطلها وإن لم يكن موجودًا طالما كانت فى حاجة إليه.. فهل هذا ما حدث فى أحد أيام ١٩٠٥فى قرية المحاميد التابعة لمركز إدفو.. فى جنوب صعيد مصر؟!

الأغنية المصرية تؤكد ذلك.. هذا ما قاله أحمد فؤاد نجم صراحة بعد ستين سنة كاملة من واقعة مقتل ياسين عندما كتب وغنى الشيخ إمام عيسى

«فى الصحرا وفى المدينة../ واليوم ده من سنين
ناس تمشى.. وناس تجينا/ واحنا متبعترين..
ولا صارى ع السفينة/ ولا مربط للهجين
والدنيا تجرى بينا/ واحنا متوخرين
يا بهية وللمينا/ نطرح مليون ياسين..

ما كتبه أحمد فؤاد نجم.. يؤكد حاجة الشعب إلى ياسين «البطل».. لكنه فى ذات الوقت يجعلنا جميعًا شركاء فى مقتله.

لقد استمع أحمد فؤاد نجم.. مثل عشرات غيره إلى حكايات الشعب وصدقها ربما أخذًا بنصيحة دكتور طه حسين فى كتابه «النقد الأدبى»، حيث يؤكد «إن كل أديب لا يستقى مادته وروحه من حياة الشعب ليس أديبًا ولا هو بكاتب للأدب، وعلى ذلك فلا بد من أن تعرف ماذا يقول الشعب وكيف يعيش الشعب وكيف يحكى حكاياته».

أحمد رشدى صالح فى كتابه فنون الأدب الشعبى يقول: «إن فنون الأدب وهى تتعرض لمسائل الحب والزواج والجنس تلخص لنا تاريخًا اجتماعيًا طويلًا ليس فقط عن المرأة والرجل.. بل وعن الجماعة الشعبية، كيف عاشت، وماذا لقيت فى حياتها.. وكيف استجابت للطبيعة.. وكيف جاهدت حتى تستقيم للإنسان سيطرته على زمانه وعلى بيئته وعلى الطبيعة خارج نفسه وداخلها».

بهذا الفهم.. بهذا المنطق.. هل أحب ياسين بهية.. وهل أحبته.. وماذا عن زمنهما.. وحالهما.. وحال الشعب؟!

«فى صيف ١٨٢٠م أرسل الباشا حملتين إلى السودان، إحداهما بقيادة ابنه إسماعيل باشا.. والأخرى بقيادة زوج ابنته محمد بك الدفتار ووصل مجموع الحملتين إلى ألفى جندى من المغاربة والبدو المصريين.. ولكن لماذا أرسل الباشا محمد على.. تلك الحملات إلى السودان؟

يختلف المؤرخون فى ذلك.. فمنهم من يرى أنه لضمان وحدة مصر والسودان.. ومنهم من يرى أنه بحثًا عن مناجم الذهب.. فيما يؤكد د. خالد فهمى فى كتاب «كل رجال الباشا» هدفًا ثالثًا وهو «اصطياد أكبر عدد ممكن من سكانه وإرسالهم إلى مصر لتتكون منهم هيئة الجند فى الجيش الجديد الذى كان الباشا يزمع إقامته.. وقد فعلها محمد على.. وجاء بهم.. ومنهم من رفع سوطه ليضرب جمله فى مطاردة ياسين فى جبل المحاميد.. هل هذا كل ما حدث؟! بالطبع لا..

فى ١٩ ديسمبر ١٨٨٩م صدر أمر عال بإلغاء السخرة فى جميع أنحاء القطر المصرى مع الإبقاء على نوع واحد منها هو الخاص بحراسته جسور النيل وحفظها بأداء الأعمال المستعجلة فى حالة الخطر أثناء الفيضان».. إذن لم يلحق ياسين بزمن السخرة.. فمن أين جاء «المغنى» بحكاية السخرة ليضمها حكاية ياسين.. وماذا عن الأتراك؟

لم يحدد الرواة والمؤرخون على السواء وقّتا لميلاد ياسين.. حددوا موعد وفاته بعام ١٩٠٥.. ومن الوصف المصاحب الذى نظرته الأهرام لملامح ياسين وصورته المرفقة مع خبر مصرعه..يبدو فى الثلاثينات من عمره أو مطلع الأربعين على أبعد تقدير.

بحسبة بسيطة عاش ياسين طفولته فى قنا فيما بين عامى ١٨٦٥ و١٩٠٥.. فكيف حال الصعيد وقتها؟!

فى عام ١٨٦٧ قال إسماعيل باشا وهو يخطب فى نواب الشعب «إن جدى محمد على قضى على الاضطراب فى مصر وأعاد الأمن إلى ربوعها.. ووضع أنظمة تضمن لها مستقبلًا سعيدًا». كذب إسماعيل.. فلم ينعم بتلك السعادة سوى عدد محدود من الأغنياء.. أعيان البلاد وتوابعهم.. الإنجليز ورجالهم ومنافيقهم.. وإذا كانت القاهرة قد عانت منهم شبرًا.. فالصعيد ذاق الأمرين وبلغت أوجاعه آلاف الفدادين..

يذكر يوسف نحاس فى كتابه «الفلاح حالته الاقتصادية والاجتماعية» أن إبراهيم نجل الباشا شق الترع والجسور فى أرجاء البلاد وخصوصًا فى الصعيد الذى ابتلى بكثير من الأشقياء الذين كانوا يعيثون فيه فسادًا.

لكن يوسف نحاس لم يقل إن هؤلاء الأشقياء أنجبوا أشقياء جددًا.. والأعيان وتوابعهم أنجبوا أعيانًا جددًا أذاقوا أهل الصعيد ما جعلهم يبحثون عن «بطل» حتى وإن ولد شعبيًا.

2
عبادى يا واد عبادى.. كرباجك ع الهجين

فى الفترة التى شب فيها ياسين الذى ينتمى لقبيلة العبابدة.. كانت مصر تخضع اسمًا للسيادة العثمانية، فيما خضعت عمليًا للإنجليز ومندوبهم اللورد كرومر.. هذا ما يؤكده الباحث طارق عبدالعاطى غنيم فى كتابه «سياسة مصر فى البحر الأحمر»، وهو الأمر الذى يفسر ذلك الربط المدهش الذى صنفته المعالجة الشعبية الأولى لقصة ياسين وبهية فى أغنية فولكلورية.

هناك .. فى حتة فقيرة من الصعيد الجوانى محصورة بين الجبل والنيل.. شب الفتى ياسين..

لم يكن يملك أرضًا.. ولا أسرته.. الفلاحون جميعًا لم يكن بيدهم شىء.. هم أجراء فقط.. سخرة فقط.. فر بعضهم جنوبًا إلى قرب الحدود مع السودان، تلك التى وضعها الإنجليز وقسموا العبابدة إلى نصفين.. النصف الأول فى السودان والثانى فى مصر.. افترقت العائلة الواحدة.. وتشتت التجارة التى كانوا يعملون بها.. وتفرعوا فى بلاد الجنوب.. ومن أحد فروعهم.. كان ياسين.. ربما بسب هذه الفرقة.. امتلأ صدر الفتى الذى صار قاطعًا للطرق بالغل تجاه الإنجليز وأعوانهم فراح يسترد ما سرقوه من عائلته ولكن على طريقته.. فهل كان الرواة وشاعر الربابة يعرفون ذلك أم أن وجعًا عامًا كان يلاحق أهل تلك البلاد؟!

(اللى يعادى العبادى../ يعيش عمره حزين)
وبهية فى المحاكم/ شدت واحد وكيل
وانضر يا قاضى المحاكم/ قدامك مظاليم
اللى يعادى العبادى/ يعيش عمره حزين
ويا بهية وخبرينى/ ع اللى قتل ياسين

فى كتابه مدرسة السامر يرصد الباحث أحمد خميس نصًا يقول «طنجر الطربوش على ناحية وحكم بأربع سنين» وهو ما يفسره المسرحى مهدى الحسينى الذى زار مدينة قنا بحثًا عن ياسين وبهية.. ليؤكد له أحفاد ياسين من زوجته الأولى آمنة، أكدوا له أن الناس رفضت اتهام جدهم كونه «بلطجى أو قاطع طريق» وأقاموا- الشعب يعنى- محاكمة شعبية لقاتله بعد أربع سنوات من وفاته.. يعنى عام ١٩٠٩. وحكم القاضى الشعبى على قاتل ياسين بالسجن أربع سنوات..وهذا ما تحكيه الأغنية فى صورتها الأولى التى تفرعت منها كل حكايات وأغنيات ياسين وبهية فيما بعد.

مهدى الحسينى يرفض رواية محمد صالح حرب قاتل ياسين التى نشرها فى مذكراته..وقد صدرت فى كتاب عن هيئة قصور الثقافة..ويؤكد أن تمرد ياسين يعود إلى اتفاقية ١٨٩٩ التى نصت على وجود قوات مسلحة بين مصر والسودان، وما أعقبها من صدور لائحة العمد التى نصت على ضرورة ألا يترك العُمد أى عربان على أطراف القرى، وأن يتم إسكانهم فى منازل تتبعهم للسيطرة عليهم.

وياسين هو أحد أبناء تلك القبائل التى أرغمت على «السكن» تحت حصار العمد.

«يا اخواتى ردوا عليا/ أنا مالى.. ومال ياسين
دى صورتها ميه الميه/ ف قلبى من سنين
عطشان مسكونى/ وقللهم مليانين
وف نار الشوق كوونى/ محتار لمين»

هذه هى رواية المطرب الشعبى محمد طه..

3
ياسين عاشق.. وبهية قتلته بعيونها ومحبتها

أحفاد ياسين من زوجته الأولى.. يكشفون دون قصد عن جانب خفى من القصة..فالشاب الذى صار قاطعًا للطريق.. وقاتلًا مأجورًا فى بعض الروايات.. كان متزوجًا وله أطفال.. رفضت زوجته.. أم العيال.. مغادرة دارها إلى حيث انتوى الهجرة..كان قد قرر أن يذهب إلى الحدود .. حيث يطارد رجال الوالى تجار «العبابدة» فراح وحيدًا.. وفى طريقه التقى «راضية» التى أصبحت فيما بعد «بهية» وأحبها.. رضيت راضية بما لم ترضَ به زوجته الأولى.. وصارت زوجة لرجل يطارده الإنجليز ورجال الوالى ويطاردهم فى ليالى الصعيد الموحشة وكهوف الجبال البعيدة.

ما لم يذكره الرواة..أن ياسين كان قد تأثر بحكاية الشيخ الطيب الذى التف حوله أربعون ألف مقاتل صعيدى.. عاهدوه..وأخذوا منه العهد..وعندما قرر الشيخ أن يتمرد على سلطة إسماعيل ويرفض دفع الضرائب.. طاوعه الفلاحون..فأرسلت القاهرة بأمر الخديو تجريدة عظمى.. خرج لها الأهالى يحملون فؤوسهم.. فواجهتهم التجريدة بأسلحتها وقطعت رؤوسهم بنفس الفؤوس..ثورة كبرى وصفتها الرحالة «لوس دان جورون» بأنها ثورة..وأسماها البعض بأول ثورة شيوعية فى صعيد مصر كما تشير إلى ذلك د. زينب أبوالمجد فى كتابها «إمبراطوريات متخيلة».

لم يولد ياسين فجأة..ولم يقبل الصعايدة بتمرده صدفة..كانوا ينتظرونه لينتقم لهم ممن قطع رؤوس أجدادهم..ولذلك رفضوا رواية الأهرام..ومحمد صالح حرب.

4
بهية فى قطار «ليلى مراد»

قبل أن تقوم حركة الضباط الأحرار بشهور..كان المخرج يوسف شاهين يرسم «ديكوباج» فيلمه «سيدة القطار»..وكان قراره باستدعاء «بهية وحكايتها» فى أغنية صانع لحنها حسين جنيد من التيمة الشعبية التى تناقلها المصريون طيلة خمس وأربعين سنة فصارت جزءًا من طقوس لياليهم..وكتب بيرم التونسى أولى الأغنيات الحديثة لقصة الحب التى اخترعها المصريون..

«جينا أغراب/ ملناش أحباب
ولقينا كرام فتحولنا الباب/ جينا وقلوبنا حزينة يابوى
ورجعنا مجبورين/ يا بهية وخبرينى يا بوى
ع اللى قتل ياسين؟!

لا أعرف ما الذى حشر قصة ياسين وبهية أو اسمهما فى أغنية ليلى مراد.. وهى لا تقترب من حكايتهما على الإطلاق.. لكن يبدو أن نزق شاهين وإعجابه بالتيمة الشعبية هو الذى ذهب بخيال حسين جنيد إلى هناك.. لكن محمد طه كان أول من أشار لقصة ياسين وبهية فى أغنية أو بالأدق فى مواويله..بعد ذلك بسنوات قليلة..

«يا بهية أنا أصلى صعيدى
والناس قدامك شاهدة
ومحافظ على مواعيدى
والتوبة أصلها واحدة
أنا دايب والنبى دايب
خلينا أصحاب وحبايب».

بعد موال طه البسيط.. وجدت بهية نفسها فى موسيقى شاب يهودى أعلن إسلامه وأصبح فيما بعد «منير مراد».. منير لم يفعل مثلما فعلت شقيقته.. لكن حول ما كتبه فتحى قورة عن حكاية عشق إلى نغم مصرى يستعين بالجملة الشعبية التى صارت «أيقونة» ويمضى بها حيث صوت شادية الموجوع.

«حبيت والشوق كاوينى/ يا بويا..
وإن قلنا نقول لمين/ حبيبى جنب منى
والنار مش دارى بيها/ لانا قادرة ابعدها عنى
ولا أعرف رأيه فيها/ وصبرت كتير عليه
وأخرة صبرى إيه/ تبقى عنيا ف عنيه
وقلوبنا محرومين/ حبيت والشوق كاوينى
وإن قلت أقول لمين؟

ويبدو أن مرحلة الستينيات كانت فى حاجة إلى استعادة تمرد الفلاحين ضد الإقطاع وهى تؤسس لمشروعها لتمكين الفلاحين فى مواجهة أتباع النظام القديم، لذا سمحت الإذاعة المصرية وقتها باستعادة قصص أدهم الشرقاوى وياسين وما يشبههما من حواديت شعبية فعاد محمد قنديل ليحكى مجددًا قصة العشع المختلفة لياسين وبهية.

«يا نجوم الليل يا سهارى
بتشوفى كتير عاشقين
احكيلنا ع اللى اتقالك
ف بهية وياسين».

وتحكى النجوم على لسان قنديل الحكاية:

أحمد على مرسى

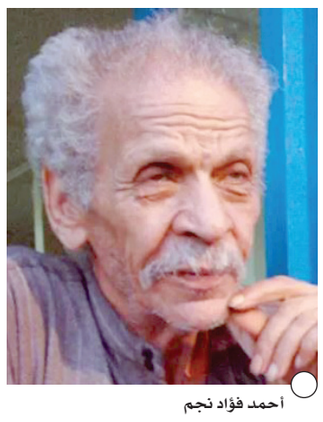

أحمد فؤاد نجم

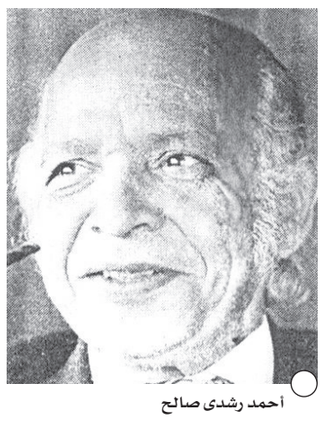

أحمد رشدى صالح

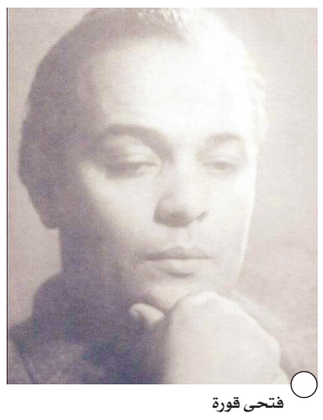

فتحى قورة

«يا ياسين.. / وصوته حزين
غرقان فى شوقه/ حنين..
سهران يقول مواويل/ سهران يقول ع الناى
قصة لقا وفراق/ شاهد عليها الليل
ويقول
«دنا قلبى والله أسد/ تحلف بعزمه البلد
تحلف بقلب ياسين/ لكن قصاد الحبايب
القلب ملهوف ودايب/ حتى الحديد يلين».

قصة قنديل لم تكن كافية فكان أن كتب نجيب سرور مسرحية كاملة تدور أحداثها فى «أخطاب» إحدى قرى دلتا مصر - وليس الصعيد هذه المرة.. بالتحديد عام ١٩٦.. لتحكى حكاية المتمردين من الفلاحين ضد أعيان أخطاب:

«فيه ناس بتشرب عسل/ وناس بتشر خل
وناس تنام ع الحرير/ وناس تنام ع التل
وناس بتلبس حرير/ وناس بتلبس فل
وناس بتحكم ع الأصيل يندل»

أعاد سرور الحكاية إلى أصلها..التمرد فى مواجهة الذل.. ما فرق بهية عن ياسين لم تكن رصاصات الضابط محمد صالح حرب.. بل كانت رصاصات الإقطاع ورجاله..

وأنا كل ما أقول التوبة..
ترمينى المقادير..

لم يكن نجيب سرور وحده من استحضر بهية..فرشدى أباظة أصبح ياسين فى رواية سينمائية..وفيما بعد أنتج التليفزيون مسلسلًا لعلى الحجار وعفاف شعيب كتبه يسرى الجندى لينفى قصة الحب ذاتها..وتوالت الأغنيات التى لم تتوقف، فى عصر السادات فغنت ليلى نظمى مجددًا لياسين وبهية..ما السر الذى يدفع كل هؤلاء لاستعادة سيرة امرأة قالت فى تحقيقات النيابة إنها ليست حبيبته..وإنه خطفها من أهلها وأجبرها على العيش معه فى المغارات والكهوف «عنوة»؟!

د. بهيجة صدقى رشيد فى كتابها الصادر عن مكتبة «الأنجلو» فى عام ١٩٨٢، وبالتحديد ص ٧٠.. تؤكد أن هذه الأغنية شاعت أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث جلبت السلطات وقتها آلافًا من العمال المصريين، لا سيما الصعايدة لما اشتهروا به من قوة السواعد والصبر واحتمال العمل تحت أشق الظروف، حيث قاموا بحفر الخنادق ومد سكة حديدية عبر الصحراء إلى فلسطين وتعرضوا لقذف القنابل ومدفعية الألمان والأتراك الذين تحالفوا مع الإنجليز..وشيوع هذه الأغنية كان تعبيرًا عن شعور هؤلاء الرجال فى غربتهم عن ديارهم»

«اسم البنية بهية/ واسم الولد ياسين
قمرين غلابة فى ليل/ طويل ع العاشقين».

هكذا يراهما ابن قنا عبدالرحيم منصور فى أغنية للمسلسل الذى كتبه يسرى الجندى مستلهمًا حكايتهما ولحنه عبدالعظيم عويضة ليغنيه على الحجار فى مطلع تسعينيات القرن الماضى..

لكن جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ٩ ديسمبر ١٩٠٥ عبر مراسلها فى أسوان قالت إن «بهية ادعت كذبًا أن ياسين اختطفها واغتصبها وأجبرها على المعيشة معه».. ثم سرعان ما غيرت أقوالها لتؤكد أنها هربت معه برضاها لكنها خافت أن يقتلها أهلها إن عادت إليهم».

كتب اللواء محمد صالح حرب قاتل ياسين..كيف حاصره هو ورجاله فى المغارة..كيف أشعلوا النار والدخان ليجبروه على الخروج إليهم لتستقبله أربع رصاصات أصابت إحداها قلبه فخر صريعًا..لكنه لم يقل أين ذهب ابن «ياسين» الذى وجدوه فى حضن راضية فى المغارة..ولم يقل مهدى الحسينى إنه وجد لها سيرة..أى سيرة لدى أحفاد ياسين من زوجته الأولى.

انشغل الجميع بالبطل..وانشغل المطربون بقصة الغرام..واكتفى المؤرخون بما حصلوا عليه من اللواء صالح الذى ترقى فى بلاط الجندية حتى أصبح وزيرًا للحربية عام ١٩٣٧..لا أحد يعرف..ماذا جرى لبهية..أين اختفت..فقط نعرف أن عيونها «شالت الليلة»؟

وأصبحت كل الحكاية «عيون بهية» كما يقول محمد حمزة فى لحن بليغ البديع لمحمد العزبى..

العزبى نفسه عاد ليغنى لياسين من كلمات عزت الجندى وإبراهيم رأفت.

أهل الهوى ياما..فيهم كتير أنواع
اللى نسنى حُبه واللى يخون صاحبه
واللى اشترى أحبابه../ واللى ف هواهم ضاع
وإحنا ظالمين ياسين/ القصة هيه..هيه
وفيه مليون ياسين/ ضاع الهوى..راح الهوى
ويا السنين/ مافضلش غير معنى الهوى
فى قضية ياسين».

> تمرد ياسين يعود إلى اتفاقية 1899 التى نصت على وجود قوات مسلحة بين مصر والسودان

ابن عربى

وتَخشّعٌ وتَفجّعٌ وتسّرعٌ بتشرعٍ لله لا يتغيرُ
هذا مقامُ القومِ أو حالاتهم ليسوا كمن قال الشريعة مَزْجَرُ

2
حسن المغنواتى:
الدين لله.. والحب لنعيمة

ليس بعيدًا عنها.. بالقرب من ملوى.. هناك فى بطن الجبل.. ترقد مدينة كاملة تركها رجال أخناتون اسمها «تونة الجبل».. هناك، وعلى جدران السراديب، رسم المصريون قصتها.. فيما ترقد هى تنتظر شمعة من يد الحبيب ووردة حمراء من يد العميد.

تتمدد «إيزادورا» سعيدة.. هكذا يتخيلها العشاق إذ تبتسم للعابرين الذين جاءوا من كل أرجاء الدنيا ليشهدوا ويباركوا قصة الأميرة التى غرقت طمعًا فى حب «ابن الناس الغلابة».

يصفها الكاتب عبده جبير فيقول: «فتاة طويلة على خلاف طول الفتاة المصرية. لها شعر طويل أيضًا. ومن ملامحها يمكنك أن تقول إنها كانت فاتنة الجمال.. أميرة من أيام العصر البطلمى.. أحبت شابًا من الفقراء.. من العوام كان يعمل «حارسًا».. وعرف أبوها.. فمنعها عن رؤياه.. لكنها تسللت إليه ذات ليل.. ركبت مركبًا وجدّفت فى النيل حتى تصل إليه على الشط الغربى.. لكنها لم تصل.. غرقت.

ربما أتعبها التجديف.. ربما أنهكها أيضًا المرة الأخيرة التى سترى فيها حبيبها.. بعد أن وعدت أباها بأنها لن تراه مجددًا.. ربما خطفها الموج حين راحت تلم أطراف شعرها الطويل الذى «انشبك» بالمجداف.

لا أحد يعرف.. ربما أغرقها الكهنة ليتخلصوا من فضيحة عشق بنات الأكابر شابًا من العوام.. لكن المصريين الذين جاءوا من بيوت فقيرة مجاورة على الشط أخرجوها من «بحر يوسف».. أسندوها على ضهر «نخلة» وراحوا يغنونها فى مساءاتهم التى تلت.. حنطوها فى تابوت صامت.. لكنها تبتسم وتحكى.

وعميد الأدب العربى.. ابن المنيا ذاتها.. يسمع.. لم يكتف العميد بأنه سمع حكاياتها بقلبه.. لم يرها وهو البصير الكفيف.. لكنه «حسها».. أحبها وكأنه «الحارس» الذى أحبته.. وراح وهو الوزير المسئول يسرق أيامًا وشهورًا لبيت بالقرب منها فى استراحة خصصها له سامى جبرة، المسئول عن الآثار وقتها.

وقال الرواة إن طه حسين كان يذهب إليها كل يوم ليضع بجوار رأسها وردة حمراء.. كل يوم.. مثله مثل حارسها العاشق الذى ظل يذهب إليها كل مساء ليشعل شمعة بالقرب من جيفها حتى يضيء.

ربما أراد طه حسين أن يكمل كتابة رسائل جده العاشق.. ربما.. فلا شىء مؤكدًا فى هذه القصة سوى أن العميد كتب روايته «دعاء الكروان» فى تلك الاستراحة مستهلمًا حكاية «إيزادورا».

لقد اكتشف سامى جبرة مقبرة إيزادورا عام ١٩٣١.. بينما كتب طه حسين روايته بعدها بثلاث سنوات فقط.. وبعدها بثلاث سنوات أخرى كان فريق من صحفيى مؤسسة «أخبار اليوم» على بُعد دقائق من رأس «إيزادورا» يفتش عن حقيقة شهيدة أخرى للحب اسمها «نعيمة» وعن حبيبها الذى وجدوه غريقًا فى ذات البحر.

«بحر يوسف» لأنه مثل جده عاشق «إيزادورا» مجرد رجل فقير.. واسمه حسن المغنواتى..

1
البحث عن حبيبة «حابى»

يحكى الأثريون فى «تونة الحبل» أن الضابط الشاب «حابى» رأى الأميرة الجميلة «إيزادورا» وقت خروجها مع الأميرات والأمراء للاحتفال.. احتفال المدينة بالإله «تحوتى» رمز الحكمة.. ويضيفون بأن عمرها كان ١٦ سنة.. وأنها عشقت الضابط الذى جاء من فقراء الشعب ليحرس الاحتفال بـ«حابى» من أول نظرة.. ويقول الرواة الشعبيون إن فتاة «منشأة اليوسفى» نعيمة كان عمرها ١٦ سنة أيضًا.. وإنها كانت تنظر من شباك منزلهم.. منزل والدها أحد كبار أعيان البلد.. فخطفتها نظرة المغنواتى الفقير ابن قرية «بنى واللمس» حسن.. فهل خلط المصريون بين «إيزادورا» ونعيمة.. أم أنهم كانوا فى حاجة إلى سند قوى ليدفعوا عن «نعيمة» تهمة الحب؟!

فى الرابع من فبراير عام ١٩٣٧ نشرت جريدة «أخبار اليوم» تحقيقًا صحفيًا مصورًا من قرية منشأة اليوسفى بالقرب من البهنسا بمحافظة المنيا.. راح صانعوه يبحثون عن سر «نعيمة».. فأكد الأهالى، وفى مقدمتهم عمدة القرى أيمن مصطفى طلبة، أنه لا توجد فى قريتهم فتاة اسمها نعيمة.. وأن حسن الذى تتحدث عنه «الأسطورة» جاء إلى قريتهم سنة ١٩٠٧ ليحيى أحد الأفراح.. يصفه العمدة فيقول:

«كان شابًا قصير القامة.. نحيل الجسم.. أبيض اللون.. أشقر».

العمدة ومن معه أكدوا فى تقرير «أخبار اليوم» أن حسن أمضى فى قريتهم عشرين ليلة.. فقد كانت «الدميرة» وقت الفيضان حيث يقوم الفلاحون بتزويج بناتهم.. وأحيا حسن عددًا كبيرًا من الأفراح فجمع مبلغًا كبيرًا من المال دفع «الحرامية» إلى أن يتربصوا به وتولى أحدهم واسمه محمد إبراهيم عبدالمغيث وكان اتفق مع «زمار» فرقة حسن على سرقته.. دعاه إلى منزله.. وفى آخر الليل قتله.. ورماه فى بحر يوسف.. لتخرج جثته بعد أيام ثلاثة.. لكن الحادث تم قيده «ضد مجهول».

ماتت قصة حسن.. التى يرويها أهل قرية نعيمة.. لكن راويًا شعبيًا أحياها بعد ثلاثين سنة من حدوثها، فراح الناس يبحثون عنه وعن نعيمة التى ينكر أهل قرية منشأة اليوسفى وجودها من الأصل.. ويعتبرونها مجرد «خيال مؤلف».

الحُب خلى الغزالة اتعلقت بالنس
«أصل القضية بنيَّة/ حلوة ونعيمة
وأهلها أغنيا بالمال ونعيمة/ لكن الهوى لو هوى
فى بحر نعيمة..
الحب خلى الغزالة اتعلقت بالنمس/ وفاتت
الأهل/ لساك تقول المبادئ..
تتبلى.. بالنمس»

موال محمد طه الذى كتبه زجال من شبرا الخيمة اسمه مصطفى مرسى.. هو أول خطاب إدانة لنعيمة ابنة الحسب والنسب التى استجابت لنداء قلبها ومالت، تخلت عن المبادئ، وتعلقت وهى «الغزالة» بالنمس، وهو حيوان برى مكروه فى الفلاحين والصعيد، تلك الإدانة الشعبية التى انتشرت كالنار فى هشيم ليالى الفقراء فى بحرى والصعيد ربما كانت هى الدافع وراء نفى أهالى قرية منشأة اليوسفى لإنكار وجود فتاة اسمها نعيمة فى قريتهم.. الأمر مختلف فى قرية حسن.. حيث يوجد بالفعل أقرباء وأبناء وأحفاد لأشقاء «مطرب الغلابة».

صحيفة «أهل مصر».. حاولت تقصى حقيقة وجود حسن ونعيمة على طريقة «أخبار اليوم» فذهبت محررتها نجلاء فتحى إلى قرية بنى واللمس على بُعد كيلومترات من مركز مغاغة، حيث التقت نجل شقيقة حسن.. «يعنى حسن خاله».. الذى قال إن خاله كان جميل الصوت.. وإنه حسب رواية والدته شقيقة حسن.. كان أهل القرى المجاورة يتغنون بمواويله.. وإنه كان وسيمًا.

الشاب ضاحى يسرى حسن.. ابن أخت العاشق المغدور أكد وجود «نعيمة»، وزاد بأن حسن تقدم إلى أهلها طالبًا يدها لكنهم رفضوا لأنه «مغنواتى» ولأنها كانت مخطوبة لابن عمها.

وأكمل: «نعيمة عندما علمت أنها لن تتزوج من حسن جاءت إلى منزله ومكثت به يومين.. وظلت عذراء».. وجاء أهلها وأخذوها بعد أن وعدوا حسن بأنهم لن يتعرضوا لها ولن يصيبها مكروه.. لكنهم أصروا على الثأر لشرفهم وقاموا بقتله»! ورموه فى «بحر يوسف» لتطفو جثته بعد ثلاثة أيام وتعرّف عليه الأهالى من الوشم الذى كان على «دراعه».

أما نعيمة.. فحسب أحد أحفاد أشقاء حسن فقد ظلت ثلاث سنوات بعد رحيل حسن ترفض الزواج ثم استجابت لأهلها وتزوجت وأنجبت!!».

إذا كانت نعيمة.. قد تزوجت وعاشت وأنجبت فلماذا ينكر أهالى قريتها وجودها من الأصل؟!

الباحث خالد سعد فى روايته لمنصته «المصطبة» يؤكد رواية ثالثة حيث يقول: «لم تكن مهنة حسن هى المانع لزواجه من نعيمة.. ديانته كانت السبب».

ويضيف: «فى قرية البهنسا أحب حسن نعيمة المسيحية فى قرية ذات أغلبية مسيحية مجاورة لقريته ذات الأغلبية المسلمة. حاولت الهرب معه واستعادوها مرة أخرى قبل أن يتم الزواج وألقيت جثته فى الترعة وتنكشف الجريمة».

لم يعد أحدنا يعرف على وجه الدقة ماذا جرى منذ ما يقرب من مائة عام.. لكن وجود «منزل حسن» بقريته «بنى واللمس» يؤكد وجوده.. ويؤكد مقتله.. لم يكن خيالًا.. لكن نعيمة صارت كما أراد الناس.. «حبيبة حسن».

2
فرج فودة.. شاعر نعيمة المجهول

فى عام ١٩٨٤.. أعاد السيناريست إبراهيم موسى، لم يكن معروفًا فى عالم الدراما، مع المخرج فتحى عبدالستار تقديم سيرة «حسن ونعيمة» من بطولة عمر فتحى وشيريهان.. حامت القصة حول السيرة الشعبية ولم تقدم جديدًا يذكر.. لكن المفاجأة كانت فى أغنيات المسلسل التى قال «التتر» إنها من كلمات مؤلف المسلسل.. وألحان محمد قابيل.. لكن قابيل وفى موسوعته عن الغناء المصرى التى صورت قبل وفاته عن هيئة الكتاب قال إن من كتب أغنيات المسلسل هو «المفكر» فرج فودة.. وقد عرفت عنه فى دوائر صغيرة أنه يكتب الشعر بالفصحى ولم يضبط شاعرًا يكتب الأغانى سوى مرة واحدة فى أغنية لحنها خالد صقر وغناها محمد العزبى فى احتفاليات بناء السد العالى.

كون فرج فودة يكتب شعرًا فهذا أمر معروف، حيث نُشر له بعض القصائد الفصيحة فى بعض الدوريات لكن أن يتخفى ولا يتحمس لكتابة اسمه فى مسلسل شعبى فهذا هو الغريب، فهل خجل فودة، وهو المفكر الشجاع الذى راح ضحيته رأيه من سيرة نعيمة، أم أنه كان ينظر إلى الغناء باعتباره فنًا من «الدرجة الثانية» لا يجب أن يلتصق باسمه؟

«يا حبيبة حسن يا نعيمة/ يا حبيبة حسن
يا غنوة شوق عجيبة/ بتتحدى الزمن»

3
صدق فرج فودة.. تحدت نعيمة الجميع

الصعيد بتقاليده والأغنياء بعاداتهم وقوانينهم.. وأهل قريتها الذين أنكروها.. تحدتهم جميعًا.. مثلها مثل «إيزادورا».. أميرة البطالمة التى أحبت «حابى» الفقير.. فأصبحت نعيمة «جوليت» الشعب يستعيدها كما يشاء بالصورة التى يشاء فى الوقت الذى يشاء.

أحمد رشدى صالح.. فى كتابه المهم «فنون الأدب الشعبى» يرصد تناقضًا مهمًا بين المبادئ التى يعتنقها جمهور الأدب الشعبى والعادات التى يتبعها وبين الطريقة التى يصور بها الأدب الشعبى أنواع العلاقات بين الرجل والمرأة.

ذلك التناقض هو ما أتاح لسيرة نعيمة وحسن أن تبقى وأن تنمو وأن تجد لها سبيلًا إلى حناجر الرواة والمطربين الشعبيين لمائة عام تقريبًا.. وهو نفسه الذى يدفع الباحثين ودارسى التاريخ الاجتماعى إلى تجاهل وجود نعيمة فى سجلات من عاشوا تلك الفترة.

ينكرها أهل الصعيد.. وهذا ما يعرّفه العاشق للتراث الشعبى «عبدالرحمن الخميسى».. ولذلك فهو يذهب بها إلى بلاد يعتقد أنها أكثر رحابة فى قبول فكرة الحب والإعلان عنه.. لذا وعندما يقرر عام ١٩٥٩ أن يعيد كتابة سيرتها فى الفيلم الشهير الذى اكتشف من خلاله ساحرة الشاشة الكبيرة سعاد حسنى.. يقرر أن يكون مكان ميلادها وحياتها وقصة حبها قرية فى دلتا مصر.. ويبدو أن ذلك السبب هو نفسه الذى جعل أشهر مواويلها شهرة وذيوعًا يخرج من عباءة زجال شعبى من «القليوبية».. وهو أحد كتبة مواويل محمد طه الكثيرة حيث تعرّف عليه وقت أن كان يعمل فى أحد مصانع الغزل والنسيج فى شبرا الخيمة.. حيث كانت تعيش والدته مع أشقائها وقد لحق بها بعد أن ترك قريته فى طهطا بسوهاج.

الباحث زياد فايد فى كتابه «السينما المصرية والفلكلور» يشير إلى أحد الأسباب غير المتداولة لتمرير وبقاء سيرة حسن ونعيمة، إذ يقول: «المصريون فى تلك الفترة اهتموا بالرومانسية كرؤية تهدف لتغيير العالم من حولهم.. فلعبت الإذاعة المصرية دورًا مهمًا فى ترويج تلك الحكاية الشعبية الغنائية ذات العمق الرومانسى».. وهو هنا يشير إلى المسلسل الإذاعى الذى كتبه الخميسى قبل أن يقوم هو نفسه بتحويله إلى فيلم سينمائى من إخراج هنرى بركات.

هنا يشير الباحث زياد فايد إلى المسلسل الإذاعى الذى قامت ببطولته كريمة مختار فى دور نعيمة وشاركها بطولته صلاح منصور وغنى أغنياته إسماعيل شبانة.. وسعاد مكاوى.. وصدرت أغنياته فى أسطوانة أصدرتها «مصر فون» من كلمات وألحان عبدالرحمن الخميسى.

ثم كان وإن قرر المخرج والمنتج سيد عيسى استدعاء حسن ونعيمة مرة أخرى فى فيلم كتبه يسرى الجندى وكتب أشعاره وأغنياته فؤاد حداد ولحنها عبدالعظيم عويضة.

فى البداية رشح المخرج أحمد زكى لبطولة الفيلم.. وبعد شهور من التحضير تعاقد زكى على بطولة مسلسل «الأيام».. فتم استبداله بعلى الحجار الذى كان من المقرر أن يؤدى أغنيات الفيلم فقط.. وغنى الحجار لنعيمة التى أدت دورها ليلى حمادة

«نظرة ونظرة ونظرة كمان/ نظرة شقاوة ونظرة حنان
نظرة عشان الليل ما يطولشى/ نظرة عشان الفجر يبان
نظرة عشان إن ما قلشى/ غير م القلب الفرحان
واخد الدنيا بالأحضان»

لكن الفيلم الذى تم تصويره عام ١٩٧٩ لم يظهر للنور سوى بعد خمس سنوات ولم يحقق نجاحًا كبيرًا وإن قدم رواية مختلفة لنهاية القصة.

4
مكرم المنياوى.. تاريخ آخر للقصة

«يا صاحب العقل/ مال عقلك
ع الدوام تعبان؟/ حكاية جرت..
وقالى منها أنا تعبان/ سنة ٣٨.. شهر سبعة
موافق أربعة شعبان»

هذا تاريخ جديد للقصة يأتينا من صعيد مصر الذى تجاهل السيرة طويلًا.. ربما رفضًا لفكر هروب نعيمة من منزلها.. وربما ابتعادًا عن كل ما يُثير «وحدة» أهل المنيا ويدفع بهم بعيدًا عن جرائم التطرف.. وبوابتها دومًا فكرة اختطاف «أنثى».

هذه المرة صاحب الرواية مطرب شعبى صعيدى مسيحى.. ومن المنيا ذاتها واسمه مكرم المنياوى.

عمنا مكرم من مواليد عام ١٩٤٧.. وظهر فى قرى الصعد مطربًا فى منتصف ستينيات القرن الماضى.. كان يعمل ترزيًا قبل أن تأسره مواويل محمد طه والشيخ عبدالرازق العربى.. مكرم من مواطنى قرية «عرب الطيبة» فى مركز سمالوط وهو عازف ربابة أيضًا عُرف باسم «مداح الرسول».

ربما كانت شهرته تلك كواحد من أهم المنشدين فى صعيد مصر هى التى سمحت له بأن يقترب من حكاية «حسن ونعيمة» برواية لا يعرفها إلا الصعايدة غالبًا.. فلم تقترب منها السينما.. ولم يتم استخدامها تليفزيونيًا.

«جاية نعيمة وهى نازلة ع السلم
وتقول لولا الملامة لدخل ع الموت وأسلم
وتبكى وتقول يا رب من يد المجرمين سلم
وهى فى الكلام لقيت رأس حسن ترمح ع السلم
خدتها نعيمة ف توب حرير وشالتها»

رواية مكرم المنياوى تتفق وإحدى الروايات التى تقول بأن نعيمة قد أصابها الجنون بعد رؤية رأس حسن وقد فُصلت عن جثته فى «بحر يوسف». ولا تفرق كثيرًا فى قصة الغرام على غير ما فعل «الفيلم».. أو المسلسل.. أو رواية محمد طه الشهيرة..

«دارو كتاف الجدع / على بسطة السلم
وجابولوه سكينة ماضية/ يا لطيف سلم
قطعوا رقبته بتتدحرج على السلم
حدتها فى الحال/ ف قاع التبر حنيتها»

كلاهما.. مكرم المنياوى ومحمد طه يتفقان فى رواية «قطع رأس» حسن لأنه عشق.. وربما ليؤكدا ما تتفق عليه الجماعة الشعبية من «حرمة» العشق التى لا نهاية لها إلا بقطع الرءوس.. ليبقى لنا فقط أن ننعيه ونعدد مزاياه فى مرثية لا نمل من ترديدها كما فعل حسن أبوعتمان فى أغنية لمحمد رشدى:

«آه يا حسن/ لا عمل حكايتك.. يا حسن موالى
يلف مع موج السنين ويلالى
وأغربل الليالى والرمل والحصى
وابنى لك قصر عالى يا حبيبتى
يا مخلصة/ واعلّمك يا غاب
غنيوة الأحباب/ ولا عمرى هقول يا توبة
ولا أقول يا مقادير/ وافرح بيكى.. حبيبتى
وأنا الشاب الفقير»

فعل حسن أبوعتمان ما لم يفعله سابقوه بأن انتصر للحبيبة المخلصة.. هكذا هو يراها على عكس «الوعى الجمعى» الذى يحب قصتها وجرأتها لكنه يخشاها.

شوقى عبدالحكيم أحد المضروبين بالتراث الشعبى.. لم يترك نعيمة وحسن فى حالهما.. فراح يحكيهما على طريقته ولكن هذه المرة فى المسرح عام ١٩٦٤ من إخراج كرم مطاوع.. وبعدها بما يقرب من ستين سنة كاملة يجد شباب المسرح فى مصر أن القصة لا تزال صالحة للتداول فيتم تقديمها باسم «طقوس العودة» ليغنى أحمد الحجار من كلمات الشاعر مسعود شومان.

فى عودة نعيمة هذه المرة رأى المخرج سعيد سليمان يستعيدها قوية متمردة تستعيد حبيبها كما فعلت جدتها إيزيس وتستعيد أغنياته.

عبدالرحمن الخميسى

شوقى عبدالحكيم

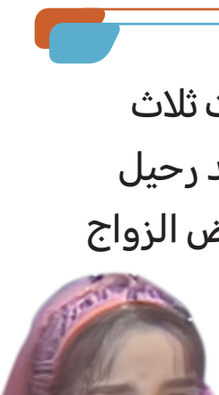

فرج فودة

على الحجار

نعيمة ظلت ثلاث سنوات بعد رحيل حسن ترفض الزواج

ابن عربى

ثم ادّعى أن الحقيقةَ خالفت ما الشرع جاء به ولكن تُستَرُ
تبًّا لها مِن قالةٍ من جاحدٍ ويلٌ له يوم الجحيمِ تَسَعَّرُ

تفكيك العقل المتطرف 1

فؤاد زكريا يحاكم الإخوان من قبره

يمثل الدكتور فؤاد زكريا حالة خاصة فى الثقافة المصرية، فهو مثقف بحق، وفيسلوف بحق، وشجاع أيضًا!
قد يكون الرجل مثقفًا، ويمكن أن يكون فيلسوفًا، لكنه لا يقدر على أن يقول ما يدور فى عقله، خوفًا من رد الفعل، خصوصًا فى مجتمع مثل مجتمعاتنا الموصوفة بـ«المحافظة».
أما الدكتور فؤاد فقد كان قادرًا على أن يقول كلمته مهما كانت العواقب.. وليس كما وصفه «هيكل» بأنه واحد من «فرسان الساحات الخاوية»، وكان يقصد هؤلاء الذين هاجموا «عبدالناصر» بعد وفاته وانتهاء تجربته.. وكأن النقد لا يكون إلا فى حياة الحاكم وعلى عينه!
لقد كان فؤاد زكريا مثالًا للشجاعة حين كتب «العلمانية هى الحل» ردًا على «الإسلام هو الحل»، ولم يتوار حول تعبيرات استخدمها مثقفونا وفلاسفتنا، على مدار عقود، بديلًا عن كلمة «العلمانية»، حتى لا تجلب عليهم لعنات رجل الشارع العادى الذى لا يعرف عن «العلمانية» إلا أنها تعنى «أمك تقلع الحجاب»! كما عرفها أحد الشيوخ.
وكما كان شجاعًا.. كان قادرًا على المواجهة، بالعقل والحوار والمنطق، وإسقاط حجج من يقفون أمامه فى معركته الكبرى، التى أفنى فيها حياته، وهى «معركة التفكير العلمى»، التى خاضها فى مواجهة مجتمع لا يحب هذا النوع من التفكير أصلًا، وأمام تيارات ترى فى «العلم ورجاله ومفكريه» أعداء ينبغى التخلص منهم حتى تسقط البلاد فى أيديهم.
استخدم فؤاد زكريا كل علمه وخبرته وثقافته فى معركته، أو معركة مصر، إذا شئنا الدقة، مع تيارات الإسلام السياسى، وقد دخل هذه المعركة حين كانت السطوة والشارع والسلاح أيضًا لهذه الجماعات. لكنه لم يخف، وعلى مدار سنوات خاض مواجهة تلو الأخرى مع أفكارهم ورموزهم.
وعلى مدار شهر رمضان نقرأ معًا بعضًا من هذه المعارك الفكرية التى ضمنها فى كتابين من أبرز أعماله، هما: «الحقيقة والوهم فى الحركة الإسلامية المعاصرة»، الصادر عام 1986، و«الصحوة الإسلامية فى ميزان العقل»، الصادر فى 1987.. ومع الكتاب الأول نعيش فى هذه الحلقة.

محمود الشهاوى

يبدأ سؤال زكريا من السؤال الأخطر: لماذا الدعوة إلى تطبيق الشريعة؟
والرد الجاهز الذى يجيب به كل من يتحمس لهذه الدعوة عن هذا السؤال، هو أن تطبيق الشريعة ضرورى لأن الشريعة آتية من عند لله، بينما القوانين الوضعية التى نعمل بها من صنع البشر. والمنطق البسيط والمباشر الذى تتغلغل به هذه الدعوة إلى قلوب الملايين من البشر وعقولهم هو أنه لا وجه للمقارنة بين قانونٍ يأتى من عند لله وقانونٍ يضعه البشر. إن الإنسان كائن هش ضعيف، لا يمتد عمره إلا لحظة خاطفة فى زمن الكون الأزلى، ولا يشغل كيانه إلا ذرة ضئيلة فى كون شاسع تقاس أبعاده بملايين السنين الضوئية، فإذا كانت لدينا شريعة أوحى لنا بها خالق هذا الكون، وقانون وضعه هذا الإنسان الضئيل المحدود، فهل يصح أن نتردد لحظة فى الاختيار بين الاثنين؟
إنه منطق واضح مباشر يبدو فى نظر الإنسان العادى أمرًا يستحيل الاعتراض عليه، بل إن قدرته الإقناعية أعظم من قدرة أشد البديهيات الرياضية وضوحًا. ومما يزيد من قدرة هذا المنطق على الإقناع، حالة التردى والتأزم التى يعيشها الناس، فكلما أحكمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبضتَها على رقابهم، ازدادوا استعدادًا لقبول الحجة التى تخاطبهم بكل ثقة فتقول: أرأيتم إلى أين يؤدى بكم حكم البشر؟ إن كل مصائبكم ترجع إلى ابتعادكم عن طريق الله، فلماذا لا تسيرون فى هذا الطريق، إن كنتم تريدون حقًا أن تنتشلوا أنفسكم من هذه الهاوية؟
وبطبيعة الحال، فلو كان الاختيار حقًا بين حكم إلهى وحكم بشرى، لأصبحت المسألة محسومة على الفور. ولكن السؤال الأساسى هو: هل نحن حقًا إزاء اختيار بين شرع لله وقانون الإنسان؟ فى رأيى أن الأمر على حقيقته أبعد ما يكون عن ذلك، وأن البديلين اللذين يطرحهما علينا دعاة تطبيق الشريعة لا وجود لهما إلا فى ذهن يتأمل الأمور بغير تعمق.
ويرتكز هذا الرأى الذى أقول به على أساسين جوهريين:
الأول هو أن أحكام الشريعة، باعتراف الجميع، تمثل فى أغلبها مبادئ شديدة العمومية، يتعين بذل جهد كبير من أجل ملء تفاصيلها بمضمون صالح للتطبيق فى ظروف كل عصر بعينه... وكلما تعقدت أوضاع الحياة ازداد الدور الذى تلعبه هذه التفاصيل أهمية. ومن المؤكد أن مجتمعنا المعاصر يمثل قمة التعقيد الذى بلغته البشرية طوال تاريخها، نتيجة للتقدم العلمى والتكنولوجى المذهل وما يترتب عليه من تغييرات متلاحقة فى ظروف حياة البشر، وهى التغييرات التى واجهتنا بمواقف جديدة لم يكن لها نظير فى أية فترة سابقة، ومن هنا كان لزامًا على أى مجتمع يريد لنفسه الحياة وسط عالم متغير متجدد يتعين عليه أن يتعامل معه، أن يبذل جهدًا بشريًا هائلًا لكى يترجم المبادئ الدينية العامة إلى واقع يمكن تحقيقه فى عالم كهذا.
ولنضرب لذلك مثلين: فمبدأ الإحسان مبدأ معترف به فى الإسلام، تنص عليه آيات كثيرة تهدف كلها إلى إشعار الأغنياء بأن للمحرومين فى أموالهم حقًا، أى إلى ضمان حد أدنى من المعيشة للفقير، أى أن الإحسان صيغة أساسية تستهدف تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية. غير أن تعقد المجتمعات الحديثة، وعدم وجود اتصال وثيق أو تعارف مباشر بين الغنى والفقير فى مجتمع المدينة الضخم المزدحم، يحتم علينا أن نأخذ من مبدأ الإحسان روحه العامة، وهى السعى إلى تضييق الفجوة بين الغنى والفقير، ثم نبذل جهودًا هائلة؛ من أجل تحديد الوسائل التى تكفل تحقيق شكل من أشكال العدالة الاجتماعية فى هذا المجتمع المعقد. وتتفاوت الصيغة التى يمكننا تطبيقها، بين قيام الغنى بتقديم صدقة مباشرة إلى الفقير «وهى صيغة لم تعد مجدية فى معظم المجتمعات المعاصرة»، وبين منع الأغنياء من أن يمتلكوا الوسائل التى تمكنهم من استغلال الفقراء والضعفاء. فى الطرف الآخر من سُلم الحلول الممكنة، وفيما بين هذين الطرفين تدور خلافاتٌ لا أول لها ولا آخر، كلها خلافات بشرية خالصة، وإن كانت كلها قابلة لأن تندرج تحت المبدأ الدينى العام؛ مبدأ الإحسان.
أما المثل الآخر فهو مفهوم الشورى، فكما نعلم جميعًا، ما زال الخلاف محتدمًا حول طبيعة الشورى، وهل هى اختيارية أم ملزمة للحاكم. ولكن الأهم من ذلك أن مبدأ الشورى يحتمل تفسيرات شديدة التباين: ما بين همس الحاكم فى أذن وزرائه وأمرائه المقربين «للتشاور»، وما بين إجراء انتخابات نيابية نزيهة تؤدى إلى اختيار ممثلين حقيقيين للشعب يكونون سلطة تراقب جميع تصرفات الحاكم وتضع لها ضوابط لا يستطيع أن يتعداها، فالمبدأ الإلهى واحد، ولكن التفسيرات متعددة ومختلفة، وكلها تفسيرات تتم بجهود بشرية.

> لا توجد فى عالم البشر مفاضلة بين حكم إلهى وحكم بشرى لأن كل حكم يتولاه الإنسان

توماس جيفرسون

> الهدف الأصلى الذى تسعى إلى تحقيقه دعوة تطبيق الشريعة هو هدف يستحيل بلوغه

خالد محمد خالد

وفى هذا الصدد أود أن أشير إلى التفسير أو الاجتهاد الذى تقدم به الأستاذ خالد محمد خالد فى مقال فى «الأهرام» «عدد ٢٤/٦/١٩٨٥م». فى هذا المقال قام الكاتب الإسلامى الكبير بتعريف الشورى على النحو الآتى:
إنها الديمقراطية التى نراها اليوم فى بلاد الديمقراطيات، وأركانها وعناصرها هى:
(أ) الأمة مصدر السلطات.
(ب) حتمية الفصل بين السلطات.
(ج) الأمة صاحبة الحق المطلق فى اختيار رئيسها.
(د) وصاحبة الحق المطلق فى اختيار ممثليها ونوابها.
(ه) قيام معارضة برلمانية حرة وشجاعة تستطيع إسقاط الحكومة حين انحرافها.
(و) تعدد الأحزاب.
(ز) الصحافة الحرة... لا بدُ من إعلاء شأنها.
هذا- يا أخى- هو نظام الحكم فى الإسلام بلا تحريف فيه ولا انتقاص منه.
ولا أجدنى فى حاجةٍ إلى القول بأن السطر الأخير من كلام الأستاذ خالد يمكن أن يلقى اعتراضات لا أول لها ولا آخر من جماعات إسلامية كثيرة، ومن جانب أنظمة حكم تؤكدأنها تسير وفقًا للشريعة الإسلامية. فتعريف الأستاذ خالد يمثل التفسير الديمقراطى فى أقصى مداه، على حين أن مبدأ الشورى يحتمل، من الناحية النظرية، تأويلات أضيق نطاقًا من هذا بكثير. وهكذا فإن ما يعتقد الأستاذ خالد أنه نظام الحكم فى الإسلام بلا تحريف أو انتقاص، هو فى الواقع رؤيته الخاصة لهذا النظام، وهى رؤية ينبغى أن نحمد لها استنارتها واتساع أفقها، ولكن ينبغى أيضًا أن نعترف بأنها ليست الرؤية الوحيدة التى تحتملها النصوص.
على أن السؤال الأهم، فى هذا الصدد، هو: هل كان خالد محمد خالد يستطيع أن يصل إلى تعريف كهذا لو أعمل فكره فى المبادئ العامة الواردة فى النصوص وحدها؟ هل كان يستطيع أن يحدد الشورى بأنها الفصل بين السلطات، والتمثيل النيابى الحر، وقيام معارضة تسقط الحكومة، وتعدد الأحزاب وحرية الصحافة، لو لم يكن قد تأثر بأفكار بعض البشر الفانين الضعفاء، من أمثال جون لوك ومنتسكيو وروسو وتوماس جيفرسون، ولو لم تكن تجارب الدول الحديثة التى سبقتنا فى مضمار الديمقراطية قد دعمت أفكار هؤلاء الفلاسفة من خلال الممارسة؟ هل كان خالد محمد خالد يستطيع أن يفسر الشورى على هذا النحو لو لم يكن هو ذاته إنسانًا اكتسب ميولًا ديمقراطية من خلال قراءاته وثقافته واطلاعه على تجارب الشعوب الحديثة؟ ولو قيل إنه كان يستطيع أن يصل إلى مثل هذا التعريف من متابعة التراث وحده، فكيف حدث أن هذه المبادئ لم تُستخلَص، ولم تطَبَّق، طوال تاريخ هذا التراث؟
هنا أيضًا نجد أن المبدأ العام، الذى يقبل تفسيرات متعددة ومتباينة، يحتاج إلى جهد بشرى لا غناء عنه لكى يترجَم إلى واقع يعيشه الإنسان. وكلما تعقدت ظروف الحياة، ازدادت أهمية الدور الذى يقوم به هذا الجهد البشرى، وأصبحت قدرة المبدأ العام على التأثير متوقفة عليه إلى حد بعيد.
أما السبب الثانى الذى أقول من أجله إننا لسنا إزاء اختيار بين حكم إلهى وحكم بشرى، فهو أن النص الإلهى لا يفسر نفسه بنفسه، ولا يطبق نفسه بنفسه، وإنما يفسره البشر ويطبقونه. وفى عملية التفسير والتطبيق البشرى هذه، تتدخل كل أهواء البشر ومصالحهم وتحيزاتهم. ففى عصر الرسول وصحابته فقط، كان التشريع إلهيًا وكان التفسير والتطبيق بدوره إلهيًا؛ لأن المكلف بالتفسير والتطبيق كان مبعوثًا من عند الله. فى مثل هذا العصر فقط يحق للناس أن يقارنوا بين الحكم الإلهى والحكم البشرى، أما فى جميع العصور اللاحقة، فقد تدخل البشر، بكل ما يتصفون به من ضعف وهوى، ولم يعد النص الشرعى الإلهى يتحول إلى واقع متحقق إلا من خلالهم. وهذا هو التعليل الوحيد للتباين الشديد بين أنظمة متعددة يقسم كل منها بأغلظ الأيمان أنه هو الذى يطبق الشريعة كما ينبغى أن يكون التطبيق.
ماذا نستنتج من هذا كله؟
النتيجة الواضحة، التى تفرض نفسها على كل من يملك حدًا أدنى من القدرة على التفكير، هى أن الهدف الأصلى الذى تسعى إلى تحقيقه دعوة تطبيق الشريعة، هو هدف يستحيل بلوغه. فأصحاب هذه الدعوة، الذين تتملكهم رغبة حقيقية فى الإصلاح، يريدون أن يتخلصوا من ضعف البشر وتخبطهم بالالتجاء إلى حكم إلهى يسمو على كل ما يصل إليه البشر الفانون. ولكن المشكلة الكبرى هى أن ضعف البشر وتحيزهم، بل وفسادهم وانحلالهم، سيظل ملازمًا لنا حتى عندما نحتكم إلى الشرع الإلهى، وبمجرد أن نطرد الهوى والتحيز البشرى من الباب، نجده يقفز عائدًا إلينا من النافذة.
إن عملية الحكم عملية بشرية، أولًا وأخيرًا، وما دام الذين يمارسونها بشرًا فسوف يقحمون مشاعرهم وميولهم فى أى نص يحكمون بمقتضاه، حتى لو كان نصًا إلهيًا. وعلى كل من يشك فى ذلك أن يتأمل جميع تجارب تطبيق الشريعة، لا فى العالم الإسلامى المعاصر فحسب، بل طوال التاريخ الإسلامى بعد عصر الرسول؛ لكى يتأكد من أن البشر، مهما فعلوا، لن يستطيعوا أن يهربوا من طبيعتهم أو يتخلصوا من تحيزاتهم.
كانت الإجابة التى قدمتها الجماعات الإسلامية عن سؤالنا الأول: لماذا الدعوة إلى تطبيق الشريعة؟ هى أن تطبيق الشريعة معناه الرجوع إلى الحكم الإلهى «الذى أطلق عليه بعض مفكريهم اسم (الحاكمية)»، ولا وجه للمقارنة بين الحكم الإلهى والحكم البشرى، ولكن التحليل الذى قدمناه أفضى إلى نتيجة أساسية، هى أنه لا توجد فى عالم البشر مفاضلة بين حكم إلهى وحكم بشرى؛ لأن كل حكم يتولاه الإنسان، حتى لو كان يرتكز على شريعة إلهية، سيصبح بالضرورة بشريًا، تنعكس عليه أهواء البشر وتحيزاتهم وأطماعهم وكل جوانب ضعفهم. وهذا معناه أن الاختيار الحقيقى ليس بين حكم الله وحكم الإنسان، وإنما بين حكم بشرى يزعم أنه ناطق بلسان الوحى الإلهى، وحكم بشرى يعترف بأصله الإنسانى.
وخطورة النوع الأول، الذى تظل تلازمه- كما قلنا- كل أخطاء البشر، تكمن فى أنه يضفى على هذه الأخطاء والأهواء صبغة القداسة، ويخلط عامدًا بين الأصل الإلهى للأحكام وبين التفسيرات البشرية المغرضة لها، فيقدم إلى الناس نزوات الحاكم وسوءاته كما لو كانت امتثالًا للوحى الإلهى، ويخلع على ضعفه البشرى عصمة لا يستحقها من قريب أو بعيد، أما النوع الثانى الذى يعترف ببشريته، فإن الخطأ والتحيز فيه أقل خطرًا؛ لأننا نعلم مسبقًا أنه من صنع بشر فانين، غير معصومين من الهوى والغرض.
إن البشرية كلها تخطئ مرارًا وتكرارًا فى تجارب الحكم المختلفة التى تمارسها، وتتعلم كل يوم من أخطائها، ولكن أفدح أنواع الخطأ هو ما يرتكبه حاكم يتصور أن أهواءه ومصالحه الضيقة إنما هى تجسيد للإرادة الإلهية، ويوهم الناس بأن كل ما يفعله مستلهَم من وحى الشرع الإلهى الذى يحكم بمقتضاه. وقد أثبتت التجارب المريرة التى خاضها عالمنا الإسلامى، فى تاريخه القريب والبعيد، أن أمثال هؤلاء الحكام كانوا، فى معظم الأحيان، هم الأكثر دموية، والأشد استخفافًا بمصائر البشر.

> الحكام الذين حكموا باسم الشريعة كانوا فى معظم الأحيان هم الأكثر دموية والأشد استخفافًا بمصائر البشر

حصة قراءة

رمضان فى مدونة السرد المصرى

د. يسرى عبدالله

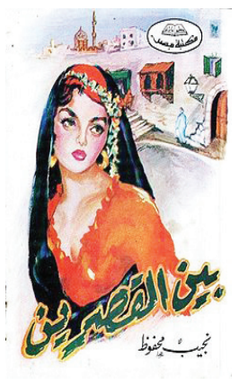

يحضر رمضان فى مدونة السرد المصرى عبر صيغ مختلفة، وآليات متعددة، ولم يقتصر وجود الشهر الكريم على المظاهر المادية والروحية التى تجعل الناس فى بر المحروسة يهفون إليه عامًا بعد عام؛ حيث امتد الحضور الباذخ لرمضان إلى الأدب المصرى، ولطالما حملت النصوص الروائية والقصصية إشارات دالة على روحه وطقوسه الدينية والاجتماعية الساكنة فى قلوب المصريين.

إن رصد زوايا الفعل الاجتماعى وحركة الواقع المصرى على تنوعه، وتفاعله مع المناسبات المختلفة بوصفها جزءًا من حركة الحياة، وتجلياتها الإنسانية المختلفة بدا جزءًا من البنية السردية لعشرات النصوص التى لا نسعى هنا لاستقصائها، ولكن لتبيان بعضًا من ملامحها، وتأملها.

يؤنسن المصريون رمضان، ولم تخل إبداعات كتابهم من رائحته؛ فحضر رمضان فى ثلاثية نجيب محفوظ، وخاصة فى «بين القصرين»، و«السكرية»، مثلما حضر فى روايته «خان الخليلى».

كان نجيب محفوظ منشغلًا بالبعد الاجتماعى، برصد المظاهر الحياتية والطقوس؛ حيث نرى حضورًا لاستطلاع الهلال، وتجليات ذلك جميعه فى نفوس شخصياته الروائية، ففى روايته «خان الخليلى» نرى ذلك المقطع السردى الكاشف: «وجاء مساء الرؤية، وانتظر الناس بعد الغروب يتساءلون.. وعند العشى أضاءت مئذنة الحسين إيذانا بشهود الرؤية . وقد اجتزءوا بالإضاءة عن إطلاق المدافع لظروف الطوارئ . وازينت المئذنة بعقود المصابيح مرسلة على العالمين ضياء لألاء، فطاف بالحى وما حوله جماعات مهللة هاتفة (صيام صيام كما أمر قاضى الإسلام). فقابلتها الغلمان بالهتاف والبنات بالزغاريد، وشاع السرور فى الحى كأنما حمله الهواء السارى».

وفى المبتدأ والختام نرى أيضًا حضورًا بارزًا لرمضان فى «خان الخليلى»، ففى بدايات النص نرى تلك الإشارة الزمنية التى تمثل إطارًا للسرد: «واقترب رمضان فلم يعد يفصل بين هلاله وبين الطلوع سوى أيام قلائل»، وفى نهايات النص نرى ذلك المقطع الدال: «وها هو ذا رمضان مقبل فيا للذكرى!.. أيذكر كيف استقبل رمضان الماضى؟.. أيذكر موقفه من النافذة الأخرى فى انتظار المغرب وكيف رفع البصر فرأى».

بدا نجيب محفوظ الشغوف بتمثلات الحياة الاجتماعية لدى المصريين، وكان شخوصه البارزون، وفى المتن منهم شخصيته المركزية، أحمد عاكف، الذى بدا واصلًا خطّ المفارقة الأساسى بينه وبين أحمد راشد، حتى فى التعامل مع رمضان. عاكف الذى يكابد العطش والقيظ، والذى يرى فى أحمد راشد شخصًا متحللًا من جميع القيود الدينية والاجتماعية.

تبدو خان الخليلى مشغولة بتباينات الواقع المصرى أثناء الحرب العالمية الثانية، والتمظهرات التى يمكن أن تتجلى فى مجتمع محلّى جدًا جراء حدث كونى، ليتجاور تشرشل وهتلر، مع نوال، ورشدى، والمعلم نونو.

تبدو العلاقة مع شهر رمضان تعبيرًا عن رؤيتين متمايزتين للعالم، الأولى يمثلها أحمد أفندى عاكف، المتمترس حول جانب من قراءات تراثية قديمة. والثانى أحمد راشد الذى يمثّل عنوانًا على المغايرة فى تلك الآونة: «وفى اليوم الأول من الصيام كابد أحمد عاكف تعبًا مرهقًا ، فشق عليه ألا يشرب قهوته، ويدخن سيجارته على الريق، ومضى إلى الوزارة متوجع الرأس متثائبًا، وغالب تعبه مغالبة يائسة حتى دمعت عيناه من التثاؤب واسترخت جفونه. وذكر أن أحمد راشد وأمثاله لا يعانون تعبًا ولا حرمانًا فسره أن يحتقره ويتعالى عليه».

وسنرى شذرات عن الطقس الاحتفالى برمضان فى «المرايا» لنجيب محفوظ أيضًا، حيث الإحالة على ذكريات اللعب الطفولى فى أجواء رمضان:

«وكانت ليالى رمضان فرصة هنية للصغار من الجنسين، يجتمعون فى الشارع بلا اختلاط، ويتراءون على ضوء الفوانيس وهم يلوحون بها فى أيديهم، وكنا نترنم بأناشيد رمضان ونتبادل مشاعر الحب وهو كامن فى براعمه المغلقة. وقنعت عواطفنا الساذجة بتبادل النظرات، وإظهار الرشاقة فى الجرى والغناء، أو المخاطبة بالابتسام فى خفاء».

وربما كانت نقطة التحول فى رواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى، لحظة اللقاء الثانى لإسماعيل بنعيمة بعدما منحتها الأيام حاجتها، وفى ليلة القدر يعود إسماعيل إلى السيدة ، متأملًا ما صار، منتقلًا من النفور الشديد إلى الرضا الهادئ، وتصبح غواية المصالحة بين العلم والسماء طريقه الجديد فى تغيير محيطه الاجتماعى الغارق فى الخرافة.

كانت نظرة إسماعيل- على الرغم من تصالحيتها- تتجه لتأمل الواقع الاجتماعى، وكان رمضان حاضرًا أيضًا من زوايا نفسية وتأثيرية تتراوح بين الرفض والقبول، النفور والمصالحة، الثورة العارمة والهدوء المتأمل.

وفى قصة «رمضان» ليوسف إدريس ثمة روح قلقة، ومتمردة، طفولية المنزع، بطلها «فتحى» الذى لم يكن أكثر من طفل يبغى الكمال والبراءة معًا، يريد الالتحاق بأفراد عائلته الأكبر سنًا، ويصبح رجلًا مثلهم، قادرًا على الصوم فى رمضان. ووجبة السحور التى يريد الاستمتاع بها فعلًا ومعنى، ستظل لصيقة بالصائمين، وفتحى ليس أقل من أحد؛ هكذا يفكر ابن العاشرة فى اختراق جدار رمضان الصلد.

لكن منذ متى والأيام تأتى على هوانا، فالعطش قاس والصيف مارد ثقيل، وحينما يختلس لحظات يرتوى فيها مكملًا صيامًا ظاهريًا، تراه أمه ذات مرة ليقرر الجميع مراقبته، ويصبح خوفه مضاعفًا، من رمضان الذى يجلس بعيدًا، مشاهدًا الجميع، الصائمين والمفطرين، والذى يعتقد الصبى بوعيه الساذج بأن رمضان «سيبطحه» فى رأسه لا محالة؛ لتتعزز ثقافة الخوف من القيد الاجتماعى ذاته عبر الضغط العائلى الذى تمارسه الأسرة فى العقاب والمراقبة.

ومن النصوص الجديدة، رأينا رواية «الرجل النملة» للروائى هشام البواردى التى تلوح فيها مشاهد من الصخب المتوارى خلف اللعب الممكن للأطفال لكرة القدم فى القرية المصرية، وتنظيم الدورات الرمضانية التى صارت جزءًا من طقوس الشهر، وتؤدى على نحو خاص جدًا، بدءًا من الملاعب الترابية التى ليست أكثر من أرض بور فى الحقيقة، وصولًا إلى مغايرتها عن الساحات فى المناطق الشعبية، وقد حملت الرواية إشارات دالة وساخرة فى هذا المسار.

إن معالجات الكتاب على تنويعاتها، ابنة سردية مستقرة، ولربما حمل رمضان تنويعات إنسانية ثرية جدًا، تعيدك إلى حنين خاص للبراءة الأولى.

يبدو رمضان طاقة ملهمة إنسانيًا وإبداعيًا، وحالة روحية خاصة، ومتجددة على الدوام.

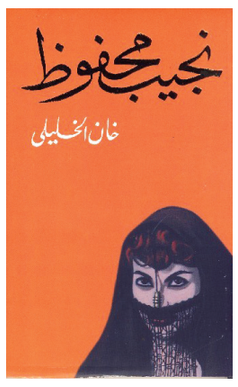

يحيى حقى
قنديل أم هاشم

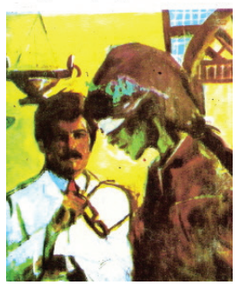

أن تعيش كقطة

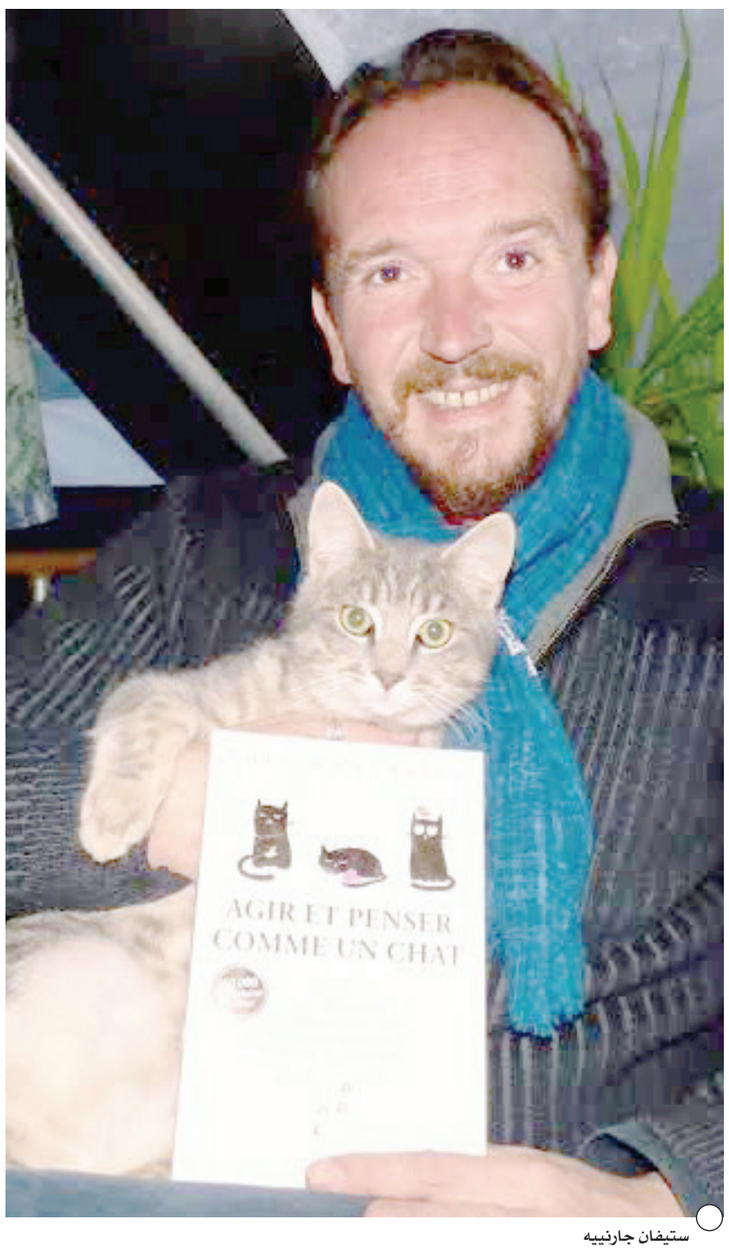

ستيفان جارنييه

منذ فجر الخليقة، رافق الإنسان ذلك الكائن الرشيق، المتمرد، المستقل، الملقب بالقط. استأنس الإنسان القط وأحبه، فأحب القط الإنسان وتخلى عن فصيلته البرية، لا لشىء، إلا ليعيش حياة هانئة وسعيدة، يتبوأ فيها مكانة ملكية، لا خضوع فيها لأحد. ويدرك مربو القطط الذين يقرأون هذه السطور الآن، ما أقوله، فهم يقولون دائمًا هذه الجملة لنا: «لا يعيش معنا قط، بل نحن الذين نعيش مع القط»، وهذا المعنى يؤكد أن القطط تملك شخصية طاغية، لا تعيش خادمة بل سيدة، عكس الكلاب، فهم خاضعون أذلاء لكل من يعطيهم لقمة.. فالكلب يقول: إنهم يطعمونى يحمونى.. هم آلهة بالتأكيد. أما القط فيقول: إنهم يطعمونى يحمونى.. أنا إله بالتأكيد!.

محمد ثابت

«فلسفة السعادة».. أكل ولعب واسترخاء!

فهل هذا سر سعادة القطط وتميزها واختلافها؟ هل هذا سر رشاقتها وجاذبيتها؟ هل هذا سر امتلاكها لسبعة أرواح؟ لماذا لم نتساءل يومًا عن هذه المخلوقات غريبة الأطوار التى تبدو وكأنها تعيش فى عالمها الخاص دون هموم أو ضغوطات؟ لماذا لم نتأملها لنتعلم منها؟.. ماذا لو أخبرتك اليوم أنك تستطيع تعلّم الكثير منها، وأن تغيير نظرتك للحياة قد يبدأ بتغيير سلوكك ليكون أكثر اقترابًا إلى سلوك القط.. فتصبح شخصًا أفضل؟

هل ستصبح حينها شخصًا أفضل فعلًا؟.. الإجابة بلا شك: نعم.

فى كتابه «فكر كأنك قط» يتناول المؤلف الفرنسى ستيفان جارنييه، هذه الأسئلة ليجيب عنها، وقد أعجبنى الكتاب لخفة ظل كاتبه، وحكمته التى طعمّها بأسلوب تقريرى مباشر، يهدف إلى استخلاص معان وجودية عميقة، تثرى حياتنا لتجعلها أفضل.

والكتاب عبارة عن رحلة فى فلسفة القطط، تأملها الكاتب من خلال معاشرته لقطه الصغير «زيجى»، ومن خلال أسلوبه الرشيق كقطه، قدم «جارنييه» مزيجًا فريدًا من الحكمة والفلسفة والمشاعر، أهمها على الإطلاق: أن نعيش سعداء كالقطط.

والقطط باختصار كما يقول الكاتب، تكمن سعادتها فى بساطة عيشها، وفلسفتها التى تركز على الأكل واللعب والنوم والاسترخاء وفعل ما يحلو لها، لذلك تبدو حياتها مثالية أكثر من أى مخلوق آخر.

تأمل مثلًا القط عندما يستيقظ، إنه لا يقفز من سريره، لأن النهوض السريع المفاجئ من حالة السكون مضر للجسد والحالة المزاجية، هو فقط يسترخى ويمدد جسده ثم يفتح عينيه ببطء ويتثاءب ويأخذ الوقت الكافى لينهض.

فلماذا لا نصبح مثل القط؟ لماذا لا نسترخى قليلًا ونتثاءب بعد الاستيقاظ ونتقلب فى السرير؟ إنها أمثل طريقة لتصفية الذهن وتنشيط الجسد، لبداية يوم سعيد.

ولكن كيف يمكن أن نحقق السعادة فى حياة مليئة بالضغوطات والصراعات الداخلية والخارجية والأرق والقلق والعصبية؟ مؤكد أنك وأنا وكل إنسان يحترق كل يوم، من أجل أشياء وحاجات واحتياجات تظنها ذروة الحياة المثالية وهى فى الأساس لا شىء، فهل تنظر إلى القط ماذا يفعل؟

إنه يعيش اليوم، ولا يعنيه الغد، يعيش حياة التأمل ولا يحبذ التغييرات الكبيرة فى الحياة. إن لحظات القلق لديه تتولد فقط من التغيير الذى قد يؤثر على رفاهيته، أو من مشكلة عليه حلها سريعًا، كطرد قط دخيل، أو غياب سيده كثيرًا عليه والذى لا يتناسب مع حاجته للاهتمام والحب.

إن القط فقط يقلق عندما يشعر بالخطر، لكن تعود إليه حالة السكينة والهدوء فى ثوانٍ كأن شيئًا لم يحدث، والقلق بالنسبة له يكون ذروة الانتباه واليقظة، كما أن القط يتمتع بصفة يعرفها الجميع، وهو أنه إذا لم يجد لنفسه مكانًا فى البيت أو افتقد الألفة والسعادة، فإنه يغادر.. يغادر بلا رجعة غير نادم ولا يبكى ولا يعبأ بما سيواجهه.

إنها قمة الحكمة التى يمكن أن نستخلصها من القط، فكيف نحافظ على الهدوء والسلام الداخلى، يجب أن نحدد مصدر القلق حتى تعود السكينة ورفاهية النفس.

والقط.. أى قط أنانى، والأنانية مفتاح السعادة بالنسبة للكاتب، وأنقل عنه نصًا: «لا يمكننا أن نعطى للآخرين شيئًا لا نعرف كيف نعطيه لأنفسنا»، وأعجبتنى وجهة النظر، فأنا أولًا ثم الآخرين، إنها منتهى الحكمة، وهذا ما يفعله القط، إنه يفكر فى حاجته أولًا ورفاهيته ثم يأتى الآخرون بعد ذلك.

ويركز المؤلف على سمة أخرى فى القط وهى الكاريزما، فهو نظيف، يدخل إلى أى مكان فيلفت انتباه الجميع، وليس فى حاجة أن يزعج أحدًا بضوضاء أو مواء، ولا يحتاج إلى افتعال الدراما لجذب الانتباه، يتعامل فى أى مكان بنفس السلوك ونفس الحرية لا يبالى بأى قدسية أو أهمية للمكان الذى يتواجد فيه.

وفى نظر الكاتب، تكمن فى هذه السمة سرّ الكاريزما الحقيقية لأى إنسان. فالإنسان الكاريزمى هو من يتصرف بطبيعته، دون تكلف أو تصنع. له نفس التصرّف والأداء والطريقة فى كل الظروف والمواقف. فهو لا يُغيّر نفسه ليتناسب مع المكان أو الموقف، بل هو يُبقى على طبيعته، وهذا ما يُضفى عليه هالة من الجاذبية والتميز. يرشدنا هذا الكتاب باختصار إلى تغيير نظرتنا إلى الحياة، والتعامل معها بنفس فلسفة القطط، وهى العيش فى الحاضر والاستمتاع باللحظة، التركيز على ما يسعدنا وفعل ما نحب، الاسترخاء والتخلص من التوتر، وكذلك أن تتعلم التمرد وتقول لا، فأنت صديق لمن حولك لا عبد. يعلمنا الكتاب أيضًا أن النوم وقت طويلًا.. هو اختراع القط.. لأنه يستمتع بالنوم بشكل متكرر. والنوم هو أحد ملذات الحياة، والذى لا ينام كفاية أو ينام ولا يستمتع بنومه.. بكل تأكيد خسر نصف المتعة فى الحياة.

كازانتزاكيس

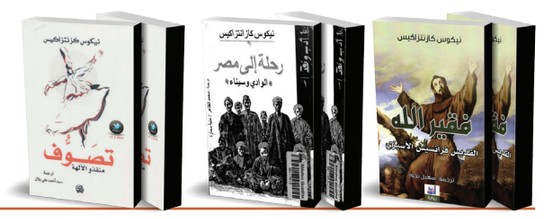

جامع التناقضات الحادة والمدهشة

يبدو لى أنه ما من كاتب جمع فى حياته وأعماله بين المتناقضات، بل وصنع منها الأساطير المدهشة، بمثل تلك الطريقة الحادة، مثلما فعل اليونانى الأشهر نيكوس كازانتزاكيس.. لم يحب أحدًا مثلما أحب زوجته الثانية إيليني، أو هيلين، أو لينوتشكا، كما كان يحب أن يناديها، لكنهما لم يكونا يلتقيان سوى عشرة أيام فى السنة، ولم يتردد فى خيانتها، والدخول فى علاقات عابرة مع «حشد» من النساء خلال أسفاره التى كان يكتب إليها عنها وعنهن، ولم يأتمن أحدًا على سيرته غيرها.. حاول صبيًا الانخراط فى سلك الكنيسة، وكبيرًا منعت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية روايته «الإغواء الأخير للمسيح»، وسعت الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية إلى حرمانه، بل إنها جهزت عقوبة الحرمان الكنسى، وكانت تستعد لإعلان الحكم، لولا تدخل سرى من الأميرة مارى بونابرت، ولكن البابا أدرج ذلك الكتاب ضمن لائحة الكتب الممنوعة فى الفاتيكان سنة 1954.. حتى روايته الأشهر عالميًا «زوربا اليونانى» اعتمد فى بنائها على الجمع بين رجلين ينتميان إلى شريحتين مختلفتين تمام الاختلاف، معيشيًا، وفكريًا، وثقافيًا.. اثنان على أقصى درجات التناقض والاختلاف، لكنهما يصنعان معًا أسطورة لتمام الاتفاق، والتعايش، والانسجام، وتكشف زوجته الثانية إيليني أنه كتبها فى إثر صحبته زوربا كشخصية حقيقية، وأنه كان يلقبه إعجابًا بـ«الغول»، ويضعه فى مصاف نيتشه وبرجسون وبوذا، انبهارًا بفلسفته الحسية فى الحياة، وقالت إنها لم تجد رسائل كازانتزاكيس لزوربا، لكنها وجدت رسالة من زوربا يقول فيها: «لا بأس! هذا كله تدركه أفضل منى.. أنا الآن لا أخشى الإله، لا أخشاه مطلقًا، مطلقًا. ربما يعود ذلك إلى أنى نفذت تعاليمه، لا أخاف الموت، لأنه لا يساوى شيئًا. وكما أنى لا أساوى شيئًا بدورى، فأنا لا أخشى أخطر عناصر الطبيعة، مهما فعلت، وحتى إذا جاء مذنب ليضربنا ويحولنا إلى سلاطة طماطم، فأنا أضحك.. وهى الرواية التى شبهها كازانتزاكيس نفسه بأنها «حوار بين كاتب فاشل ورجل حقيقى من عامة الشعب، حوار بين الروح المحامية وروح الشعب العظيمة»

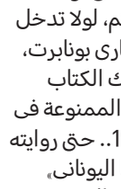

عبدالوهاب داود

1 المحب الخائن وطالب الرهبنة المهدد بالحرمان الكنسى

ربما كان ذلك هو السر فى أنه يظل نيكوس كازانتزاكيس، المولود فى الثامن عشر من فبراير عام ١٨٨٣، الكاتب اليونانى الأكثر شعبية وشهرة حول العالم، وتظل رواياته وأعماله الأدبية على قوائم الكتب الأكثر مبيعًا فى الأدب اليونانى الحديث، وفى مقدمتها رائعته «زوربا اليونانى»، التى تباع منها آلاف النسخ كل عام، خصوصًا بعد تحويلها إلى واحد من أهم علامات السينما حول العالم فى الفيلم الذى يحمل نفس عنوان الرواية، وقام ببطولته النجم الاستثنائى أنتونى كوين، بالإضافة إلى ثلاثة أفلام أخرى مأخوذة عن رواياته «الهوى اليونانى»، و«الإغواء الأخير للمسيح» للمخرج مارتن سكورسيزى عام ١٩٨٨، وكتاب «الإسكندر الأكبر»، ومع ترجمة كتبه إلى أكثر من ٤٠ لغة، وهى الكتب التى تزيد عن الثلاثين أثرًا أدبيًا، وتتوزع ما بين الشعر والرواية والمسرحية والسيرة والنقد والترجمة.. وليظل هو وحده، الروائى الأكثر إثارة للجدل، فهو السياسى والصحفى الذى يكتب الشعر والرواية، وينشر مقالاته فى الفلسفة وأدب الرحلات، المحب الخائن والأكثر ثقة فى زوجته، وهو الذى يحكى فى سيرته «تقرير إلى جريكو» عن حياته الأولى فى اليونان، وفشل محاولاته، صبيًا، للانخراط فى سلك الكنيسة، ويقول: «وبما أننى لم أستطع أن أكون قديسًا، أو بطلًا، فقد حاولت عن طريق الكتابة، أن أجد بعض العزاء عن عجزى».

وربما كان ذلك ما دفع المترجم والكاتب التونسى محمد على اليوسفى إلى الذهاب فى مقدمته لترجمة كتاب السيرة الذاتية، الذى كتبته زوجته الثانية إيلينى كازانتزاكيس ونشر بعنوان «المنشق.. نيكوس كازانتزاكيس»، إلى أن «هذا العمل المختلف والرائع، هو حياته التى أرادها كما عاشها، وعاشها أيضًا كما أرادها، لأنه كان يرفض كل ما هو مختلف عما رسمه لنفسه من مبادئ ورغبات وسلوك، ورؤية للعالم قبل كل شىء»، وهو ما يوضحه الكاتب السورى محمد العباس بقوله إن كازانتزاكيس هو ذلك الرجل الذى اندفع مرتين ليصبح قديسًا، وهو ذاته الذى أغضب العالم المسيحى بكتابيه المثيرين «الإغواء الأخير»، و«المسيح يُصلب من جديد»، وهو ذاته الذى ذهب إلى موسكو شيوعيًا، فلم يعثر فيها، بحسب قوله «على الجنة التى وصفها الشيوعيون التبسيطيون، ولا على الجحيم الذى أعلن عنه البرجوازيون الشرسون المتخوفون».

2 دارس الفلسفة المحارب.. والسياسى الغارق فى التأملات الروحية

مع زوجته

ولد نيكوس كازانتزاكيس فى ١٨ فبراير عام ١٨٨٣ فى جزيرة كريت، أكبر الجزر اليونانية، وأمضى طفولته فى الجزيرة التى خاضت حربًا شرسة ضد الأتراك لنيل حريتها واستقلالها، وكان والده أحد وجوه هذه الحرب، وعلى الرغم من أن الوالد لم يكن متعلمًا أو مثقفًا، فقد أراد لابنه أن يكمل تعليمه، فأرسله لدراسة الحقوق فى مدرسة القانون فى أثينا، حيث حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٠٦، ثم سافر لدراسة الفلسفة فى باريس، فتابع دروس هنرى برجسون حتى عام ١٩٠٩، وتأثر بفلسفة نيتشه، الذى قال إنه غيّر من نظرته إلى الدين والحياة والله، ودعاه إلى التمرد على أفكاره ومعتقداته القديمة كلها، حتى نظرته إلى الفن الذى أدرك أن دوره يجب ألا يقتصر على إضفاء صورة جميلة وخيالية على الواقع والحياة، بل إن مهمته الأساسية هى كشف الحقيقة، حتى لو كانت قاسية ومدمرة.

قضى كازانتزاكيس معظم فترة شبابه فى رحلات تأملية وروحية، فاعتكف زمنًا فى «جبل آثوس» فى شمال اليونان، وهو المعروف بالجبل المقدس، ويعتبر منطقة سكنية يقيم بها الرهبان من مختلف الكنائس الأرثوذكسية، ويحكى أنه حين كان طفلًا، ذهب إلى الميناء، وطلب من أحد القباطنة أن يأخذه إلى الجبل ليصبح قديسًا؛ لكن القبطان سخر منه وأعاده إلى بيته، وحين أصبح شابًا، بدأ رحلته نحو الرهبنة، بدءًا من الحج إلى أديرة اليونان وكنائسها، مرورًا بفلسطين، وانتهاءً بصحراء سيناء.. وهناك، بعد تفكير طويل، اتخذ قراره بالعودة إلى العالم الحقيقى، ساعده على ذلك أحد الرهبان الذى نصحه قائلًا: «عد إلى العالم، ففى أيام كهذه، وفى سن كمثل سنك، فإن العالم هو الدير الحقيقى الذى ستصير فيه قديسًا».

ومما يحكيه أنه عندما كان صغيرًا سئل: «ما الذى تعتزم كتابته؟ وعندما أجاب: «حياة القديسين وحياة جدى»، سأله محدثه: «وهل كان جدك قديسًا؟ ألم تقل إنه كان يحارب الأتراك؟! فكان رده معبرًا بوضوح شديد: «أوليس الأمران سواء».

بعد مغادرته باريس، سافر إلى فيينا، وهناك بدأ مرحلة التعرف إلى بوذا، حيث عكف على دراسة المناسك والتعاليم البوذية، فأحب بوذا بوصفه معلمًا ومرشدًا روحيًا ومخلصًا، وكتب فيه: «من بين الناس الذين ولدتهم الأرض جميعًا، يقف بوذا متألقًا فى الذروة، روحًا نقية خالصة، دون خوف أو ألم، مليئًا بالرحمة والحكمة، كان يمد يده ويفتح الطريق إلى الخلاص وهو يبتسم بوقار، والكائنات كلها تتبعه وتخضع بحرية ودون تفكير.. إنه يشمل برحمته كل شىء، ويخلص كل شىء».

زار خلال تلك الفترة العديد من أديرة اليونان وكنائسها، وزار القدس وسيناء فى مصر، وذلك قبل أن يتطوع فى الجيش اليونانى فى حرب «البلقان» عام ١٩١٢، ويتم تعيينه كمدير عام فى وزارة الشئون الاجتماعية فى ١٩١٩، ليتولى مسئولية تأمين الغذاء للجنود، وإعادتهم من القوقاز، ورغم نجاحه فى تلك المهمة، لكنه استقال من ذلك المنصب، وسافر إلى العديد من دول العالم، وعمل خلال تلك فترة فى الصحافة والترجمة وكتابة المناهج المدرسية، وكتب الكثير من المقالات والمسرحيات وكتب الرحلات، التى سجل فيها انطباعاته عن البلدان التى زارها، ثم بعد عودته عمل فى السياسة لفترة قصيرة، إلى أن تم تعيينه وزيرًا فى الحكومة اليونانية عام ١٩٤٥، حيث أصبح زعيم حزب صغير يسارى غير شيوعى، ودخل الحكومة اليونانية وزيرًا دون حقيبة، لكنه استقال من هذا المنصب فى العام التالى، حيث تم اختياره كمدير فى «اليونسكو»، لكنه لم يلبث أن استقال من منصبه هذا، لأنه كان يرفض تسلم راتب دون عمل، تمامًا كما رفض عقد دار نشر باريسية؛ لأنها اشترطت عليه الكتابة بالفرنسية، وهو المتمسك بموقعه فى الأدب اليونانى، والمحب للغته حد الهوس بترجمة ملاحمها، والترجمة إليها، وفى تلك الفترة عمل على ترجمة العديد من كلاسيكيات الأدب العالمى إلى اليونانية، فترجم روايات وأعمال دستويفسكى الكاملة، كما ترجم «الكوميديا الإلهية» لدانتى، و«عطيل» لوليم شيكسبير، و«دون كيخوت ديلامانشا» لثربانتس، و«هكذا تكلم زرادشت» لنيتشه، إلى جانب أعمال الفيلسوف الألمانى هيجل، وبرغم مؤلفاته الغزيرة والمتنوعة؛ فى المسرح، والشعر، والأدب، والكتب المدرسية، وترجماته لأهم الأعمال العالمية والإغريقية. فقد كان فقيرًا معدمًا، وواجه صعوبات كثيرة فى نشر أعماله لأسباب متعددة، ولم يستطع نشر استكماله لملحمة «الأوديسة» إلا بعد ثلاثين عامًا من كتابتها، وهى الملحمة التى أتلف نسخها أربعة مرات حتى وصل إلى صورتها النهائية التى رضى عنها أخيرًا فى ٣٣٣٣ بيت، كانت العقبة الدائمة فى حياته هى الأموال، فربما يتعاقد مع ناشر على كتاب ويبخسه حقه، أو يؤلف مسرحية لتمثل على المسرح اليونانى، لكن يخذلونه، لكن هذا أبدًا لم يجعله يفقد الأمل أو يتوقف، وفى نهاية حياته حينما مرض فى زيارته للصين، قبل وفاته بأيام قليلة فى ١٩٥٧، عاد إلى المشفى، وأرسلت «لجنة السلام الدولية» مبلغًا كبيرًا من المال، كمحاولة للإسهام فى نفقات علاجه، لكنه أصر على زوجته أن تعيد إليهم المبلغ كاملًا، ولو أضافت إليه تكلفة التحويل، ليعود إليهم كاملًا، ومعه برقية يقول فيها «الصداقة عندى أهم، لن نأكل الرز الذى يعود إلى الشعب الصينى»، بل إنه قام بإهداء ترجمة رواياته إلى الصينية دون مقابل.

حاول الالتحاق بسلك الرهبنة صغيرًا.. وكبيرًا كتب رواية منعتها الكنيسة وجهزت قرارًا بحرمانه لولا تدخلات سرية

3 ميثاق الأيام العشرة فى كل عام

تزوج كازانتزاكيس مرتين، كانت الأولى من جالاتيا إليكسيو فى عام ١٩١١، ولكنهما انفصلا فى عام ١٩٢٦، ثم تزوج إيلينى ساميو ستميوس فى عام ١٩٤٥، وهى صحفية وكاتبة يونانية تعرف عليها وقابلها لأول مرة فى أثينا عام ١٩٢٤، وكانت لم تتجاوز عامها الحادى والعشرين، فيما يخطو هو إلى عامه الحادى والأربعين، فأحبها، وارتبط بها، ولكنهما لم يتزوجا إلا بعدها بأكثر من عشرين عامًا، عندما أصبح وزيرًا، وكانت علاقتهما مثالًا صارخًا على رحلة التنقاضات التى حكمت حياته كلها، إذ اتفقا بعد لقائهما الأول على أن يتقابلا لمدة عشرة أيام فقط فى كل عام، وأن يتبادلا الرسائل وهما فى علاقة حرة تمامًا، والملفت أنه كان يكتب لها فى رسائله عن اليهوديات اللائى أحببن فى أسفاره، وكيف أنه حافظ على صداقتهن طيلة حياته، وقالت عن ذلك: «كل النساء اللائى أحببن حثثنه على العمل، كلهن ما عدا واحدة، إلسا».. و«كانت كل واحدة منهن تحبه بطريقتها الخاصة، وتأمل أن تراه يغير من طباعه، كما لو كان فى الإمكان مطالبة شجرة موز بإعطاء البرتقال»، «لقد علمنى كيف أحب كل النسوة اللائى أثرينه وصقلنه مثلما تفعل الموجة بالحصاة، والأصابع البارعة بحبة العنبر».

وهى التى خاطبها فى إحدى رسائله قائلًا: «يا أرملة يحبها رجل حى»، وكتب لها فى رسالة أخرى: «عندما أسافر أندم على اضطهادى لك»، فى إشارة إلى كثرة رحلاته، ولقاءاتهما القصيرة، المتباعدة، والتى تضمنها «ميثاق الأيام العشرة».

وفى كتابها «المنشق.. نيكوس كازانتزاكيس»، الذى لم تجرؤ على كتابته إلا بعد رحيله بعشر سنوات، واعتمدت فيه على جمع رسائله ومذكراته وبعض نصوصه غير المنشورة، تحكى إيلينى عن إصراره على أن تكتب هى سيرته الذاتية بقوله «عندما أموت، اكتبى عنى كتابًا»، فردت عليه «لا.. لابد من كاتب موهوب»، لكنه أكد طلبه قائلًا: «سوف تضعين كتابًا عنى يا لينوتشكا، عليك أن تفعلى ذلك، لأن الآخرين سوف يقولون عنى أشياء كثيرة غير دقيقة.. أنت الوحيدة التى تعرفيننى جيدًا».

فى ذلك الكتاب تقول إنه «كان نقيًا وبريئًا وعذبًا بلا حدود مع الآخرين، أما مع نفسه فقد كان شديد القسوة، ربما لإحساسه بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه، وحجم العمل المطلوب منه، ولأن ساعاته فى الحياة محدودة»، وبرغم الأسى والمرارة فى رسائله، إلا أنها كانت مليئة بالأمل والتصوف والحب، والنساء اللائى أحببن فى أسفاره قبل أن يتحولن إلى صديقات، لتبقى قصة حبه الفريدة لإيلينى، وتعلقه بها، حتى إنه يقول عنها «لو كنت مع رفيق درب آخر للعنت يوم ميلادى»، ويقول فى إحدى رسائله إليها: «إذا كتب البقاء لرسائل الأشهر الأخيرة، فإن الذين سيتصفحونها، فى المستقبل، لإتمام سيرتى الذاتية، سوف يقولون بأننى لم أحب أحدًا باستثناء الفتاة التى يبدأ اسمها بحرفى «إ. س»، وهى يقينًا إيلينى ستميوس».

الملفت أن كازانتزاكيس لم يتمتع بشهرة واسعة فى حياته، ولم يكن يثق فى قدرته على كتابة الرواية، وأتلف أعمالًا كثيرة، ولولا دفع وتشجيع زوجته لما كتب تلك الأعمال التى أكسبته شهرته العالمية، أما عن صداقاته، ومحبة الآخرين له، فقد عاش يحصد الأصدقاء والأعداء، المحبين والكارهين، أفرادًا وجماعات، لتبقى إيلينى وحدها التى تترقق لغته كلما تحدث عنها «إن زوجتى هى التى مازالت تشدنى إلى مجتمع البشر وتمنعنى من التوحش»، ويخاطبها بكثير من الرقة والأمل «لحسن الحظ أنك ستأتين بعد ثلاثة أسابيع، وسوف تصالحيننى مع بنى البشر».

ويكفى على سبيل المثال، أن نعرف أنه فى عام ١٩٥٦، ترشح للفوز بجائزة نوبل، لكنه خسرها بفارق صوت واحد فى التصويت، فذهبت الجائزة إلى الفيلسوف العبثى والروائى والكاتب المسرحى الفرنسى ألبير كامو، فكتب إلى زوجته حين وفاته رسالة مؤثرة قال فيها: «لقد كنت أكن له الكثير من الإعجاب، وإذا أجزت لى نوعًا من المودة لآثار زوجك، فلا أنسى يومًا بعينه، كنت أسفت فيه على نيل جائزة كان كازانتزاكيس يستحقها أكثر بمئة مرة، فإذا بى أتلقى منه أكثر البرقيات كرمًا، وبغيابه يختفى واحد من أواخر الفنانين الكبار، وأنا من أولئك الذين يستشعرون وسيواصلون استشعار الفراغ الذى خلفه».

نلتقى فى أغسطس

أسرار نشر رواية ماركيز الأخيرة التى قال عنها «لا تصلح.. يجب تدميرها»

كان الوسط الثقافى العالمى على موعد مع حدث فى غاية الأهمية، الأربعاء الماضى، بالإعلان عن طرح رواية «نلتقى فى أغسطس» للكاتب الأشهر صاحب الشعبية الطاغية غابرييل غارسيا ماركيز، التى تُنشر للمرة الأولى.

وأثار طرح الرواية حالة كبيرة من الجدل، فى ظل تخوف الملايين من محبى «ماركيز» حول العالم من تشويه إرثه الأدبى، عبر نشر عمل «غير مكتمل» له، فصحيح أن الأديب الراحل عمل على «نلتقى فى أغسطس» بجد وتفانٍ، لكن تدهور ذاكرته فى سنواته الأخيرة أخر نشرها، ولم يعطها حقها فى مراجعة وتنقيح المسودة الخاصة بها من الأساس.

بل إن «ماركيز» نفسه رفض نشر هذه الرواية، وقال عنها قبل سنوات قليلة من وفاته: «هذه الرواية لا تصلح للنشر. يجب تدميرها». ومع ذلك، قرر نجلاه «رودريجو» و«غونزالو» استعادتها من أرشيف جامعة «تكساس» الأمريكية ونشرها، مع اقتراب الذكرى السنوية العاشرة لوفاة الكاتب الكبير.

لكن «رودريجو» دافع عن قرار الأسرة بنشر الرواية، قائلًا: «فى نظرى أنه عندما قال إن العمل لا يصلح، فقد كان فاقدًا للقدرة على الحكم بشكل سليم على العمل، إن هذه الرواية ليست بنفس قيمة رواياته الأخرى، ولكنها لا تعتبر ذنبًا، أو بمثابة كارثة لا يمكن تجاوزها، ولكنى أظن أنه كان فى حالة صحية لا تجعله من إدراك أو الحكم على الأشياء».

شبكة «بى بى سى» كان لها حوار مع مُحرر الرواية، كريستوبال بيرا، والذى نترجمه لقراء «حرف» فى السطور التالية، لنتعرف على أبرز كواليس الرواية الأخيرة لـ«ماركيز»، تلك التى وصفها بأنها «لا تصلح للنشر ويجب تدميرها».

حوار: سانتياجو فانيجاس

ترجمة: يوسف الشريف

ماركيز وكريستوبال بيرا

■ كيف وصلت إلى رواية «نلتقى فى أغسطس»؟.. وما الذى دار بينك وبين جارسيا ماركيز حول هذه الرواية؟

– كنتُ مُحررًا لـ«جارسيا ماركيز» منذ عام ٢٠٠١، عندما تعاونت فى تحرير مذكراته: «عشت لأروى»، لتبدأ علاقتى بالمؤلف كمحرر له عن بُعد، وهى العلاقة التى استأنفناها وجهًا لوجه بعد ذلك، عندما ذهبت إلى المكسيك فى ٢٠٠٦، ثم استمرت علاقتى معه فى تحرير «لم آت لألقى خطابًا»، وهو الكتاب الذى جمع كل خطاباته، ونُشر فى ٢٠١٠.

وأخيرًا، كما ذكرت فى ملاحظة المحرر الواردة فى الرواية الأخيرة، طلبت منى وكيلة جارسيا ماركيز، كارمن بالسيز، عام ٢٠١٠، أن أشجعه على إنهاء روايته «نلتقى فى أغسطس»، والتى لم أكن أعرف عنها شيئًا، وعندما عدت إلى المكسيك، أخبرته بذلك، وكان قد انتهى بالفعل من المسودة الأولى للرواية فى ٢٠٠٤.

فى ذلك الوقت، ٢٠١٠ و٢٠١١، بدأ ينسى، كان قد بدأ بالفعل فى نسيان الكثير من الأشياء تدريجيًا، ولم يكن يستطيع أن يعمل على تطوير الرواية، لكنه كان مكرسًا جهده على تصحيح كلمة أو جملة لتحسينها، وهنا برزت عبقريته، فى تلك التصحيحات الصغيرة.

تمكنت من قراءة ٣ أو ٤ فصول من الرواية بصوت عالٍ أمامه، وأعجبنى الأمر كثيرًا، لاحظت أن الموضوع كان جديدًا عليه أيضًا، مع بطلة لم تظهر فى أعماله السردية السابقة، واستمر فى تدوين الملاحظات، فى نسخة خامسة من بين النسخ التى كان يعمل عليها، حتى توقف أخيرًا مع تقدم مرضه.

■ ماذا حدث للرواية بعد وفاة جارسيا ماركيز عام ٢٠١٤؟

– بعد وفاته، رأت العائلة أن الوقت لم يحن بعد لنشر تلك الرواية، والتى كان قد صرّح أيضًا بعدم رغبته فى نشرها فى سنواته الأخيرة.

وصلت جميع أوراق جارسيا ماركيز، بما فى ذلك هذه المخطوطة، إلى جامعة «تكساس» فى «أوستن»، لتصبح جزءًا من الأرشيف الكبير لـ«جارسيا ماركيز»، ولم تكن هذه الرواية متاحة للجمهور فى البداية، لكن بعض الناس تمكنوا من رؤيتها.

بعد أن رأى بعض الناس المخطوطة، وقالوا إنها جيدة جدًا ويجب نشرها، قرر أبناء جارسيا ماركيز أخيرًا تجاهل رغبة والدهم ونشرها، وهنا طُلب منى العمل على النسخة النهائية للرواية.

■ ما العلاقة التى ربطت جارسيا ماركيز بروايته «عن الحب وشياطين أخرى» بخلاف تجاهله لها فى سنواته الأخيرة؟ ما رأيه فيها؟

– فى مقابلة أجريت معه فى مدريد، عندما قرأ الفصل الأول من هذه الرواية علنًا، أخبر «ماركيز» الصحفية أنه كان يكتب سلسلة من الروايات القصيرة، حول موضوع «الحب فى مرحلة النضج»، و«عن الحب وشياطين أخرى» كانت جزءًا من ذلك.

عندما عاد إلى منزله، عام ٢٠٠٢، بعد تعافيه من السرطان فى «لوس أنجلوس»، عاد إلى مخطوطة ما ستصبح لاحقًا «ذكريات غانياتى الحزينات»، وأنهى كتابتها فى غضون عام، ونُشرت بالفعل، ثم كرس عامًا كاملًا للعمل على مسودة رواية «نلتقى فى أغسطس».

أرسل لاحقًا مخطوطة إلى وكالة «بالسيز»، وهى النسخة الخامسة التى تخلى عنها، تخلى عنها بمعنى كان راضيًا عنها إلى حد ما، كما أخبر سكرتيرته مونيكا ألونسو، والتى تلعب دورًا أساسيًا، فهى من كانت تساعده وتحتفظ بالمخطوطات.

فى سنواته الأخيرة، عندما بدأت ذاكرته تخونه، ولم يتعرف على أشياء كثيرة، ذكر عدة مرات أنه لا يريد نشر الرواية، وأنها ليست جاهزة، إلخ، لكن، كما يقول أبناؤه فى مقدمة الكتاب، الرواية لم تكن مصقولة، لكنها كانت مكتملة، كما سيرى القراء. لم أضطر إلى إضافة أى كلمة، بالطبع. لا داعى لأن أقول إننى لم أضف أى شىء.

■ ما التفاصيل التى يمكنك إخبارنا بها عن عملية تحرير الرواية؟ وما التحديات التى واجهتها؟

– كان التحدى الأكبر هو الاحترام المطلق لعمل جارسيا ماركيز، وهذا عمل ذو مسئولية هائلة. لحسن الحظ، أتيحت لى فرصة التعاون والعمل معه عن قرب، أكثر من مرة، وبالتالى كنت أعرف عمله جيدًا، وأسلوبه، وعملت معه فى التصحيحات، وكنت أعرف الطريقة التى يعمل بها، وهذا ساعدنى.

كان أهم شىء هو قراءة المخطوطة الكاملة، والتحقق من وجود القصة كاملة وناضجة، لم يكن هناك ما يمكن فعله لإنهاء أى شىء أو إضافة جملة أو نهاية، كان كل شىء موجودًا.

لقد قمت بعملى كمحرر مع المخطوطة، التى كانت موجودة فى مستند «Word»، والنسخة أو المسودة الخامسة، التى تركها مطبوعة مع العديد من التعليقات المكتوبة بخط اليد على الهوامش، مع التغييرات التى يجب أن تُضاف، وأشياء من هذا القبيل. هذه الأشياء التى ساعدتنى فى عملية التحرير، للوصول إلى النص النهائى.

أى إننى لم يكن على سوى السير وفقًا لما هو مكتوب بالفعل، ومخطط له، هذه هى الأشياء المتاحة لى كمحرر، والتى استطعت أن اتخذ قراراتى فى ضوئها. على سبيل المثال، كان يمكن أن أحذف عبارة أو جملة، شطبها هو بنفسه.

■ ما الذى تقصده بذلك على وجه التحديد؟

– هناك مثالان ذكرتهما فى ملاحظاتى كمحرر.

فى الرواية، تنتهى البطلة فى نهاية الفصل الأخير وهى فى سن الـ٥٠، ما يعنى أن عمرها فى الفصل الأول هو ٤٦ عامًا.

المسألة هى أنه فى الفصل الأول، يصف البطل الشخصية الرئيسية كأنها امرأة تقترب من سن الشيخوخة، وهو نفسه يضع علامة على هذه الجملة، ويضع علامة استفهام عليها.

من الواضح أنه كتب الفصل الأول قبل أن يكتب نهاية الرواية بكثير، وحين أعاد القراءة فى وقت لاحق أدرك أن امرأة تبلغ من العمر ٤٦ عامًا ليست قريبة مما نفهمه من سن الشيخوخة.

فى تلك اللحظة- بصفتى محررًا- ببساطة أستطيع أن أفسر هذه العلامة التى تركها، وأفهم ما كان يريد قوله من خلالها، فأزيل هذا الإشارة إلى سن الشيخوخة، ولا يرتبك القارئ، لأنها امرأة تبلغ من العمر ٤٦ عامًا.

مثال آخر هو أن البطلة تلتقى برجل فى الفصل الأول، وفى الفصل الأخير، بعد سنوات، تلتقى به مرة أخرى، فى شارع بمدينة ساحلية، ولا تتعرف عليه فى البداية، لأنه يقول إنه أصبح له شاربًا لم يكن له عندما التقت به.

وفى الفصل الأول، يظهر الرجل بالفعل بشارب.

هذه مسائل تتعلق بالتماسك والنضج السردى، الذى كان سيراه بنفسه حين يراجع النص مراجعة نهائية. لذا كان من الضرورى إزالة ذكر الشارب من ذلك الفصل الأول، لكى يكون لهذه الإشارة الأخيرة معنى.

ببساطة كانت تدخلاتى كالتالى:

– اتباع جميع الجمل التى ترك تعليقات عليها، بما يتيح التحكم ببساطة فى التماسك السردى للنص والتسلسل الزمنى والأسماء، إلخ. أرجو أن يكون هذا التفسير مفيدًا.

– بعد ذلك، ما كان علىّ فعله هو بعض التغييرات التى جاءت من التحقق من البيانات والمعلومات المذكورة داخل النص، مثل أسماء المؤلفين المذكورين، وهذا هو العمل الطبيعى للمحرر، وهو تقديم بعض الأسئلة المتعلقة بتماسك النص نفسه.

■ ما الذى تمثله هذه الرواية فى أدب جارسيا ماركيز، خاصة أنها آخر عمل ينشر له فى مسيرته؟

– القراء هم من سيصدرون حكمهم على «نلتقى فى أغسطس»، وأعتقد أن هذه الرواية تُسدل الستار على جميع أعماله السردية ببراعة، وأنه فى أعماقه كان مدركًا لذلك.

إنها رواية لها بطلة نسائية، لم تكن موجودة فى أى من رواياته السابقة. والنساء مهمات جدًا فى رواياته، منذ «مائة عام من العزلة» وفى جميع سردياته، لكن لم يكن لهن دور بطولى مثل دور «آنا ماجداليا باخ»، بطلة «نلتقى فى أغسطس»، وهى امرأة تقرر استكشاف حياتها الجنسية وحريتها، ويسبب لها ذلك صراعات، لكنها تستمر فى ذلك الطريق، على الرغم من أنها امرأة سعيدة نظريًا، ولا تملك أسبابًا موضوعية أو حقيقية للقيام بكل ما قامت به داخل الرواية، أو ما سنعرفه عند القراءة.

لهذا السبب، وصفها ابنه «رودريجو» بأنها «رواية نسوية». أعتقد أن هذه الرواية تجعلنا نعيد النظر إلى جميع أعمال جارسيا ماركيز، خاصةً دور المرأة فيها، ليبدو أننا نعيد اكتشاف روايات وأعمال «ماركيز» بعد قراءة هذه الرواية، وأعتقد أن هذا هو السبب فى أهميتها.

بعد ذلك، من حيث أسلوبه فى السرد، تحدث الرواية فى مكان وزمن غير محددين، ربما فى الثمانينيات أو التسعينيات، فوق جزيرة على ساحل كولومبيا، لكن لا يُعرف ذلك على وجه اليقين، فهو لم يرد ترك علامات محددة على المكان، وهذا أمر جديد.

> مُحرر العمل: كانت مكتملة ولم أضف كلمة.. ورفضها فى وقت ضعف ذاكرته

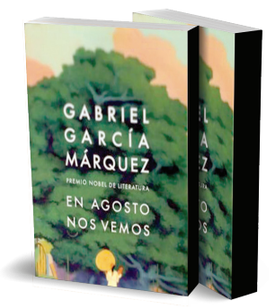

- ولد المخرج المسرحى عصام السيد عام 1952 ودون شك تفتحت عيناه على العالم فى لحظة فارقة من عمر التاريخ المصرى، لحظة شهدت تحولات جذرية فى مسار هذا الوطن، وتفتح وعيه فى ظل هذا التحول الذى حمل معه تغيرات سياسية وثقافية واجتماعية فى المجتمع المصرى، ودون شك آمن هذا الجيل بشعارات يوليو والحقبة الناصرية بكل تجلياتها، وشارك فى الحياة السياسية مطلع السبعينيات التى شهدت تحولات أخرى كان لها تأثير كبير على هذا الجيل بعد أن هوت مطرقة 67 على رءوس الجميع، تغيرت قناعات، وتبددت أحلام، ليقف هذا الجيل من المسرحيين على تخوم النهضة التى صنعها جيل الستينيات، يشاهد ما تبقى من آثارها ويعيش بدايات السقوط والتراجع، وكان لزامًا عليه أن يبحث عن طريق بعد أن انحرف القطار عن مساره، القطار الذى كان يسير بسرعة هائلة، توقف ثم خرج عن مساره! فكان أمام هذا الجيل البحث عن طرق أخرى مختلفة عن مسار جيل الستينيات، كان عليه أن يقرأ التحولات التى شهدها المجتمع المصرى فى سبعينيات القرن العشرين.

مسرحية تكسب يا خيشة

مسرحية عبده يتحدى رامبو

عصام السيد:

ليس عندى أسلوب.. وعلى المخرج المسرحى أن يسأل نفسه.. من هو جمهوره؟

كان التاريخ رحيمًا بهذا الجيل الذى صدمته نكسة ١٩٦٧، فلم تمر سوى ست سنوات حتى تحقق نصر أكتوبر ٧٣ فشعر هؤلاء بشىء من الطمأنينة ولكن كانت حقبة السبعينيات زاخرة بالأحداث القوية ومنها الانفتاح الاقتصادى الذى لم يقتصر على البضائع المستوردة من ملابس وأجهزة كهربائية وسجائر وغيرها، بل كان تأثيره المدوى على القيم والثوابت، فتغير الجمهور، جمهور المسرح الذى آمن بالحراك الثورى بعد يوليو ١٩٥٢ وعاش مبادئ الاشتراكية ونال نصيبه من قوانين الإصلاح الزراعى، كما نال نصيبه أيضًا من سطوة السلطات التى استضافت عددًا كبيرًا من أهل الرأى فى معتقلاتها، ومع هذا شهدت الستينيات نهضة أدبية وفنية لا يمكن إنكارها، وكان على الجيل التالى للستينيات الذى أسميه «جيل النهضة والسقوط» أن يبحث عن طريق فى خضم هذه التحولات الكبرى التى شهدها المجتمع، وكان على هذا الجيل من مخرجى المسرح ومنهم محسن حلمى وعصام السيد وناصر عبدالمنعم ورفاقهم أن يعلنوا عن اختلافهم من خلال أساليب واتجاهات جديدة فى الإخراج المسرحى، وأيضًا البحث عن نصوص مسرحية تقرأ أسئلة اللحظة وتحولات المشهد ما بعد الستينيات. وفى هذا الحوار أطرح على المخرج المسرحى عصام السيد هذه الأفكار حول جيل ما بعد الستينيات وكيف اشتبك مع الواقع فى سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى وصولًا إلى العقد الثالث من القرن الواحد والعشرين.. حيث قدم عصام السيد ما يزيد على ٦٠ عملًا مسرحيًا احترافيًا منذ عام ١٩٨١ وحتى الآن فى مسرح الدولة والقطاع الخاص، والتليفزيون، والثقافة الجماهيرية، والاحتفالات القومية، انحاز خلالها إلى الظواهر المسرحية الشعبية المصرية مع الأخذ فى الاعتبار الاستفادة من المناهج الإخراجية العالمية.

■ حين تقدم عرضًا مسرحيًا ماذا تريد، أى ما الهدف من المسرح، ما الغاية التى تسعى إليها من العرض المسرحى، هل هى أهداف ذاتية تتعلق بذات المبدع، أم أهداف عامة تتعلق بالجمهور وقضايا اللحظة الراهنة، أم كلاهما معًا؟

- لا بد وأن ننظر إلى فترة التكوين للإجابة على هذا السؤال: أنا ابن الطبقة المتوسطة التى اهتمت بتعليم أولادها كوسيلة للصعود الاجتماعى أو على الأقل الحفاظ على مكانتهم فى نفس الطبقة، ولكنها اهتمت أيضًا بتثقيفهم وصادف هذا اهتمام من الدولة، أذكر أننا صيفًا كانت المتعة المتاحة والمجانية أن نشترك فى مكتبة شبرا العامة ونستعير منها الكتب، كما كانت مكتبة الوالد مليئة بكتب الأدب والشعر، إذن هنا أرضية ثقافية تتكون وتمهد لتكوين ثقافى مختلف، أذكر أننى فى فترة الثانوى كنت أشترى من مصروفى كتاب الهلال، وأيضًا روايات الهلال التى كانت تنشر عيون الأدب، ففيها قرأت أمريكا لكافكا وهملت شكسبير بترجمة جبرا ابراهيم جبرا على سبيل المثال لا الحصر، وفى الجامعة كنت اشترى أعداد مجلة الطليعة بانتظام، وهذا وفر لى خلفية ثقافية إلى حد ما.

وخلال الأحداث التى مرت على الوطن تأثر كل فرد حسب ثقافته واهتمامه بالشأن العام، وحيث إننا كجيل وضعنا طوال الوقت فى ظروف استثنائية: حرب ٥٦، الوحدة، الانفصال، حرب اليمن، التحول الاشتراكى، النكسة، حرب ٧٣، الانفتاح الاقتصادى، صعود الجماعات الإسلامية، الصلح مع العدو، اغتيال رأس الدولة، انتشار حوادث الإرهاب، التوريث، ثورة ٢٥ يناير، حكم الإخوان، ثورة ٣٠ يونيو، كلها أحداث تنقلك من الساخن إلى البارد والعكس بسرعة رهيبة لا تعطيك الفرصة للتكيف أو حتى استيعاب المتغيرات وكلها أثرت على جيلنا.

■ إذن أنت تعنى أن هذه الأحداث التى ازدحمت بها الطفولة وسنوات التكوين وامتدت لترافقك سنوات طويلة كان لها دور أساسى ليس فقط فى تحديد مسارك المسرحى بل فى انحيازك الفكرى والأيديولوجى؟

- هذه حقيقة وأقول لك: إننى حين التحقت بجامعة عين شمس فى ١٩٧٠ كانت تزخر بتيارات سياسية كثيرة ومتناحرة وتحاول استقطاب الطلاب، ما بين تنظيمات يسارية وأخرى ناصرية وتيارات ليبرالية غير منظمة أضيفت لهم تيارات إسلامية من بعد عام ٧٥ وكنا بحكم التجاور نطلع على أفكار كل التيارات. حتى النشاط الفنى فى الجامعة ارتبط بالسياسة أو لنقل كان له ارتباط وثيق بالمجتمع، فاتحاد طلاب جامعة عين شمس الذى ارتبط فى غالبه بالتيار الناصرى كان صيفًا يقوم برحلات فى القرى تسمى «قوافل فنية» لتقديم عروض مسرح وموسيقى وكورال وفنون شعبية فى المناطق المحرومة، وفيما بعد صاحبت القوافل بعض المساعدات الطبية، أذكر على سبيل المثال أن أول عرض من إخراجى لمنتخب الجامعة كان «الفيل يا ملك الزمان» للسورى سعد الله ونوس فى أول تقديم له فى مصر وعرضت فى مصنع كيما بأسوان حيث شاهدها العمال. وشهدت الجامعة فى نفس الفترة حراكًا ثقافيًا، ساعدنا فيه الكبار على أن ننهل من الثقافة العالمية ويكفى مثلًا أن يتعرف طالب على سعد الله ونوس ليقدمه لأول مرة فى مصر ولو ذكرت لك أسماء من أبناء جيلى فى الجامعة ممن استمروا فى الحقل الفنى لوجدت فيهم مثالًا طيبًا للفنان الملتزم بقضايا بلده. وهكذا وبسبب هذا التكوين الثقافى والبيئة الحاضنة سواء على مستوى الأسرة أو مرحلة التعليم الجامعى جعل هناك ارتباطًا بالشأن العام لا أستطيع الفكاك منه، ولذا فاختياراتى كلها تنحاز لمسرح ملتزم، حتى عندما أقدم مسرحًا تجاريًا يسعى للترفيه فقط فهو مسرح لا يسعى للتغييب. وحتى عندما ظهرت تيارات تنفى أن للفن رسالة وتنحى إلى مغامرات فنية ليس لها جذور مجتمعية، كنت أنصح تلاميذى بألا يقدموا مسرحًا يشاهدونه هم وزملاؤهم فقط.

> قدمت أكثر من ستين عرضًا مسرحيًا تخلو من النصوص الأجنبية

مسرحية البعبع

> فى كل أعمالى أخلط بين أساليب ومناهج إخراجية مختلفة

■ حين تختار نصًا مسرحيًا، هل تدور هذه الأسئلة بذهنك، وأقصد هذه القضايا الفكرية التى بدأت من سنوات التكوين؟

- تعلمت فى بداية حياتى أنه على المخرج أن يسأل نفسه قبل تقديم أى عمل: من هو جمهورك؟ وبالتالى كان هذا السؤال دائمًا وأبدًا ما يحدد اختياراتى، والمسرح لا يصلح بلا جمهور، وأيضًا مسرح النخبة أو المتعالى على الناس لا أبتغيه ولا أفضله. ومن خلال الإجابة على سؤال من هو جمهورك ستحدد ما الغاية من العرض وسيحدد كل هذا ما الهدف من المسرح ولكن لا بد من الإقرار هنا بأنه مهما كانت الرسالة التى يتضمنها العرض، أو ارتباطه بالقضايا الراهنة فلا بد أن يتوفر فيه «المتعة» فلا فن بلا متعة، هكذا تعلمنا من أبو المسرح السياسى الكاتب الألمانى برتولد بريشت.

■ أنت تختار النصوص بمواصفات، لك معايير خاصة، فحين تختار، على سبيل المثال سعد الله ونوس، نعمان عاشور، لينين الرملى الذى قدمت له عددًا كبيرًا من النصوص، وغيرهم، ومن ناحية أخرى قدمت عروضًا عن نصوص متواضعة فى المسرح التجارى.. لماذا؟

- المسرح هو المسرح فى جميع الأماكن والجهات سواء الخاص أو العام، وأنا دائمًا أبحث عن النص الجيد، والنصوص التى قدمتها للمسرح التجارى لم تكن متواضعة بدليل أن فيها نصين للينين الرملى، ونصًا لألفريد فرج، ونصًا مأخوذًا عن داريو فو، وقدمت مع سعيد صالح مسرحًا سياسيًا، حتى عندما قدمت مسرحًا للفضائيات العربية كان يتكلم عن الهم السياسى والاجتماعى المصرى، هل هناك من قدم مسرحًا فى قناة تليفزيونية عربية يناقش الحد الأدنى للأجور، وقضايا كالتحرش ونظام التعليم... إلخ.

كما أن معظم النصوص الأخرى التى قدمتها فى القطاع الخاص مأخوذة من نصوص أجنبية. ولذا فنادرًا ما تجد نصوصًا متواضعة كما قلت كل ما فى الأمر أنك لا تستطيع الحكم على النصوص فى القطاع الخاص بعد فترة من العروض وتدخلات وارتجالات السادة الممثلين، بالإضافة إلى أن مقياس النص الجيد لم يعد مدى تطابقه مع القواعد الأرسطية، فهناك مسرح ما بعد الدراما الذى مارسته منذ درب عسكر ولم أكن قد قرأت عنه.

■ وفى سياق تجربة لينين كيف استفدت من هذه التجربة، وهل تعاملك مع كاتب واحد فيما يزيد على عشرة عروض يضيف لك أم من الأفضل التنقل بين تجارب عديدة، وهل هذا أيضًا مفيد للكاتب؟

- عشرة عروض من ما يزيد على ٦٠ عرضًا نسبة ليست كبيرة، ولكن ارتباطى بلينين جاء لأسباب فنية بحتة، فنحن مختلفان سياسيًا ولكنى خلال رحلتى كانت نصوص لينين الأكثر إحكامًا والأكثر ارتباطًا بواقعنا، بالإضافة إلى نوع من التفاهم ما بيننا لم يحدث بينى وبين أى مؤلف آخر وربما مقالتى عن لينين «ضحك كالبكاء» توضح عناصر هذا التفاهم.

■ قدمت ما يقرب من ستين عرضًا مسرحيًا تخلو تقريبًا من النصوص الأجنبية.. لماذا؟ وهل كان قرارًا أم مجرد صدفة؟

- قدمت أكثر من ستين عرضًا مسرحيًا تخلو من النصوص الأجنبية لأننى وجدت نصوصًا مصرية تتكلم فى قضايا أقرب إلينا من النصوص الأجنبية، وفى فترة معينة كنت أعتبر النصوص الأجنبية وسيلة هروب من مواجهة مشاكل المجتمع إلا أننى استفدت من نصوص أجنبية تم تمصيرها أو اقتباسها فى القطاع الخاص.

■ مارست الإخراج المسرحى فى القطاع الخاص، ومسرح الدولة والثقافة الجماهيرية، ومسرح التليفزيون، ومؤخرًا الفضائيات، كيف استطعت أن تحافظ على شخصيتك، أسلوبك كمخرج بين هذه الاتجاهات التى يصل الخلاف بينها إلى حد التناقض؟

- أكرر هنا أن المسرح بالنسبة لى هو المسرح مهما اختلفت جهة الإنتاج، وحاولت طوال حياتى ألا أقدم ما أخجل منه فيما بعد- أقول حاولت- ولكننى هنا لا بد أن أتوقف لأوضح أمرين:

الأول: ليس لى أسلوب محدد فى الإخراج، وتلك ميزة لى فلم أكرر نفسى، فالنص هو ما يفرض على طريقة تقديمه وكذلك توقيت تقديمه، فعلى سبيل المثال: تعمدت أن أقدم «فى بيتنا شبح» عام ٢٠١٢ بأبسط طريقة ممكنة وبأسلوب تقليدى «برغم أن النص ممتلئ بالرموز والإسقاطات»، وكان من الممكن تناوله فى فترة أخرى بأسلوب إخراجى مختلف ولكنى كنت أريد الوصول إلى أبسط المتفرجين تفكيرًا، فالعرض يتم تقديمه فى فترة ساخنة سياسيًا وفى مسرح ميامى بوسط البلد وعلى مقربة منك فى ميدان التحرير لا تزال المظاهرات مشتعلة. ومثال آخر: عندما قدمت «وباحلم يا مصر» كانت عينى على جيل الشباب الذين لا يعرفون رفاعة الطهطاوى، ولذا كان العرض يستخدم أساليب حديثة مع اهتمام شديد بالمتعة البصرية ووجود أغانٍ بألحان تتوافق مع جيل الشباب، ولذا وبرغم أن العمل به كثير من المعلومات ويكاد يشبه المسرح التسجيلى لكن جيل الشباب أحبه وأقبل على العرض، ولكن صادف العرض كثيرًا من سوء الحظ فى إغلاقات متكررة لأسباب سياسية وفى النهاية إغلاق تام لأسباب شخصية.

الثانى: أننى فى كل أعمالى أخلط بين أساليب ومناهج إخراجية مختلفة وأتوخى أن تكون النتيجة النهائية ممتعة، فحتى لو لم تصلك رسالة العرض فعلى الأقل ستستمتع ولن تغادر مقعدك قبل نهاية العرض، وهذا مهم جدًا فى أى عرض مسرحى سواء كان فى القطاع العام أو الخاص... «وللحديث بقية».

غالى شكرى وهوية مصر الحضارية

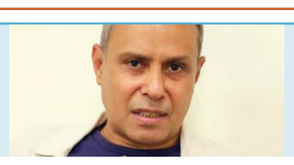

جرجس شكرى

أسس غالى شكرى «١٢- مارس ١٩٣٥- ١٠ مايو -١٩٩٨» مشروعه الثقافى على مدى أربعين عامًا منحازًا للقيمة الجمالية الحية وارتباطها بالحياة والإنسان، وكناقد سسيولوجى وضع الخلفية الاجتماعية والواقع العربى فى مخيلته مستعينًا بمناهج النقد المعاصر دون تقليدها أو تطبيقها تطبيقًا تعسفيًا كما يحدث فى أغلب الأحيان، وأستطاع أن يرصد ويقرأ واقع الأدب العربى من خلال خمسة وأربعين كتابًا، لم تكن فقط بمثابة النقد والتحليل للأدب والفكر، ولكن ليؤسس بها مشروعًا فكريًا ليبراليًا ساهم فى الفكر العربى من الستينيات حتى رحيله، لقد كان غالى شكرى، الذى اتخذ من علم اجتماع الأدب أداة لقراءة الواقع، ليس فقط ناقدًا أدبيًا متميزًا بل ناقدًا للفكر السياسى فى المجتمع، فما قدمه على مدى أربعة عقود أقرب إلى وصف مصر، قراءة لعقل الثقافة المصرية، الأفكار والآراء، القديم والحديث من الأعراف والتقاليد، فلم يكتب عن نظريات وأعمال أدبية، بل عن وقائع وأحداث عاصرها وشارك فيها.

أدرك غالى شكرى مبكرًا هدفه ومنهجه كناقد ومفكر حين أعلن عن أصل الداء ممثلًا فى غياب الأرض الفكرية من تحت أقدام الباحث المصرى، هذا الغياب الذى باعد بينه وبين الدراسات الفكرية، ففى أول كتبه، الذى صدر ١٩٦٢ «سلامة موسى وأزمة الضمير العربى» حذر من خطورة عدم وجود خريطة فكرية واضحة ترسم خطًا بيانيًا للحركة الفكرية المصرية خلال الخمسين سنة الماضية أى النصف الأول من القرن العشرين وحدد ثلاثة عناصر للمكونات الفكرية لهذه الأرض، الخريطة الفكرية، والمعايير المحددة لحركة الفكر فى بلادنا والمفهوم الشامل المحدد لحركة التاريخ، وكانت صدمته كبيرة؛ لأننا لم نتوصل إلى مفهوم علمى وشامل لحركة التطور الاجتماعى فى تاريخنا الحديث، لذلك سعى فى أعماله لرسم هذه الخريطة واكتساب مساحة جديدة فى هذه الأرض، من خلال تقييم الحياة الفكرية الحديثة، وأخذ على عاتقه رصد وتسجيل المادة الخام لهذا الفكر فى صورتها الكلية الشاملة، فقد أقام حوارًا مع معظم الشخصيات التى تناولها بالدرس والتحليل، فكان أقرب إلى المؤرخ الذى عاصر وشاهد الأحداث، لكنه لم يسجلها فقط، بل أخضعها لعملية شاقة من البحث والدرس والتحليل، وكان من الطبيعى أن تجد صورة حية لتاريخ الفكر المصرى الحديث فى أعماله.

لقد كرّس كل أعماله لكشف أمراض المجتمع المصرى بروح الكاتب والباحث الثائر والمتمرد بجرأة توقفت أمامها كثيرًا، فثمة مبادئ لا يتخلى عنها فى كتابته فى الأدب والسياسة والاجتماع، فى الشعر والقصة والمسرح ممثلة فى انتمائه للثقافة المصرية، فهوية مصر الحضارية الممتدة عبر التاريخ من الثوابت التى لا يمكن التخلى عنها، أو النظر إلى قضايا اللحظة الراهنة بمعزل عن هذا التاريخ، وأن أى مساس بالوحدة الوطنية يعنى خطرًا داهمًا على مصر والمصريين، فضلًا عن إيمانه بالعروبة، وإنحيازه للفكر الماركسى، فثمة ثوابت لا يتخلى عنها فى كل أعماله.

قرأ ثنائية النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث، حين رصد النهضة العربية التى بدأت فى القرن التاسع عشر حتى مرحلة السقوط، وهى الأطروحة التى تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من السوربون حين اتخذ من التحليل الاجتماعى للثقافة منهجًا؛ ليستخلص القوانين الاجتماعية الثقافية المضمرة فى ظاهرة النهضة والسقوط، ثم دراسته الجريئة حول الثورة المضادة فى مصر، والتى تقرأ بدقة وشجاعة أسباب انهيار المجتمع المصرى فى سبعينيات القرن الماضى، ليفاجأ الجميع بأن تاريخ الثورة المضادة هو تاريخ الثورة نفسها وكأن الجرثومة فى الثورة، ناهيك عن أنه أول من وضع دراسة مكتملة عن نجيب محفوظ «المنتمى» عام ١٩٦٤ دراسة فى أعماله، أعلن أيضًا من خلالها عن قناعته بدور الكاتب، الذى مهما كان عظيمًا لا يمكن أن يتجاوز مقتضيات التاريخ، ولا مكوناته الرئيسية الأصلية، مؤكدًا من خلال هذه الدراسة أن قيمة نجيب محفوظ تكمن فى أنه اختار- منذ البداية- الطريق الصعب، فلم ينقل إطارًا روائيًا جاهزًا، بل حاول أن يختبر الصيغة الجمالية الصحيحة باختبار شتى الأطر الفنية والمذاهب الفكرية فى أرض الواقع المصرى، وتلك كانت مبرراته لاختيار هذا الأديب لأنه فى سياق مشروعه الفكرى، وأيضًا دراسته عن توفيق الحكيم «ثورة المعتزل» ثم «توفيق الحكيم الجيل والطبقة والرؤيا»، والذى ناقش فيه انقلاب الحكيم على الحقبة الناصرية من خلال كتابه «عودة الوعى»، وسوف يلعب توفيق الحكيم دورًا رئيسيًا فى مشروع غالى شكرى، وبنظرة سريعة إلى ترتيب أعماله نجد أنها بدأت بثلاثة كتب، عن سلامة موسى ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، وثلاثة كتب حول القصة القصيرة، والرواية والشعر، حيث درس بعض الرموز الثقافية ثم الأنواع الأدبية قبل أن تكون الرؤية أشمل وأعم من خلال أعماله سالفة الذكر التى تناولت الظاهرة الثقافية، وجذور الإرهاب السياسى باسم الدين فى مجموعة من الأطروحات، سواء كانت هذه العناوين، النهضة والسقوط، الثورة المضادة، بلاغ إلى الرأى العام، دكتاتورية التخلف العربى، أقواس الهزيمة، ثقافة النظام العشوائى.

كشف الدكتور مصطفى وزيرى، الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار، عن تحقيق نحو 35 كشف أثرى وتسجيل أكثر من ٧٠ افتتاحًا، ما بين مشروعات جديدة وتطوير مواقع، خلال الفترة بين عامى 2017 و2023، فضلًا عن زيادة عدد البعثات الأثرية المصرية الخالصة من 3 بعثات مصرية إلى ما يزيد على الـ40 بعثة.

وفى حوار خاص، تحدث «وزيرى» عن أبرز ما قدمه من نجاحات منذ تعيينه أمينًا عامًا للمجلس الأعلى للآثار فى عام 2017، ورد بشكل تفصيلى على الجدل الذى أثير خلال الفترة الأخيرة بشأن مشروع الترميم المعمارى لهرم «منكاورع»، وكشف حقيقة الشائعات حول هدم بعض الآثار المصرية لا سيما فى القاهرة التاريخية.

وينتظر «وزيرى»، خلال الأيام المقبلة، ترقيته إلى منصب جديد، تكليلًا لجهوده فى المجلس الأعلى للآثار منذ توليه المنصب.

مها صلاح

رجل الاكتشافات والحفائر

مصطفى وزيرى: كلمة «تبليط» وراء تشويه مشروع منكاورع وما قدمته مجرد دراسة لإعادة تركيب البلوكات الحجرية

■ لو تحدثنا عن المشروع الذى أثار الجدل فى الفترة الأخيرة وهو مشروع الترميم المعمارى لهرم منكاورع.. كيف ترد على الانتقادات فى هذا الشأن؟

– فى البداية يجب أن أوضح أن الترميم إجراء معترف به عالميًا، وكانت هناك تماثيل مهدمة فى الكثير من المناطق مثل سوهاج والأقصر وصان الحجر، وهو ما قررت تغييره بمجرد جلوسى على مقعد الأمين العام، وبالفعل تم ترميم العديد من التماثيل بأيادٍ مصرية خالصة أبهرت العالم، بخلاف المسلات التى ظلت آلاف السنين مهدمة فى صان الحجر، وأفتخر بأنى أشرفت على إعادة بنائها وترميمها مرة أخرى بمساعدة مصرية أيضًا، وبعد أن كانت لدينا ٦ مسلات فقط فى مصر أصبحت لدينا ١٤ مسلة قائمة.

وعلى مدار الآلاف من السنين تراكمت على جدران المعابد الاتساخات والأتربة والتكلسات وعوامل التعرية، وبمجرد البدء فى إزالة طبقات الاتساخات بدأت النقوش والألوان لهذه الجدران فى الظهور لأول مرة لتبهر العالم، وهذا تم بمعابد الكرنك ومعبد الأقصر ومعبد إسنا ومعبد دندرة.

أما بخصوص هرم «منكاورع» فلدىّ أسئلة أرجو الإجابة عنها، نعلم جميعًا ارتفاع وطول قاعدة وزاوية ميل هرمى «خوفو» و«خفرع»، لكن ماذا عن هرم «منكاورع»؟.. من يعلم الارتفاع الأصلى وطول القاعدة وزاوية الميل لهذا الهرم ونحن فى القرن الـ٢١؟.. الإجابة: لا يوجد لدينا مثل هذه البيانات، وهذا بسبب أن هناك أجزاءً من قاعدة الهرم ما زالت مردومة حتى الآن، على عكس هرمى «خوفو» و«خفرع» الموجودين على الصخرة مباشرة وتظهر قاعدتهما بشكل كامل.

سؤال آخر عن اكتشاف مراكب الشمس للملكين «خوفو» و«خفرع».. أين المراكب الخاصة بالملك «منكاورع»؟.. الإجابة: لم يتم الكشف عنها بعد، وذلك نتيجة البلوكات الجرانيتية التى كانت تكسو جسم الهرم بارتفاع ١٦ مترًا ثم سقطت حوله، والغريب أنه مع كل الوسائل الحديثة والتقدم الذى يشهده العالم الآن لا نستطيع الإجابة عن هذه الأسئلة، وهنا يأتى دور الحديث عن المشروع.

المشروع كان الهدف الرئيسى منه هو التوصل لبيانات وقياسات هرم «منكاورع» على وجه التحدى، مع بدء البحث عن مراكب الشمس الخاصة بالملك، ثم دراسة، وهنا أشدد على كلمة دراسة لأن هذا ما صرحت به على وجه التحديد، البلوكات الحجرية المتناثرة لبحث إمكانية تركيبها بمكانها الأصلى. السؤال الذى يطرح نفسه الآن: هل ما طرحناه غير مسبوق فى عالم الترميم؟.. يجيب عن ذلك مدرج «الكولوسيوم» فى إيطاليا الذى تمت إعادة بناء وترميم بعض أجزائه، بالإضافة لمعابد الكرنك التى تمت إعادة بناء وترميم الأعمدة الموجودة فيه، ولماذا نذهب بعيدًا ولدينا هرم «زوسر» الذى يبعد بعض الكيلومترات عن هرم «منكاورع»، ألم يتم ترميمه وإعادة تثبيت بلوكاته الحجرية بعد أن كان معرض للانهيار؟.. كل هذه الأمثلة تؤكد أن الترميم بكل أشكاله وما تسمح به حالة الأثر موجود ومتعارف عليه فى جميع أنحاء العالم.

وما لا يعلمه الكثيرون وجود الكثير من المحاولات لتنفيذ مشروع ترميم هرم «منكاورع» أذكر منها المحاولات التى تمت عامى ١٩٩٦ و٢٠٠٩، ولكن كان ينقصها التمويل فى ذلك الوقت، خاصة مع الميزانية الضخمة التى يمكن أن يتطلبها هذا المشروع.

والآن وجدت نفسى أمام التكنولوجيا المتقدمة بالإضافة للتمويل مقدمين من اليابان، أى أننا أمام فرصة دراسة الهرم بأحدث الأساليب التكنولوجية فى العالم بالإضافة لعدم تحميل الميزانية المصرية جنيهًا واحدًا، وهنا جاء التفكير فى البدء فى دراسة المشروع.

بمجرد الإعلان عن المشروع، بدأت حملة على مواقع التواصل الاجتماعى يقودها بعض الأشخاص الذين أطلقوا كلمة «تبليط» على المشروع، وهو ما أثار استياء كل من لا يعلم حقيقة المشروع الذى يهدف فى الأساس لدراسة الهرم وما حوله من بلوكات حجرية مع بحث إمكانية إعادة هذه البلوكات بعد استيفاء كل مراحل الدراسة، التى كان من الممكن أن تنتهى بعرض طريقة تركيب هذه البلوكات أو الإعلان عن توقف المشروع عند مرحلة الدراسة بكل شفافية، ولكن سنكون توصلنا لكل قياسات وأبعاد الهرم، لأن العلم لا يعتمد على الشك بل الحقائق.

لكن أحمد الله على كل ما تم ولن أتوقف أمام من هاجمونى أو شككوا فى حرصى على سلامة الآثار فى كل موقع أثرى، ويكفى أن أقول إن مصر مكونة من ثلاثة أحرف لكنها بالنسبة لى تعنى ٣٠٠ مليون حرف، فهى أم الدنيا بحق، وبلد الأمن والأمان، وهى من احتضنت وتحتضن كل شعوب العالم، ودعوتى للمصريين: «حافظوا على بلدكم وابتعدوا عن نشر الشائعات وترديدها فهى ليست مجرد شائعات بل كلمات هدامة تثبط العزم وتضر بنا جميعًا».

■ هل يمكن تقديم كشف حساب لأعمال المجلس الأعلى للآثار تحت قيادتك؟

– بالأرقام؛ فإننا خلال الفترة بين عامى ٢٠١٧ و٢٠٢٣ نجحنا فى تسجيل أكثر من ٧٠ افتتاحًا ما بين مشروعات جديدة وتطوير مواقع، لعل أبرزها: افتتاح المتحف القومى للحضارة ومتحف الغردقة ومتاحف شرم الشيخ ومطروح وسوهاج وكفرالشيخ والمركبات الملكية، فضلًا عن مشروع تطوير الأزهر وهرم زوسر وقصر البارون ومعبد بن عزرا، واستكمال تماثيل واجهة معبد الأقصر وإعادة ترميم وتركيب ٨ مسلات، ونعمل حاليًا على الانتهاء من المتحف الآتونى بمحافظة المنيا، وأفتخر بما أنجزه زملائى الأثريون والمرممون فى هذا المتحف، وجارٍ الآن العمل بالمراحل النهائية التى تشمل تركيب أجهزة الإنذار والحريق وتركيب فترين العرض، ومن المقرر افتتاحه خلال الأشهر القليلة المقبلة.

هذا إلى جانب ٣٥ كشفًا أثريًا، كما لدينا المشروع العظيم الذى سيغيّر صورة مصر أمام السائحين والمصريين أيضًا، وهو مشروع تطوير منطقة الأهرامات الأثرية.

■ لكن البعض يدعون أن بعض آثار مصر تتعرض للهدم خصوصًا فى القاهرة التاريخية.. كيف ترون ما يُثار فى هذا الشأن؟

– يجرى الآن تطوير المنطقة المحيطة بالقلعة على أعلى مستوى، وهنا أريد أن أؤكد على سلامة الآثار فى مصر ولم يحدث أن تمت إزالة أو هدم أثر فى أى مكان، وما يتم نشره على مواقع التواصل الاجتماعى كذب وتضليل، ربما لا أعرف سببه لكن أعرف جيدًا تأثيره فى نفوس الأثريين الذين يضعون مصلحة الأثر قبل أى شىء، خاصة مع الاهتمام الذى يوليه الرئيس عبدالفتاح السيسى شخصيًا بالآثار.

أما عن اللغط المرتبط بالمآذن الموجودة بمنطقة السيدة عائشة مثل مآذن مسجد الغورى ومسجد المسبح ومسجد التربة السلطانية، فيجب أن أوضح أن هذه المساجد لديها مشاكل إما مياه جوفية أو وجود ميل يهدد ثباتها، وما يتم هو تفكيكها وترميمها والتخلص من المشكلات الموجودة بها، ليتم إعادة تركيبها مرة أخرى فى حالة أفضل، ولا صحة لهدم مثل هذه المآذن التى تعتبر جزءًا مهمًا من تاريخ مصر.

■ ماذا عن ملف عمل البعثات الأثرية؟

– لدينا فى مصر ما يقرب من ٢٥٠ بعثة أجنبية من ٢٥ دولة، أما بالنسبة للبعثات المصرية فيجب أن أشير أولًا إلى أننى عندما توليت منصب الأمين العام كانت لدينا ٣ بعثات مصرية فقط، اثنتان منها تحت رئاستى فى منطقتى العساسيف وذراع أبوالنجا بمحافظة الأقصر، والآن لدينا ما يزيد على الـ٤٠ بعثة مصرية خالصة، وعلى مدار السنوات الماضية توصلت هذه البعثات للعديد من الاكتشافات المهمة التى أبهرت العالم، وكان هناك قرار ألا يتم وضع هذه الاكتشافات بالمخازن خاصة القطع المميزة ليتم عرضها بالمتاحف المختلفة على مستوى الجمهورية.

أما بالنسبة للبعثات التى تعمل تحت إشرافى مباشرة فيجرى البحث حاليًا على مقبرة «إيموحتب» بمنطقة سقارة، وقد قام هذا المهندس العبقرى ببناء أول هرم مدرج فى العالم وهو هرم زوسر، لذا أتوقع أن تكون مقبرته بجانب الهرم، وندعو الله أن يكلل جهودنا ونجد هذه المقبرة المهمة خلال الفترة المقبلة.

■ إلى أين وصلت جهود استرداد الآثار المصرية؟

– لدينا إدارة للآثار المستردة وهى إدارة نشطة للغاية تقوم بمتابعة كل حركة للآثار المصرية بالعالم، خاصة تلك التى خرجت من مصر بطريقة غير شرعية ومن ثم يبدأ العمل على استردادها، وقد نجحنا خلال السنوات الماضية فى استرداد ما يقرب من ٣٠ ألف قطعة. ومصر ممثلة فى المجلس الأعلى للآثار لن تفرط فى أى قطعة خرجت من مصر بطريقة غير شرعية، وهنا يجب أن أوجه الشكر لوزارة الخارجية وسفراء مصر بالخارج ومكتب النائب العام.

■ هل يمكن أن تطلعنا عن آخر تطورات ملف معارض الآثار المصرية بالخارج؟

– فى البداية يجب أن أشير إلى أهمية مثل هذه المعارض التى تعتبر خير سفير لمصر بالخارج، ولا يمكن معرفة تأثيرها إلا بمشاهدة الطوابير التى تصطف بكل مدينة بها معرض مصرى، والنظرة التى نراها على وجه الزائرين الذين يدفعهم ما شاهدوه إلى التخطيط لزيارة مصر فى المستقبل لمشاهدة المزيد من هذه الحضارة الرائعة، بالإضافة للمردود المادى الذى يقدر بملايين الدولارات التى يتم إيداعها بصندوق دعم السياحة والآثار، وهو الصندوق المعنى بتمويل إنشاء وتطوير المتحف، وترميم الآثار وتمويل البعثات المصرية.

لدينا الآن معرض «رمسيس وذهب الفراعنة» الذى بدأ بمدينة هيوستن بولاية تكساس ثم بمدينة سان فرانسيكو بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية ثم بمدينة باريس بفرنسا، وهو الآن موجود فى بمدينة سيدنى بأستراليا، وقد تسبب هذا المعرض فى زيادة عدد السائحين الأستراليين لمصر بشكل ملحوظ أقرته شركات السياحة.

ويجرى الآن الاتفاق على المحطة التالية للمعرض وهى مدينة كولونيا بألمانيا، حيث نقوم بمعاينة قاعة العرض التى سيتم تخصيصها للمعرض والوقوف على التفاصيل الفنية والأمنية للمعرض، ومن المقرر أن ينتقل بعد ذلك لمدينة طوكيو باليابان.

كما لدينا معرض تم الاتفاق على إقامته بداية من شهر يوليو المقبل مع الصين ليعرض بمدينة شانغهاى وسيضم مجموعة من القطع الأثرية المكتشفة حديثًا وموجودة بالمخازن، لذا فلن يؤثر على أى من سيناريوهات العرض بالمتاحف المصرية المختلفة.

بالإضافة لمعرض آخر يتم الاتفاق على تفاصيله الآن مع إسبانيا ليتم عرضه بمدينة مالاجا، وهناك معرض آخر يتم التفاوض عليه مع الجانب الإيطالى، ويجرى الآن الاتفاق على القطع التى سيتضمنها المعرض، ومن المقرر أن يتم انتقال المعرضين العام المقبل.

■ ما الذى تتطلع إليه على المستوى الشخصى خلال الفترة المقبلة؟

– كأمين عام للمجلس الأعلى للآثار؛ أعانى من كم الأوراق التى تعرض على يوميًا وتتطلب مراجعتها قبل التوقيع عليها، وأقضى يوميًا ما لا يقل عن ٥ ساعات لإنجاز هذه المهمة، ومن ثم أتطلع لأن تكون لدى فرصة أكبر للانطلاق وسط المواقع الأثرية على مستوى الجمهورية، ومتابعة شغفى الأول عن قرب وهو الحفائر والاكتشافات الأثرية.

ماذا عن المتحف الكبير؟ وهل هناك تصور لموعد الافتتاح؟

– هذا المتحف الأيقونة ليس مجرد متحف، بل مشروع أثرى ثقافى ترفيهى متكامل، وحتى الآن تم نقل 57 ألف قطعة أثرية للمتحف. أما عن تحديد موعد الافتتاح فهو متروك للقيادة السياسية، خاصة لما تم ترتيبه للافتتاح الضخم الذى ستتم دعوة قادة ومشاهير العالم لحضوره، وهو ما يتطلب توافر ظروف عالمية مناسبة.

د. مصطفى وزيرى يتحدث للزميلة مها صلاح

70 افتتاحًا و35 كشفًا أثريًا بين عامى 2017 و2023.. ولم تحدث أى إزالة أو هدم لأثر فى أى مكان

30 ألف قطعة أثرية عادت خلال السنوات الماضية.. ونحقق ملايين الدولارات من «المعارض الخارجية»

رسائل لهؤلاء:

د. زاهى حواس

الدكتور زاهى حواس أستاذى منذ عام ١٩٨٩ عندما بدأت العمل معه بمنطقة الأهرامات، ومنذ ذلك الوقت وهو مثل أعلى بالنسبة لىّ، وقد عاشرته أكثر مما عاشرت والدى رحمه الله، وإذا أردت أن أصف علاقتى به فيجب أن أذكر زفاف ابنتى عندما كنت أقدمها لزوجها ممسكًا بيدها واليد الأخرى يمسك بها الدكتور زاهى حواس، فأنا والدها وهو والد والدها، وأنا أعتز للغاية بعلاقتى به.

الوزير أحمد عيسى

الزخم السياحى الذى حدث منذ توليه المنصب مبشر للغاية، وهى فترة استقرار ونمو سياحى، بالإضافة للجانب الأثرى الذى شهد الكثير من التطوير والترميم فى جميع أنحاء الجمهورية، وهو مهتم للغاية بتحسين التجربة السياحية، ولذا لا يعارض تمويل أى مشروع أثرى فى سبيل تحسين التجربة السياحية، وهو ما يتم العمل عليه حاليًا بالفعل.

د. خالد العنانى

أتمنى لهذا الرجل من كل قلبى التوفيق فى ترشحه لمنصب مدير منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة «اليونسكو»، لأن هذا الفوز ليس فوزًا لشخصه فقط بل لمصر والمصريين، ويمتلك الدكتور خالد الكثير من المميزات التى تؤهله لهذا المنصب والفوز حليفه إن شاء الله.

أدباء بورسعيد 1

بيت البحر

لو انتقى البحر بيتًا لاختار بورسعيد، فهى ربيبته وابنته المفضلة الملفوفة بالماء والماس من ثالوث السحر والخلود: البحر والبحيرة والقناة.

يوم أن التقى البحران الأبيض والأحمر طلت بورسعيد على العالم فى نسختها الأحدث والأجمل.. ربما سبقتها مدن أخرى «برامون، بيلوز، الفرما، تنيس» مدن خرجت من رحم البحر واستقرت تحت زرقة السماء فى بقع قريبة من مكان المدينة الحالى لكن تظل لحظة ضرب أول معول فى السادس والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٥٩هى اللحظة الفاصلة والحاسمة فى تاريخ ميلاد المدينة، ولا تعادل أهميتها لحظة سوى لحظة افتتاح القناة عام ١٨٦٩ بعد عشر سنوات ارتوت بأحلام المصريين فى صناعة تاريخ جديد للعالم كله وليس لمصر وحدها.

ومع أول وميض ليوم السابع عشر من نوفمبر عام ١٨٦٩ خرجت بورسعيد من أجمل أصداف البحر لتصير ناصية العالم وواجهته وبوصلة أحداثه الأهم طوال القرنين التاسع عشر والعشرين، ولعل الأحداث التاريخية الكبرى خلال القرنين المنصرمين شاهدة على ذلك، خاصة أثناء ثورة ١٩١٩ التى شارك فيها أبناء بورسعيد جموع الشعب المصرى فى المطالبة بالاستقلال والتنديد بالاستعمار، بل قاوموا المحتل حين قرر اللورد «أللنبى» نفى سعد زغلول إلى جزيرة سيشل عام ١٩٢١، وتجمع أبناء المدينة قاطبة لوداعه من ميناء بورسعيد وسقط من بينهم سبعة شهداء فى مصادمات عنيفة مع جيش الاحتلال ليثبتوا أن الشعب يقف صفًا واحدًا خلف أيقونة الثورة «سعد زغلول»، ويبدأ تقويم نضال المدينة الوليدة بتحويل «أللنبى»، مندوب الاحتلال البريطانى، إلى أشهر دُمية من القش فى مصر كلها، وتحوّل طقس حرقه فى شم النسيم من كل عام إلى الظاهرة الأهم فى تاريخ المدينة، خاصة أن طقس الحرق صار صورة رمزية لرفض الظلم والقهر والعدوان فى الفترات اللاحقة وحتى لحظتنا الراهنة..

ومن بعدها تصدرت بورسعيد أخبار العالم خاصة أثناء معاهدة ١٩٣٦ وتمركز جيوش الاحتلال فى مدن القناة، وحين أُلغيت المعاهدة عام ١٩٥١ تحوّلت مدن القناة، ومنها بورسعيد، إلى مدن من نار لمقاومة المحتل، لتندلع بعدها ثورة يوليو عام ١٩٥٢ وتؤمم القناة عام ١٩٥٦، وتقاوم بورسعيد العدوان الثلاثى الذى جثم على أرضها وخرج منها مقهورًا منهزمًا، وتصير المدينة بعدها خط الدفاع الأول عن تراب مصر الوطنى سواء أثناء نكسة يونيو ١٩٦٧ أو حرب الاستنزاف أو حرب أكتوبر ١٩٧٣، ويدفع أبناؤها ضريبة الدم سواء بالمشاركة فى الحرب أو بالتهجير بعيدًا عن مدينة القلب والمولد لست سنوات سوداء.

> أمواج البحر لم تتوقف يومًا عن الدفع بأدباء وفنانين جدد حتى أننى حاولت إحصاءهم فوجدتهم قد تجاوزوا المائة

كل تلك الأحداث صبغت بورسعيد بصبغة المقاومة والصمود والتحدى والإيمان بقدسية التراب الوطنى والدفاع عنه.. وكان تاريخ الأدب والفن انعاكسًا لتاريخ المدينة، فالمدينة، الاستثناء، التى بدأت كمدينة متعددة الثقافات «كوزمباليتنية» تضم بين جانباتها المصرى واليونانى والفرنسى والإيطالى والمالطى والقبرصى والشامى.. وغيرهم، عرفت أجناسها المختلفة والمتعددة التجمعات الأدبية والثقافية، وما زالت هناك بعض الأماكن شاهدة كـ«أطلال» على تلك الفترة مثل «الجمعية اليونانية، مسرح الألترا، سينما الألدرادو، نادى المسرح، القنصلية الإيطالية» هذا غير ست عشرة سينما تلألأت بأنوار المدينة الصغيرة وانطفأت جميعها الآن، منها «الألدرادو، شانتكلير باتيه، عباس، أمبير، ريو، ريالتو، فاروف، فريال، الكورسال، الكوزموجراف، ماجستيك، الحرية، الأهلى، مصر، الشرق»، وستة مسارح منها: مسارح الألترا «مسرح الفرقة الإقليمية حاليًا»، والألدرادو، والصيفى، ونادى العمال.. ويقينًا عرفت المدينة عند نشأتها كل الفنون الإبداعية من شعر وسرد، والفنون الأدائية من مسرح وموسيقى وغناء، وتفردت بالسبق فى فن السينما حين بزغت أنوار سينما الألدرادو عام ١٨٩٨ بعد فترة وجيزة جدًا من بزوغها فى باريس والإسكندرية والقاهرة عام ١٨٩٦م.

وهناك شواهد عديدة حول التجمعات الأدبية والفنية التى انتشرت بين الجاليات الأجنبية، لكن لم تحظ تلك الفترة بدراسات وافية، خاصة أنها لم تشهد وجود أدباء غربيين كبار كتبوا عن المدينة؛ مثلما كتب الشاعر اليونانى كفافيس «١٨٦٣- ١٩٣٣» أو الكاتب والروائى الإنجليزى لورانس درايل «١٩١٢- ١٩٩٠» الذى كتب رباعية الإسكندرية الشهيرة.. ومن الممكن توثيق تاريخ الحركة الأدبية والثقافية فى بورسعيد فى فترة ما بعد النشأة الأولى «افتتاح القناة وحتى ثلاثينيات القرن العشرين» وتحديدًا منذ سنة ١٩٤٨ حين أُنشئت الجامعة الشعبية التى تحوّلت فيما بعد إلى الثقافة الجماهيرية عام ١٩٦٥، وذلك مرجعه إلى طبيعة الحياة الثقافية والفنية فى المدن الصغيرة التى كانت، وما زالت، مجرد نبع من ينابيع العاصمة المفعمة بالأضواء والمكتفية بمن فيها من أهل الكلمة والحرف، ولعل تجربة الشاعر الرائد عبدالرحمن شكرى «١٨٨٦- ١٩٥٨» أبلغ الأمثلة على ذلك، إذ لولا مشاركته فى مدرسة الديوان الشعرية الشهيرة، مع رفيقيه الكبيرين عباس محمود العقاد وعبدالقادر المازنى، لظل أسيرًا لأحلامه داخل مدينته الصغيرة التى تركن بجوار البحر بعيدًا عن مصدر الضوء فى القاهرة.

كان توثيق الحركة الأدبية فى بورسعيد ملازمًا لنشأة بعض المؤسسات الأهلية والرسمية مثل «الجامعة الشعبية، الثقافة الجماهيرية، نادى المسرح، نادى العمال، الأحزاب السياسية باختلاف توجهاتها، وبعض الصالونات الأدبية الخاصة».. ويمكننا أن نوجز تاريخ الأدب فى بورسعيد فى مجموعة من الأجيال، أولها جيل الرواد وأبرزهم «حامد البلاسى، محمد صالح الخولانى، محمد فايز جلال» فى شعر الفصحى، وإن جمع الشاعر الكبير حامد البلاسى بين نوعى الشعر العامى والفصيح، وفى شعر العامية يدين شعراء بورسعيد بالجميل للشاعر الاستثنائى حلمى الساعى الذى لم يترك دواوين منشورة لكنه ترك نبعًا شعريًا لا ينضب لكل شعراء مدينة البحر، كما نبغ شاعر المقاومة الكبير كامل عيد، وفى السرد يتبوأ القاص البديع مصطفى حجاب مقام الريادة بمجموعته الفارقة «شىء من القمر»، ومن بعده القاص الساحر أحمد عوض بمجموعته الساحرة «إيقاعات متداخلة».

وبعد جيل الرواد يأتى جيل الأساتذة الراسخين الذين قدموا إسهامات مهمة ولافتة فى كل فنون الأدب من شعر وسرد، وتجاوزوا بإبداعاتهم سماء المدينة الضيقة إلى رحابة عالم الأدب فى كل ربوع مصر، ويكفى أن نذكر من بينهم علامات مضيئة مثل «قاسم مسعد عليوة، زكريا رضوان، السيد زرد» فى السرد، و«السيد الخميسى ومحمد يونس ومحمد سعد بيومى ومحمد المغربى وسامح درويش ومصطفى اللبان» فى شعر الفصحى، و«محمد عبدالقادر وإبراهيم البانى وعبدالفتاح البيه وعبدالقادر مرسى» فى شعر العامية.

وتسلم راية الإبداع من الأساتذة جيل من أهم أجيال مدينة البحر وأعنى به جيل الثمانينيات أو جيل الأحلام المسروقة الذى أفنى روحه عشقًا فى الكتابة واحترق بنارها المقدسة، وضنت عليه مشوقته بوهجها وضوئها، بالرغم من أنهم كانوا بحق أبطال تحرير طليعيين حرروا الكتابة من رتابتها وسكونها وحفروا فى اللغة وخرجوا من بئرها بعناقيد ساحرة فى كل فنون الكتابة، لكنهم غابوا جميعًا تحت وطأة وقهر الحياة أبرزهم «محمد حامد السلامونى، صلاح زكريا، أحمد عبدالحميد، إبراهيم أبوحجة، صلاح عساف، أحمد سليمان، محمد النادى».

وبالطبع هناك أدباء خارج تلك المجموعات وتميزوا بتجارب خاصة وفريدة وأثروا تأثيرًا بالغًا وحقيقيًا فى الحركة الأدبية ببورسعيد منهم «السعيد صالح، إبراهيم صالح، عاطف عبدالرحمن، محمد عبده العباسى، محمد حجازى، إبراهيم سكرانة، السيد منصور، أسامة المصرى، محمد حافظ، سعد الزكى، عبده العباسى، أحمد السيد».. وسأتوقف فى المقال عند جيل الثمانينيات بالرغم من أن أمواج البحر لم تتوقف يومًا عن الدفع بأدباء وفنانين جدد، حتى أننى حاولت إحصاءهم ابتداءً من جيلى وما تلته من أجيال فوجدتهم قد تجاوزوا المائة فى تلك المدينة المنجبة، فرأيت أن نشر نصوصهم بمثابة بطاقة تعريفهم للقارئ، ولست أنا لأن كثيرًا منهم يستحق دراسة كاشفة ومطولة تخصه وحده.. والنصوص المرفقة بالمقال هى أولى قطرات الغيث فى مدينة تمطر فنًا وإبداعًا.

أسامة كمال أبوزيد

عبير نصر

مزاد

«ماكانش لازم أسيبها تحرك الأيام
ماكانش لازم أسيبها تلعب بيها
وأنا!!!!!م»..
بنتى
كسرت ساعتى وقعدت تلعب
وبصوابعها النونو
رسمت جوا الدايرة دواير
جرت عقرب شايخ
جرت أيام وشهور وسنين
وصحيت..
عضمى مكسر.. حيلى مهدود
كلبى مفرود جمب سريرى
مش عارفة ولادى راحوا فين
بس يا بنتى كفاية جريان
كتبوا الإعلان
بعد وفاة كل السكان
هنبيع البيت
فتح المزاد
سجادة.. سرير وحصان خشبى
بطاطين.. ملايات
على كام خدادية محشية بأحلام
خايبين
مش فاكرة ولادى كانوا تلاتة ولا
اتنين؟
كان فيهم واحد ناوى يسافر لفلسطين
تليفون وعرايس مكسورة
ورود مبدورة
جزامة اكتظت بالدواوين
مش عارفة ولادى راحوا فين؟
خمسه ستارة ومافيش شباك
وقفص عصافير
ومراية كبيرة وكوم أقلام
شريطين قرآن..
تسجيل خسران
مقبرة
محبرة
ومدينة اتحاوطت بالأكفان
عصفور أزرق مخلوع العين..
كرسى هزاز
وجدار متشخبط بالألوان
راديو مابيزيعش
غير أعداد المجروحين
كلب حراسة مات
م الإرهاق مفتوح العين
بس يا بنتى سيبى الساعة
مش فاضل
إلا صورة باهتة على الحيطة
مش فاكرة لمين..؟

محمد فاروق

خُطايا العكس

صَبَحت عجوز وبتسنَّد
على كتف الزمن فجأة
فى توب شايل بدن مرغم
خُطايا العكس متقيد
عشان عايش بنفس الهيئة والصورة
بقالى كتير على ده الحال
بدقن طويلة وبكسكتة وضفيرة
وبسمع ذكر باستحياء
بَلَضم كل مافيَا
فبيشوفنى الجميع سارح
عشان الغيه أقول نِفسى
ونفسى فى متن حساباتى
أعيش كيف الشجر طارح
وبتشعبط على بكرة
وبملى الحيرة فى جرابى
وواخد من منابى الدوبل فى المشوار
وكاتم فكرتى فى البير
وعايش ذى مابشوفهم
مع إنى أساسًا غير
بحن بعقلى والورقة
وبستفرد بجمع الوقت ع الهامش
كتبت أوديب وموت أوزوريس
وجلجامش
بمنظورى فى أكل العيش
دخلت الجنة شوفت الحور
وباتم ليلة فى قصيدة معجبتنيش
منيش عصبى برغم الحمل كان سبعة
خليط فى شيوعى متدين
فى حالى المنفرد جدًا
فى وسط كوفيه بالسبحة
مليش فى الحسبة غير طبعى
وغمازة على خدى تملى وجودها
باستمرار
بحب الصعلكة فكرا وبلضم فيها
لاستقرار
حقيقى إن الحياة واصلة ما بين كل
الطروف بالضد
كِبرت فى دنيتى ف لقيت
بنفس التفصيلات واحدة بنفس العد
صُغَير بس عمرى كبير
بعيش دور الحكيم أوقات فى متن
النص
وأوزع علمى مجانًا كعقدة نقص
وبلضم للسكك عواميد
بطول السطر لو مادد
ومزهقتش بكون الشعر مستنى
حضور جمهور بدل فاقد
ومستمتع مع تسقيف
على القهوة بكرسى وحيد
أنا اللى شربت م القلة
وكلت فى حضن طبلية
وصليت الفروض حاضر
عرفت الحب بطريقتى
ببيت وولاد
لعبت عروسة وعريسها
لعبت بلاد
وَعِيت ع البحر والمرسى
أخدت البوصلة معكوسة
على أمل إنى أبقى الصح متعمد
فبكتب ليل نهار وأشطب
عشان النص متهور
بضد الافتراض للجى لو لسنين
بتفضل عهدتى الراوى
ولو عبثًا
ما بين البين
بنفس السندة عالفاضى
لطفل بيسرق الخطوات
فى أول سطر مش مكتوب.

* «برجاء قراءة النص
من أسفل لأعلى»

أحمد الأقطش

بعد انتهاء المعركة

قفزتُ فى الهواء صائحًا
لَمْ أستطع أن أكتم الصياح
فقد تعودتُ امتطاء الوهم فى الصباح
حينما يفيقنى نحيبُ قطتى العجوز
أعرف ما يقوله الجيران
لكنهم لا يعلمون مَن أنا
بالرغم من تحديقهم فى غرفتى
لكنهم لا يعلمون أى شىء
منذ متى أعبأ بالآخرين!
كم مرةٍ يلفحنى الهواء
فحينما أحسُّ بانتزاعها
أحسُّ بالصقيع
يأتى إلى سمعى ضجيج فظيع
ثم سكون
ثم نفير
ثم صدى قذائف وانفجار
أجول فى الشوارع المبعثرة
فى الأربع الجهات
وأسطح المنازل المدمَّرة
أَحُطُّ فوقها.. لأستريح ربما
لكنَّ قطتى العجوز
تقتحم اقتحامها المألوف
فى لحظة كهذه كل صباح
فيسمع الجيران نفس الصياح!
على جدار بيتنا القديم
رأيتُ صورة الزمان
على حصانه العظيم
يُعلى صياح المعركة
وخلفه كل الجنود
كل عبيد المملكة
الرافلين فى ثياب الصعلكة
يملأ بيتنا غبارهم.. ضجيجهم..
نفيرهم
دماؤهم تسيل فوق الجدار
خيولهم تحطم الأثاث
يقصفون غرفتى
يحطمون بابها كل مساء ويهجمون
أقفز فى الهواء صائحًا
أمسك بالسلاح صوبهم
أخيفهم فيرجعون للجدار
فأنزوى فى الركن أبكى وحشتي
هل جاءنى سهم مِن الوراء؟
دمى يسيل ساخنًا
شعرتُ بانتشاءة غريبة
فى لحظة كهذه- بعد انتهاء المعركة-
كيف أموت خارج الميدان!
أعرف ما يقوله الجيران
بأننى مريض
لكنهم لا يعلمون أى شىء
فلستُ مَن يعبأ بالآخرين!

محمد النادى

إلى محمد عبدالفتاح

تمر المسافات بين الحقائب
من الفقد للفقد ترتاح فينا كراسى المحطات
هنا يستحم المدى فى «بوغاز الجميل»
تحل طَرَاحة شعرها فى براح الأُفق
أى صيد وقَعتْ يا صاحبى فى الشَّرَكْ
أى بيت تركت وأى البلاد ارتضت لترابك ما بددت من جسد
المعلم دق طباشيره تحت كعب الحذاء
شق بياض القميص أسدل سترته فى ظلام التعب
حط على الأرض مرجونة الصيد
حداف أحلامه الضائعة
وخيط طويل من الافق للأفق
لماذا نُصر على البحر
لاكتساب المزيد من الصير؟
العيون من البحر تتحين فرصتها فى جلاء البنايات
البنايات خصم عتيد
البواخر تاخذ شكل البناية حتى تعود الى اليابسة
البحار معلقة فى غلاف الكرة،
ترطب أنحاءها وتغالب قهر الطبيعة للأرض
البحار عيون معلقة فى غلاف المجرة
تنظر للكون، تزرف أدمعها المالحة
الرياحُ تصكُ النوافذ
نصف دائـرة يكملها البحرُ ـ صارت ذراعُك
البحرُ نداهةُ العارفين
يعُد أصابع رُواده
يميز بصمتهم
يضخ الرذاذ على قَدر أحلامهم
البحر نداهة يا محمد للذين يمدون أذرعهم دون رد
ويبتسمون بعودة صنارهم دون فقد
يقيمون مع الشمس مولدها
وللريح ضد.

محمد عبدالفتاح «١٩٦٥- ١٦/ ٤/ ٢٠١٦» من أنبل وأجمل أبناء المدينة، حمل قلبًا وروحًا أثرت فى كل من حوله.

منى جودة

هستامين

لماذا تظن أننى أحك جسدى دائمًا؟
أتناول مضادات الهستامين بانتظام
أنت لست منتبهًا
ربما تحتاج إلى بعض الكافيين
تناول بعض القهوة
وأنا بدورى سأضخ حكايات لها ختام سعيد
أضخها فى دمك مباشرة
شرط أن تثنى على تركيزى من وقت لآخر
جارى الجديد صيدلى وتاجر ماهر
كل ما فى جيبى يصيبه
جسدى تشرب كل الكريمات التى ابتعتها
لأنه عطشان جدًا
لم أسمع منك كلمة ثناء واحدة
كم أنت بخيل
جارى يحب زوجته جدًا
لأنها تمتلك الصيدلية
لكنها غير ماهرة إلا فى بيع المضادات
لماذا تظن أننى أحك جسدى؟
فقد شربت الدواء أمامك
أدخنة المقهى جعلتك لا ترانى جيدًا
جارى تمنى أن يتخلص من زوجته
جرب معها كل أنواع السموم
هذا ما أخبرنى به
أحتاج أن ألتصق بالجدار تمامًا لأحك جسدى
أنا لم أقل ذلك
كركرة النارجيلة جعلتك لا تسمعنى جيدًا
يا للأسف أنت لم تثن علىّ
زوجة الصيدلى تمكنت منه؛
خاتمة سعيدة جدًا
يبدو أنها تكرهنى بشدة
لا تقل إننى أعانى من الهلاوس
فقد أعطتنى مضادًا للهستامين
كم أنت بخيل
أيها الجالس فى المرآة.

إبراهيم سكرانة

بنتولد دمعات

يا ابن الحياة والموت
هو أنت مش زينا
دمك شبه دمنا
طب ليه بتنكرنا
وأنت اللى على خيرنا
رعرع غناك بينا
أنت اللى من طينا
لو كنت تستنى
كنت أوهبك شوقى
وألف قلبك بالغنا
وأعلمه الزقزقة
أحلامنا متفرقة
بينا وبين الريح
وقلوبنا شجرة توت
لا بتحيا ولا بتموت
ولا فيه أمل فى اللقا
إيه اللى فاضل بقى
وإحنا الغنا والخوف
لون حزننا مألوف
لون فرحنا مختلف
أوقات كتير نئتلف
وكتير كتير بنتوه
وف نن عين الشمس
بنتولد دمعات
وحاجات بتمحى حاجات
ولكل ده أسباب
بس إحنا مين قوللى
قبل أما تنكرنى
آخر حدود ضلى
دمك على دمى
أنا كنت متسمى
بالحزن فى كتابك
افتح لى أبوابك
وخدنى بين السطور
يمكن يكون لى ميلاد
ونعاود الألفة
أنا وأنت والأحزان
يا بن الغنا والبوح
اركب سفينة نوح
وافرد قلوع قلبك
ولو الطوفان قابلك
دوس على اللى كان قبلك
وانسى اللى بينا وفوت
ارفض تدوق الموت
لكن ما تنكرنيش
وأنت ف أمان ع الشط
يمكن أكون لك طوق
لو زاد عليك الطوفان
وغرقت فى دموعك.

افتح لى أبوابك
وخدنى بين السطور
يمكن يكون لى ميلاد

أحمد عوض

ورق

راح يدور حول نفسه داخل غرفته متمنيًا أن تطلع الشمس، حتى تجفف ملابسه المعلقة خارج النافذة.
اليوم يوم إجازة..
ودّ أن يخرج مبكرًا، السحب ما زالت مسيطرة على الشمس.
يحفر بأظافره على الجدار، يرسم صورة لقطار بدون سائق، عيناه دارتا فى أرضية الغرفة، تذكّر أن منفضة السجائر فى غرفة المدير..
أمسك بقلمه يقلبه بين أصابعه، ويقلّب معه ذكريات أعوام طوال قضاها بين قلمه، وعصا مقشة المكتب وتكشيرة المدير المتتابعة على وجهه دون فائدة..
ما الفارق ببننا؟
لا شىء.. الجحيم.. «المدير يكسب»
ورجع إلى نفسه فوجد أنه إنسان محدود الأجزاء، يكاد يكون بقعة فوق سطح زجاج المكتب.
قدماه تمشيان بخفة كإصبعين.. تلال كثيرة من الفِكَر تحلق حولها أجنحة خيالاته.
يده تمسك بالكتاب.. الحروف ترتعش على الصفحات، لقد قرأ كثيرًا.
«الماديات كلمات تقرأ خلف الثلاثينات»
ملابسه الداخلية مرتقة مثل وجه الصفيحة، أمعاؤه تتلوى فى داخله تقرأ قرقعات الجوع..
لاك قطعة من الورق فى فمه، تقف بين فكيه، تنغرس بين أسنانه، يمد إصبعيه وينتزعها ويحدق فيها بعينيه ثم يقرأ حروف أسنانه «الكلاب المسعورة تلتف حول مائدة واحدة» فى صالون الحلاقة أشخاص كثيرون يحبون سماع قصائده..
رسائله لم يصل عنها رد..
يحتفظ بنسخ كثيرة منها، عم عبده البقال أراد أن يشتريها منه بقروش، والتفت إلى الشمس وجدها تصارع السحب، النهار فقد نصفه.
يرتدى ملابسه نصف مجففة..
على الطريق لافتة من الخشب لم يُكتب عليها شىء بعد.
مجموعة من الناس تتزاحم حول جسد كلب دهمته سيارة.
السائق يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة بين الأيدى الممتدة حول عنقه أحدهم يقول: كلب ممتاز والآخر يطلق عليه لقب نمر.
وتكاثرت الكنايات على ألسنة الجميع، حاول الحديث معهم، ضاعت كلماته وسط الزحام.
يجرى مسرعًا نحو اللافتة المرفوعة على الجانب الآخر من الطريق، قدماه تتعثران فى قطعة صلبة على الأرض، قلمه يقع إلى جانبه على الطريق.
عربة بيضاء تحمله فى داخلها وتذهب به بعيدًا عن اللافتة.
يغلق عينيه مرة واحدة.
المحقق يبحث عن شخصيته..
يمد يده، يخرج أوراقًا كثيرة..
يقرأها متعجّبًا ويصيح:
كان يصلح أن يكون فنانًا.

سوسن عبدالملك

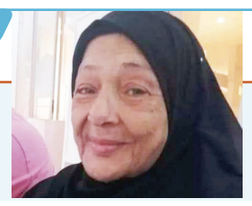

ظل بلا ظل

أحكمت غلق الإناء وضغطت على الثقل بيدى، ولكن كان الصفير عاليًا متلاحقًا يكاد يدغدغ عظام رأسى حين رأيته منشغلاً بتلميع صورة أبيه المحفورة فى مرآة عينيه، رحت أضم حبات كبدى المبدورة على الأرض إلى قلبى الموثوق بحبال الصبر أخيط فمى وأضع لفافات القطن فى أذنى، وأسدل جفونى حتى منتصف عينى وأنا أنظر إلى الشباك المغلق والسوط المعلق بجوار السرير، كنت أحدق فى صورة أبيه ذى العمامة الكبيرة والشوارب المبرومة التى تكاد تمر على عينيه حتى تلتحم بحاجبيه وأرتعد، كل شىء يسلب منى دون إرادتى كنت أرده إلى القدر كى أستريح ولم أعترف بتفسير الأشياء بداخلى بل أخفيها حتى عنى.
ما دام كل شىء مقدر فلا بد للعقل أن يستريح وللمشاعر أن تتوارى وللأحاسيس أن تخذل حتى تسير الأمور ولتذهب الإرادة إلى الجحيم. أغلقت الكتب وأرحتها على الرفوف حتى يظل نظيفًا طازجًا وأظفر بالنعيم لكنه لم يسترح كلما رآنى أزيح التراب عنها جذب السوط وضربنى. يقول هى التى أفسدت عقلى، فتنفلت منى الصرخات ومسرعًا يضع يده على فمى ليكتمها فتسقط حبيسة فى قاع صدرى ويظن أنها ماتت، أُلملم حبات قلبى الخائفة أضمها إلى صدرى وكلماته الجارحة تتعارك فى دمى مع صرخات القطة التى يذبحها كل يوم أمامى فيزداد الصفير لبست ثوب السكوت وألقيت بنفسى فى بحور الصمت الباردة قال بأننى عاقلة!! وقال الناس بأننى معذورة!! وقال الطبيب تعايشى مع الواقع.
رحت أضرب برأسى فى صخوره الجامدة وهو يمد يديه يحجب الشمس عنى يقشعر جسدى وتزداد الرعشات فتتقلص أطرافى وأنكمش بداخلى ويزداد الصفير، وقفت خلف زجاج الشباك المغلق أمسح عنه الضباب بيدى وأتابع النهر الذى يسير بجوار جنازة أمى اختلطت دموعى الساخنة بابتسامة ساخرة ولم أطلق صرخة واحدة كان رنين كلماتها يرن فى أذنى، رحت أسأل نفسى بأى ظل تستظل هى الآن؟.. بظل رجل أم بظل حائط؟.. علت ضحكاتى من الذين يولولون ويصرخون، إنهم مجانين مثلى، لا يعرفون كيف يتعاملون مع الواقع!!
نظرت فى المرآة فأنكرتنى، رحت أفتش عنى فلم أجدنى، فقط رائحة الكتب حمم لن تهدأ بدمى تكاد تفتق شراييني. تطلعت إلى الرفوف وقلت: من اليوم سوف أنكش شعرى، وأمزق ملابسى، وأحطم كل من يُعوق طريقى، وأضرب كل من يعترضنى!!
وقفت على الكرسى العالى وأزحت التراب عنها فوجدتنى هناك، بشوق السنين ضممتها وضمتنى، أنزلتها من فوق وتناولت منها كتابًا حين رآنى جذب السوط وأقبل على يضربنى، فازداد الغليان وضغطت الأبخرة على الثقل فطار وانفجر الإناء يلقى بما فيه فتناثرت الصرخات السجينة من زمن بعيد وتدفقت تخترق الجدران والنوافذ وانطلقت تدوى فى عنان السماء حاول كتمها بيديه فلم يستطع راح ينهال على بالضرب فتزداد الصرخات وتزداد فأسقط على الأرض وأظل أزحف وأزحف والكتاب بيدى مضمومًا إلى صدرى وهو يضرب ويضرب وأنا أزحف وأصرخ حتى أصل إلى الحائط العريان وأستظل بظله.

أحمد زحام

النافذة الضيقة

قال الرجل الذى يجاورنى فى مقعد الطائرة ونحن نغادر الوطن.. ناظرًا عبر النافذة الزجاجية إلى أسفل حيث البيوت القزمية، وكأنه يريد أن يفرج عن نفسه تعبًا رأيته فى عينيه الحمراوين:
– هنا كان لى.
شاركته النظر عبر النافذة الضيقة
– وأنا..
اعتدل فى مقعده وطلب من المضيفة كوب ماء، ونظر فى وجهى:
– وأنت؟
– وأنا..
أفرغ كوب الماء الضئيل فى جوفه فبدا لى أننى أسمع رجرجة بطنه.
– احك.
– كل ما أتذكر أنه كان بيتًا لا يشبه كل البيوت.. لم يكن ذا ملامح سمراء أو بيضاء، لكنه يشبه المرأة الجميلة، كنت أحب النظر إلى وجهها دومًا حتى أننى أدمنت تقبيلها فى كل مرة أحج إليها.
– أتعرف لماذا افترقنا؟
ربط حزام الأمان حول بطنه
– لأننى لم أستطع الدفاع عنه.
غط فى نوم عميق، فنظرت مرة أخرى عبر النافذة إلى أسفل عسى أن أرى بيتًا يشبه بيته فلم أره.

السيد زرد

مشوار

كان يجهد فى إمساك أصابعى بيده الصغيرة الغضة.. متجاهلاً حمالة البنطال التى تهدلت على كتفيه النحيلة، وموسعًا خطواته قدر ما أسعفته قدماه.
لم أحاول النظر إليه، لكنى كنت أستشعر لهاثه، وسمات الجدية التى أخذ يعتاد رسمها على وجهه الصبوح.
أنبأته أن لدينا «مشوارًا» مهمًا. لم أفصح له عن تفاصيل، ومن جانبه لم يطلب معرفتها، لكنه كان يدرك أن الأمر يتعلق ولا بد بأمه.
فى الأيام الأخيرة، لم يكن مجديًا إخفاء حقيقة مرض أمه عنه.. وبدخولها المستشفى واضطراره للابتعاد عنها، كان يؤلمنى، إلى جانب همومى الأخرى، تصور عدم قدرته على استيعاب ما يجرى، وقدر الألم الذى سيتعرض له بما يفوق احتماله.
فاجأنى برفضه الانتقال ليقيم مؤقتًا لدى أى من الأقارب، رغم أنى اقترحت عليه أكثر من بيت، وتخيرت له بيوتًا بها صغار يقاربونه فى العمر يمكنه أن يمرح معهم. بكى قليلاً، ثم وبجدية أوجعتنى، قرر أنه لن يترك البيت، وأضاف أنه لن يسبب لى تعبًا، فسيعنى بنفسه، بل يمكنه أن يقدم لى ما أشاء من مساعدة أطلبها.. أنا الذى بكيت.. انفطرت من البكاء.. احتضنته أو لعله هو الذى احتضننى.
أيام قلائل، تفرغت فيها لمتابعة حالة زوجتى، لم يفارقنى فيها. نتبادل- فيما بيننا- كلمات معدودات، غير أن تفاهمًا وتفهمًا عميقين صارا بيننا.
وها نحن فى طريقنا لزيارتها.. وربما تكون زيارة أخيرة.

حرف

الدستور الثقافى

إصدار إلكترونى يصدر عن مؤسسة «الدستور» للطباعة والنشر

رئيس مجلسى الإدارة والتحرير محمد الباز

الأربعاء
13 مارس 2024
3 رمضان 1445
4 برمهات 1740

والله زمان يا رمضان

يسعد الكثير من الجمهور بأدوار نجوم الفن على الشاشة، ومنهم من يتمنى معرفة تفاصيل حياتهم وكيف يعيشون فى بيوتهم.. وفى الزمن الجميل حرص نجوم الفن على إحياء ليالى رمضان، من خلال السهرات المنزلية، التى تمتد من بعد الإفطار حتى السحور، ولنسعد القراء الأعزاء عدنا إلى الماضى لنكشف عن كواليس سهرات النجوم وطرائفهم ومقالبهم، وأيضًا ما كان يدور فى الاستوديوهات أثناء التصوير خلال شهر رمضان الكريم.

خليل زيدان

دعوة «فشنك» من سيد سليمان

فى رمضان عام ١٩٦٠ دعا بديع خيرى أفراد فرقة الريحانى للإفطار فى بيته، وبعد الإفطار جلس المدعوون يتسامرون ووقف أحدهم يمتدح نجوى سالم، وتدخل المنولوجست الفنان سيد سليمان ليصف نجوى سالم بأنها أجمل ما رأت عيناه.. وهنا تدخل عادل خيرى قائلًا: بذمتك يا سيد الكلام ده صحيح؟ فقال سيد سليمان مؤكدًا ومداعبًا فى نفس الوقت: إن كنت كداب يا شيخ ربنا يسود وشى.. فانفجر الجميع يضحكون لأنهم يعرفون أن وجه سيد شديد السمرة.

أهل الفن «صحيح صايمين»

اللى يعاكس القطة!!

الفنانة ماجدة مشهورة وسط أسرتها وصديقاتها ومعارفها باسم «قطة»، وقد أقامت حفلًا ساهرًا فى رمضان بمناسبة عيد ميلادها، وكل الحفل يقضى بأن يتناول المدعوون طعام السحور، وكان من بين المدعوين المطرب سعد عبدالوهاب الذى كان سيشارك ماجدة بطولة فيلم، وطوال السهرة كان يداعب ماجدة بأغنيات الفيلم الذى لا يزال فى دور التصوير، ومن الطبيعى أن الحضور لم يعرفوا أغانى الفيلم، ولهذا اعتقدوا أن سعد يغازل ماجدة مغازلة صريحة، خاصة أنه كان يناديها فى كوبليهات الأغنية باسم الدلع «قطة»، وجاء موعد السحور وجلسوا جميعًا حول المائدة، عدا سعد الذى أصر أن يجلس بجانب ماجدة، وبالفعل أجلسته بجانبها وقد تعمدت ذلك، فلم يكد سعد يتناول أول لقمة من الطعام حتى هب واقفًا صارخًا مكهربًا بسبب النار التى ألهبت فمه، وبسرعة تعالت ضحكات ماجدة على صرخات سعد الذى صاح قائلًا: إيه ده يا قطة .. بتضحكى على مقلب الشطة اللى وضعتيه فى الأكل؟ وضحكت ماجدة مرة أخرى وهى تقول: اللى يعاكس القطة تعمل فيه إيه؟ وصاح الجميع بعد أن فهموا المقلب: تخربشوا.

قمر الدين وقمر عبدالوهاب

فى إحدى السهرات الرمضانية التى تعود فريد الأطرش على إقامتها، دعا لفيفًا من أهل الفن وكان من بينهم الموسيقار محمد عبدالوهاب، وكان المشروب الوحيد فى السهرة هو «قمر الدين»، وكان من بين المدعوات وجه جديد لفتاة رائعة الجمال، وكانت مرشحة للعمل فى أحد أفلام فريد، لذلك تطوعت بتقديم مشروب قمر الدين بنفسها على الحضور.. وطافت بالأكواب حتى وصلت إلى عبدالوهاب لتقدم له المشروب، وما إن رآها حتى تعلقت عيناه بوجهها الجميل، وراح يرشف قطرات قمر الدين وعيناه على «القمر» الآدمى الذى يقف أمامه.

ويبدو أن عبدالوهاب لم يشبع من النظرات السارحة المتأملة فطلب كوبًا آخر، لكن فريد الأطرش الذى كان يراقب الموقف فهم الأمر، وبسرعة فكر فى عمل مقلب فى عبدالوهاب، فذهب إلى خادمه «عبده» وأوصاه بتقديم كوب قمر الدين لعبدالوهاب، وبعد قليل فوجئ عبد الوهاب بيد خشنة تقدم له الكوب، فنظر إليه ووجده عم عبده، فأغمض عينيه وصاح: مين؟ أنا؟ لا .. أنا ما بحبش قمر الدين.. حالف ما أشربوش.. وفى ركن بعيد من أركان السهرة كان فريد الأطرش يقف ويغطى فمه بيده حتى لا تصل ضحكاته إلى أذن عبدالوهاب الموسيقية.

صفعة لهدى سلطان فى عز الصيام

أثناء تصوير فيلم «حميدو»، كان ضمن المشاهد صفعة قوية من زكى رستم لهدى سلطان بعد أن يكتشف الخدعة التى أرشدت بها البوليس عنه، وكان تصوير الفيلم يتم فى شهر رمضان، وما كاد كف زكى رستم يهوى على وجه هدى إلا وسقطت على الأرض فاقدة الوعى، وساد الوجوم وحاولوا إفاقة هدى دون جدوى، حتى اضطروا إلى استدعاء الإسعاف التى بدأت فى إفاقة هدى، وكل ذلك وزكى رستم يقف فى ذهول، وبعد ساعة أفاقت هدى واتضح أنها لم تحتمل الصفعة لأنها مرهقة من الصيام، وهنا صاح زكى رستم قائلًا: ياشيخة نشفتى دمى.. يعنى الصيام هو اللى دوخك مش أنا.. وظل زكى يحاول إقناعها بالإفطار حتى يعيد مشهد الصفعة لكنها رفضت، وبالتالى رفض زكى أن يصفعها مرة أخرى وهى صائمة.

شربة زيت لأنور وجدى

كانت عقيلة راتب تقوم بدو البطولة أمام أنور وجدى فى فيلم «إلى الأبد» الذى بدأ تصويره فى أول يوم فى شهر رمضان، وتحتم تصوير أحد المشاهد أن يتناول فيها الزوجان الطعام، لكن عقيلة طلبت تأجيل المشهد بعد الإفطار لأنها صائمة، وكان نظام العمل فى ذلك الوقت يمنع العمل ليلاً فى رمضان، وتطور الأمر إلى أزمة بين مخرج الفيلم كمال سليم وعقيلة راتب، خصوصًا أن بطل الفيلم أنور وجدى أيضًا صائم وأبدى استعداده أن يفطر فى سبيل إنهاء العمل، واضطرت عقيلة إلى الإفطار ولكنها تضايقت من زميلها أنور الذى لم يساندها ليظلا صائمين، وبعد عدة أيام جاء تصوير مشهد آخر للزوج أنور وجدى وهو مريض ويتناول مشروبًا ساخنًا من يد زوجته عقيلة راتب، وكانت عقيلة قد عرفت موعد تصوير المشهد فأعدت له مفاجأة، وعند التصوير لم يكد أنور يتناول المشروب حتى راح يصرخ، وهكذا شرب المقلب، فقد وضعت له عقيلة فى كوب اللبن شربة زيت، وكان أنور لا يكره شيئًا فى الوجود مثلما يكره شربة زيت الخروع.

مديحة يسرى وفتوى الشيخ أبوالعيون

أثناء تصوير فيلم «نهاية قصة» الذى أنتجه محمد فوزى وشاركته البطولة زوجته آنذاك مديحة يسرى، طلب المخرج من محمد فوزى أن يقبل مديحة، فصرخت قائلة: مش ممكن!! وسألها المخرج: مش ممكن إزاى؟ ده شغل.. واحتجت مديحة قائلة: أنا صايمة، والقبلة تبطل الصيام، فصاح المخرج قائلًا: حتى إذا كان هذا صحيحًا من الناحية الدينية، فإن الذى سيقبلك هو زوجك، ولكن مديحة رفضت، وأمام إصرارها رأى أن يستصدر فتوى من شيخ ووافقت مديحة، واتصل المخرج بالشيخ أبوالعيون الذى قال: مادامت مديحة ترى أن ذلك يؤذى صيامها فمن الأفضل أن يتأجل تصوير المشهد.. وهكذا نجحت مديحة فى الاحتفاظ بصيامها وامتثل المخرج لفتوى الشيخ أبوالعيون وتأجل المشهد إلى ما بعد الإفطار.

مائدة حسن ونعيمة الرمضانية

كانت المناظر الخارجية لفيلم حسن ونعيمة تقتضى تصويرها فى إحدى قرى الفيوم فى شهر رمضان، وكان ضمن أحداث الفيلم مشهد مائدة يقيمها العمدة فى الشارع احتفالًا بزفاف ابنه، وتم إعداد المائدة التى تكلفت مائة جنيه لبدء تصوير المشهد، وجىء ببعض الفلاحين من القرية ليقوموا بدور الكومبارس على المائدة، ووقف المخرج بركات يشرح المشهد للفلاحين الذين اجتمعوا حول المائدة، ولكن أحد الفلاحين صاح قائلًا: لكن دا مش ممكن.. فسأله بركات على الفور: إزاى؟ فأجاب الفلاح: احنا ناس صايمين يا عم ومش ممكن نفطر.. وبادره بركات على الفور: كل المطلوب منكم تتظاهروا فقط انكم بتاكلوا لحد ما نخلص تصوير المشهد.. ودارت الكاميرا وأثناء التصوير لاحظ أحد الفلاحين أن زميلًا له يأكل فعلًا ويبلع الطعام فصرخ قائلًا: يابن الفرطوس.. انت فطرت؟ ثم نهض وخلع حذاءه وانضم إليه باقى الفلاحين بالأحذية وانهالوا ضربًا على زميلهم الذى أفطر فى رمضان.. وهنا يأس بركات من تصوير المشهد واضطر أن يلغيه وقد خسر المائة جنيه ثمن المأكولات وأيضًا ثمن الفيلم الخام.